يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

چين اير

لشارلوت برونتي

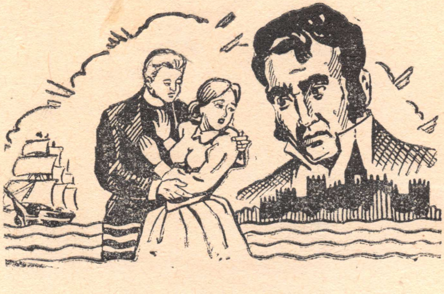


الجزء الثالث والأخير من القصة الكلاسيكية الخالدة

١٠ قروش

شارلوت برونتي

جين إير



JANE EYRE

BY: CHARLOTTE BRONTE

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب السابع عشر

جين اير (الجزء الثالث)

تأليف : شارلوت برونتى
ترجمة : اسماعيل كامل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن ثلاثة وخمسون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد اول كل شهر .. وفيما يلي قائمة الكتب التى صدرت :

خطايا الحب وكتب أخرى · قلب عذراء · الهاربة من الجنة· حواء الجديدة· أحدب نوتردام · جريمة حب · عشيقة نابليون · مذكرات كيوبيد · صنم تحطم · حديقة الله · عندما تحقد المرأة · لعبة الحب والموت · توبة خاطئة · أيها الربيع ترفق · الشيطان على الارض · ليدى هاملتون · الارملة المرحة · حياة جورج صاند · حياة سارة برنار · رباعيات عمر الخيام · حياة بيتهوفن· حياة موسولينى · كوخ العم توم · الزوج والعشيق · البوهيمية · فتاة لها ماض · ترويض النمرة · فن الحب · الجريمة والعقاب · المنافق · أميرةمصر· الامطار · أفروديت · أقنعة الحب السبعة · سالومى · الاعداد : ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤

◆ وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الاول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجر البريد المسجل ، ماعدا العددين العاشر والعشرين ، وثمن كل منهما ٢٠ قرشا . والاعداد ١٣ ، ١٦ ، وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الاعداد الستة الاولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : مايوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا : قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) خالصة اجر البريد ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادي ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الاولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب ، جين اير (جزءان) . وثمن كل من الاول والرابع والسابع ٢٠ قرشا،والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ١٢ قرشا ، والثانى عشر ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص اجرة البريد المسجل)

عزيزى القارىء

◆ من حقك على اليوم ، وانا اقدم لك الجزء الثالث والاخير من هذه الرواية العالمية الخالدة ، ان أشد على يدك ، وان اعلن اليك نجاح التجربة .. التجربة التى اشتركنا فيا معا ، فكانت نتيجتها كسبا جديدا للمكتبة العربية ، ولمكتبة البيت العربى بوجه خاص !

فعندما اعتزمت اصدار « مطبوعات كتابى » ، ظللت طويلا مترددا ، اذ كنت أعرف ان معظم الشوامخ العالمية فى الادب كتب كبيرة ، تستغرق ترجمة كل منها الى العربية اضعاف الحجم الذى يمكن ان يصدر فيه كتاب يزيد من ثروة المكتبة العربية دون ان يثقل على جيب القارىء العادى ... وكنت أعرف ان من الناشرين من أقدم على اصدار بعض الكتب العالمية مراعيا جيب القارىء على حساب الامانة والدقة . ولكننى عولت من اللحظة الاولى - كما تعلم - على ان انقل اليك بالعربية صورا صادقة للكتب الخالدة ، بما فيها من آراء وأفكار وتعبيرات . . حتى أسلوب الكاتب ! .. وتوقع بعض المشفقين من الزملاء والاصدقاء ان اتعب وان اتعرض للخسارة .. بل ذهب البعض الى انها مجازفة غير سليمة العواقب!

ولكننى دائما اعتمد على عون الله وتشجيعك ، واطمئن الى ماعرفته من تلهفك على تذوق الآداب العالمية صافية ، نقية من كل تحريف أو تصرف يودى بأمانة النقل ، ويباعد بينك وبين أساليب الكتاب وطرق عرضهم لافكارهم وآرائهم وتجاريبهم وموضوعاتهم .. لذلك كله لم أتردد عندما اخترت لك قصة « حياة امرأة » فى ان أقدمها لك فى جزءين ، دون ان اختصر منها أو ألخص موضوعها.. ثم قدمت لك « مدام بوفارى » فى جزءين هى الاخرى ..ونجحت التجربتان !..

★ ★ ★

◆ ولكن « حياة امرأة » و « مدام بوفارى » تعتبران من الحجم المتوسط بين الكتب الغربية ، فى حين ان هناك شوامخ عظيمة القيمة ، خالدة الاثر ، يحول دون تقديمها اليك حجمها الكبير .. وكنت مشوقا الى أن أقدم اليك هذه الشوامخ، لاننى لمست من رسائلك ان الجيل الجديد من قراء العربية ، مشوق هو الآخر الى قراءة الاعمال الادبية الضخمة .. ومن ثم أقدمت على اخراج ترجمة « جين اير » كتجربة !

ولقد حدثتك فى العدد الماضى عن المتاعب التى صادفتنى لعلاج مشكلة الحجم، والتى انتهت بتقديم القصة فى ثلاثة أجزاء ، مع الاسراف فى استخدام الحروف الصغيرة لاتفادى ان تكون اربعة اجزاء .. واصارحك باننى كنت اضع يدى على

قلبى وأنا أقوم بالتجربة . فقد لايخطر ببالك ان تعدد الاجزاء معناه ارتفاع أجر الترجمة - اذ ان أتعاب ترجمة رواية من ثلاثة أجزاء تساوى ثلاثة امثال أتعاب كتاب من جزء واحد - ومعناه ايضا ارتفاع نفقات الطباعة ، لان نفقات الطبع بالبنط الصغير تفوق نفقات الطبع بالبنط الكبير .. وبالاختصار ، معناه ارتفاع نفقات الاخراج عامة .. فالمسألة - كما تراها - ليست تصيدا لفرص الربح ، لان النفقات بالنسبة لكل جزء ، تبقى كما لو كان هذا الجزء كتابا مستقلا .. بل انها فى حالة « جين اير » ازدادت ، نظرا للاكثار من استخدام الحروف الصغيرة فى معظم صفحات الجزءين الثانى والثالث ..

ثم ان احتمال الخسارة فى كتاب من ثلاثة أجزاء ، يفوق احتمال الخسارة فى كتاب من جزء واحد .. وهذه حقيقة يلمسها كل ناشر !

ومع كل هذا ، فاننى أقدمت معتمدا على عون الله ، وعلى شعورى بأن الصداقة الوثيقة بيننا مكنتنى من أن اعرف ميولك ورغباتك ، ومن ان اطمئن الى تشجيعك

* * *

◆ ونجحت التجربة .. ونجاحها فوز لك كما هو فوز لى .. بل ان بعض القراء اقترح ان لاأقدم سوى الكتب الكبيرة التى تستغرق جزءين أو ثلاثة .. واقترح بعض آخر أن اقدم امثال هذه الكتب فى مجلد واحد ، مهما يبلغ حجمه ومهما يبلغ ثمنه .. ولكنى اوثر ان نسير معا على الخطة التى نسير عليها الآن ، ارضاء للرغبات المختلفة ، ومراعاة لتفاوت المقدرة الشرائية عند القراء ..

ولا يعنى هذا اننى لم اتلق اعتراضات أو احتجاجات ، ولكنها فى الواقع لم تتجاوز ٥ فى المائة من مجموع التعليقات.. وصدقنى اذا قلت اننى ابتهجت بهذه الاعتراضات والاحتجاجات ، لانها دلت على وجود وعى مستيقظ لدى القارىء العربى ، وعلى وجود رأى .. وردى على هؤلاء المعترضين ، هو ان أدعوهم لقراءة هذه الرسالة من جديد ، كى يدركوا تماما الاسباب التى دعت الى تعدد الاجزاء ، وكى يوازنوا بين كسب الناشر وكسب القارىء !

حلمى مراد

چين إير

لشارلوت برونتي

الجزء الثالث
والأخير



هكذا بدأت القصة ..
ملخص ماورد فى الجزءين الاول والثانى

◆ كان أقصى ماتفتحت عليه عيناى - أنا « جين اير » - فى طفولتى ، هو اننى كنت وحيدة فى الحياة ، بلا أسرة ، ولا مال ، ولا جمال !.. فقد مات والداى - الواحد بعد الآخر ، فى مدى شهر واحد - وأنا بعد طفلة لاأكاد أعى شيئا ، فكفلنى خالى مستر « ريد » ، الذى كان يعيش فى رخاء فى قصر (جيتسهيد) . ولكنه لم يلبث أن توفى ، وتركنى فى رعاية أرملته مسز « ريد » .. على أن حياتى بعده لم تكن نعيما ، فقد كان « جون » - ابن خالى - يجد متعة فى ايذائى ، وكانت شقيقتاه « جورجيانا » و « اليزا » تتعاليان على ، بينما حرصت أمهم - مسز ريد - على أن تعاقبنى بذنوبهم ، وأن تعمل على اذلالى . وحدث ذات مرة أن حبستنى ، فى غرفة مهجورة ، رهيبة ، استبد بى فيها الفزع ، حتى أسلمنى الى مرض قاس . ودفعتنى الحالة النفسية التى خلفها هذا الحادث ، الى أن أروى للصيدلى - الذى عادنى وعالجنى - كل ما كنت ألاقيه من عنت مسز ريد وأولادها وخدمها ، فعرض الرجل الطيب أن يتصل بأقاربى لينقذونى من الحرمان والعذاب ، ولكننى لم أكن أعرف أحدا من أهل أبى .. أجل ، لم أكن أعرف عنهم سوى ماكانت تذكره مسز ريد من أنهم فقراء ، وضيعون .. ولم أكن من الشجاعة بحيث أشترى حريتى بالفقر !.. ومن ثم اقترح الصيدلى على مسز ريد أن تلحقنى بمدرسة داخلية ، فراق لها أن تتخلص منى ، وألحقتنى فعلا بمعهد خيرى لليتيمات فى (لو وود) .. وكان خير عزاء لى فى حياتى الجديدة ، ان مالت ناظرة المدرسة - مس تمبل - الى ، فغمرتنى بعطفها وتشجيعها ..

وقضيت فى المدرسة ثمانى سنوات : ستا كتلميذة ، واثنتين كمعلمة ، وأتقنت فى تلك الاثناء الرسم ، والعزف على « البيانو » ، كما أجدت اللغة الفرنسية . ثم استبدت بى الرغبة فى مبارحة (لو وود) ، بعد أن تزوجت نصيرتى « مس تمبل » وغادرتها .. ولم ألبث أن عينت معلمة لتلميذة دون العاشرة من العمر . فانتقلت الى قصر (ثورنفيلد) بالقرب من مدينة (ميلكوت)

* * *

◆ ولم يكن فى القصر سوى سيدة مسنة تدعى مسز « فيرفاكس » ـ عرفت فيما بعد انها المشرفة عليه وليست ربته ـ وفى رعايتها تلميذتى « أديل فارنس » التى كانت فى حوالى السابعة أو الثامنة من عمرها ، والتى كانت نحيلة ، شاحبة ، لطيفة ، ولدت فى فرنسا ، وكفلها مستر « روشستر » ، سيد القصر. ولم تكن الصغيرة تذكر عن أبيها شيئا ، ولكنها كانت تذكر حنان أمها وعنايتها بأن تلقنها ـ منذ طفولتها ـ الشعر والالقاء والرقص ٠٠ ولم ألق بالا الى والدى تلميذتى ، فقد علمت انهما ماتا ٠٠ أما سيد القصر ، فقد عرفت من أحاديث مسز فيرفاكس و اديل ، انه كان سيدا محترما ، يملك معظم أراضى المنطقة ، ويعتبره مستأجرو أراضيه عادلا متحررا ٠ وكان كثير الاسفار ، على شىء من الشذوذ ، فلا يكاد المرء يدرك أمسرور هو أم مستاء ، بل لايكاد المرء يفهمه !٠٠ ولكننى لم أحفل بهذا ، اذ كان السيد متغيبا ، وكان حنان مسز فيرفاكس ، وتعلق تلميذتى بى ، وأبهة القصر وجمال المناظر المحيطة به ٠٠ كل هذه كانت تشغلنى عن السيد الغائب !

ولم يكن فى القصر عدانا سوى مربية فرنسية تدعى « صوفى » ، جاءت مع اديل من أوربا ، وخادم لتنظيف الدار تدعى « لياه » ، وحوذى يدعى « جون » وزوجته ٠ وكان لهم صف من الحجرات الصغيرة ـ خلف القصر ـ لسكناهم ٠ وفيما عدا هذا ، كان يخيم على القصر طابع غريب ، يبدو فى أجلى صوره فى الطابق الثالث ، الذى كان مكتظا بقطع من الاثاث عريقة فى القدم، بل أثرية ٠٠ وأوحى الى جوه بالاشباح !

وفيما كانت مسز فيرفاكس تطوف بى حجرات هذا الطابق ، سمعت ضحكة عجيبة ٠٠ ضحكة واضحة ، متكلفة ، كئيبة !٠٠ واذ تكررت من وراء باب احدى حجرات الطابق ، قالت مسز فيرفاكس : « لعلها ضحكة الخادم جريس بول! »٠٠ وقدر لى أن أرى « جريس » هذه ، فيما بعد ، فاذا بها امرأة ربعة القوام بين الثلاثين والاربعين من عمرها ، حمراء الشعر ، جامدة الاسارير ، أقرب الى أن تكون شبحا مخيفا !٠٠ واعتدت ـ بعد ذلك ـ أن أسمع هذه الضحكة الرهيبة تجلجل ثم تعقبها غمغمة شاذة ، وأن أرى « جريس » ـ أحيانا ـ تغادر غرفتها الى المطبخ ثم تعود حاملة وعاء مليئا بالطعام ٠ وكان مظهرها يخالف تصرفاتها

الشاذة ، فقد كانت قسماتها الحادة تنم عن رصانة٠وكثيرا ماحاولت استدراجها الى الحديث ، فكانت تبدى زهدا فيه ، وتجيب باقتضاب يقطع على المرء أى أمل !

★ ★ ★

◆ وفى عصر أحد أيام شهر يناير ـوكنت قد قضيت ثلاثة اشهر فى القصر ـ خرجت أسعى على قدمى الى قرية (هاى) التى كانت تبعد بحوالى الميلين عن القصر ، واذا بى أفاجأ فى بقعة موحشة من طريق ضيق على سفح التل ، بفارس يصحبه كلب ضخم ٠٠ واستبد بى الخوف ، وقد خلت أن الفارس وجواده وكلبه من الاشباح ٠ ولكن الجواد لم يلبث أن انزلق على الصخور المكسوة بالجليد ، فوقع الفارس والتوت قدمه ٠ وخففت الى مساعدته ، فتقبل المساعدة فى جفاء وخشونة ٠٠ وكان طويل القامة ، عريض المنكبين ، أسمر البشرة ، ذا قسمات جافة ، وحاجبين غزيرين يلتقيان فوق عينيه ٠٠

وعندما عدت الى القصر فى المساء ، عرفت ان الفارس لم يكن سوى ٠٠ مستر روشستر ، سيد القصر !

ودبت الحياة فى (ثورنفيلد هول) بمقدم السيد ، ولكننى لم أحظ بلقائه ، حتى طلب ذات مساء أن أتناول وتلميذتى الشاى معه فى حجرة الاستقبال ٠ وكانت مقابلته لى جافة ، فاترة ، ولكنه ما لبث أن سألنى عن حياتى السابقة ، وعن قراءاتى وهواياتى فى شىء من الجفاء والسخرية ٠٠

واذ خلوت الى مسز فيرفاكس فى تلك الليلة ، أبديت دهشتى لتقلب طباع السيد وفظاظته ، فاذا بها تلتمس له العذر بأن لديه أفكارا مؤلمة تنكد عليه صفوه وتعذب روحه ! ٠٠ وعلمت ان حياته العائلية لم تكن هانئة ، فقد أوغر أخوه الاكبر صدر أبيهما عليه ، ومن ثم اتحدا على أن يورطاه فى مركز أليم أغضبه منهما ، فقاطع الاسرة ، ولم يعد يستقر فى حياته ، ومع أنه ورث المقاطعة منذ تسع سنوات ـ لوفاة أخيه ـ الا أنه لم يكف عن الاسفار ، ولم يكن يقيم فى (ثورنفيلد) أكثر من أسبوعين ، فى أية مرة ٠٠ وأدركت من الحديث ان فى الامر سرا غامضا ، ولكن مسز فيرفاكس لم تشأ أن تفصح عن شىء !

★ ★ ★

◆ وسألنى مستر روشستر مرة وقد فاجانى وأنا أتأمل سحنته : « أترينننى جميلا ؟ » ٠٠ وقبل أن أفطن الى واجبات المجاملة واللياقة ، انزلق لسانى قائلا: « لا ياسيدى ! » ٠٠ وحاولت ان اعتذر ، ولكنه أصر على ان أنتقد عيوبه ، فلما تورعت قال : « اننى لا أطيق معاشرة الاطفال والنساء العجائز ٠٠ ولست محبا للبشر والانسانية بصفة عامة ، ولكنى احمل ضميرا بين جنبى ، كما كان لى فيما مضى قلب رقيق ٠٠ وكنت فى سنك شديد الحساسية ، أعطف على كل من لم يستكمل النضج ، وكل من لايجد عائلا ، وكل من يخونه الحظ ٠ بيد أن القدر عادانى منذ ذلك الوقت ٠٠ بل انه طحننى بيديه »

وراح يحاورنى فى حديث لم يكن من اليسير على المرء أن يقطع بما اذا كان جادا أو هازلا ، صريحا أو ماكرا !٠٠ وتبدى لى الرجل عجيبا ٠٠ وكان يقرأ فى عينى مايطوف برأسى٠وحدثنى عن نفسه ، فكان مما قاله : « اقسم لك اننى لست شريرا ولا وغدا ، ولكننى ــ لظروف خاصة أحاطت بى ــ أصبحت مبتذل الاخلاق ، وآثما مهينا تردى فى كل الملذات الرخيصة التى يحاول الاغنياء والتافهون أن يدخلوها على حياتهم » ٠٠ وتطرق الى فلسفة الخير والشر ، والتوبة بعد الخطيئة ٠٠ ثم حدثنى عن اديل ، فأدركت منه انها ابنة ممثلة فرنسية كانت تدعى « سيلين فارنس » ، قال عنها : « لقد فتنتنى وجعلتنى أنفق عليها بغير حساب ، عندما كنت غض الاهاب » ٠٠ وما لبث أن روى لى قصته معها ــ فى لقاء آخر : كان مفتونا بالممثلة الفرنسية ، وقد أوهمته بأنها تحبه حبا عنيفا ــ رغم دمامته ــ الى أن اكتشف يوما انها تؤثر عليه « فيكونت » شابا ، طائشا ، فاسدا ٠ وسمعهما يسبانه بأقذع السباب ، واخذت « سيلين » تعدد عيوبه وعاهاته ٠٠ ففاجأهما فى خلوتهما تلك ، وهجر الغانية ، كما بارز « الفيكونت » فترك فى ذراعه رصاصة ٠٠ وظن انه انتهى منهما ، ولكن «سيلين» كانت قد جاءته بالصغيرة « اديل » قبل ذلك بستة أشهر ، فما لبثت ان هجرت الطفلة ــ التى زعمت انها ابنته ــ و « لم اكن اعترف بأى حق شرعى لاديل ، بيد أننى أنقذتها من أوحال باريس ، لتترعرع هنا فى تربة نظيفة » !

* * *

وجذبتني اليه صراحته وثقته اللتان جعلتاه يعاملني كما لو انه كان قريبي وليس مخدومي .. وأدركت ان ما كان يبدو عليه من خشونة وخبث واكتئاب ، انما نشأ عن صدمات القدر القاسية !

وفي الليلة التي روى لي فيها قصته مع « سيلين » ، استيقظت في جوف الليل على ضحكة شيطانية خبيثة ، وعلى أنين وخوار .. وتوقعت أن تكون « جريس بول » في احدى نوباتها ، ولكنني لم أقو على البقاء بمفردي ، فخرجت الى الردهة ، واذا بي أكتشف حريقا في مخدع مستر روشستر !.. واستطعت أن أطفيء النار التي كانت مشتعلة حول الفراش ، وأن أوقظ السيد في اللحظة المناسبة . وهممت بأن أطلب النجدة ، ولكنه استحلفني أن أكتم كل شيء .. وعندما هممت بأن أغادر مخدعه ، أمسك بيدي وقال : « لقد أنقذت حياتي .. وما كنت لاحتمل أن أدين لمخلوق بمثل هذا الدين الضخم ، ولكن الامر يختلف معك .. كنت أعرف أن خيرا سيصيبني على يديك ! »

وأدهشني أن أتبين في اليوم التالي أنه زعم لمسز فيرفاكس والخدم بأنه استغرق في النوم بينما كان يقرأ في فراشه ، فامتدت النار من الشمعة الى الستائر .. ولكن الذي أذهلني حقا ، هو أنني رأيت « جريس بول » في المخدع تخيط ستائر جديدة ، دون أن يبدو عليها أي انفعال أو شعور بالاثم .. وعجبت من أن يتكتم السيد الجسور ، المنتقم ، المتعالي ، جرم خادم كهذه ، ويدع نفسه تحت رحمتها !..

وضاعف من عجبي ان السيد رحل في صباح الحادث ، دون أن أفطن الى رحيله .. وعلمت من مسز فيرفاكس انه في زيارة قصر أسرة من ذوي الجاه ، حيث كان مدعوا مع طائفة من علية القوم .. وداخلني شعور غريب عندما حدثتني السيدة العجوز عن شغف سيدات المجتمع الراقي بمستر روشستر رغم ان شكله لم يكن يرشحه لذلك .. واشتد اثر ذلك الشعور عندما سمعت منها ان السيد كان يبدي اهتماما خاصا بفتاة من أسرة رفيعة تدعى « مس انجرام » . وكانت حسناء ، ذات جمال خلاب .. وشد ماجزعت حين تبينت حقيقة ذلك الشعور الذي أيقظه في نفسي حديث مسز فيرفاكس ، فأدركت انني .. أحببت مخدومي !

★ ★ ★

◆ واشتدت تباريح الهوى ، عندما أقبل مسر روشستر ـ بعد اسبوعين من غيابه ـ مصطحبا طائفة من سيدات وسادة الطبقة الراقية ٠٠ وكانت « مس انجرام » بينهم !٠٠ وفى الوقت الذى كنت أعانى فيه من صلف هؤلاء السادة والسيدات ، وجدتنى أكتوى بالغيرة اللاذعة ، لما كان يبديه مخدومى من اهتمام بمس انجرام،ومن تقرب اليها ٠٠ وحاولت أن أكبح جماح قلبى ، ولكننى لم أكن أملك أن أنصرف عن حب مخدومى ٠٠ حتى بعد أن ادركت ان لابد له من أن يتزوج من الفتاة لاعتبارات عائلية ، واجتماعية !٠٠ ولم أكن كذلك أملك أن أستنكر هذا الزواج ، ولكننى أوجست منه شرا ، اذ تبدت لى مس انجرام متعجرفة ، ضحلة المشاعر ، تافهة التفكير !

وحدث أن هبط القصر ذات يوم رجل غريب ، ذكر انه يدعى « ميسون » ، وانه قدم من (جمايكا) ، وانه كان صديقا لمستر روشستر ، ولكن السيد كان متغيبا عن القصر ، فأصر الغريب على أن يمكث فى انتظاره ٠٠ وفى تلك الاثناء، أقبلت عجوز من الغجر ، تعرض فنونها فى قراءة الطالع والتنبؤ بالغيب ، ولكنها أصرت على أن تقصر تنبؤاتها على الشابات غير المتزوجات فقط ، وعلى أن تكون كل منهن على حدة ،تخلو اليها فى غرفة المكتبة دون رقيب !٠٠ وأقبلت الشابات فى لهفة وفضول ، فدخلن للعجوز تباعا ، حتى اذا فرغت منهن ، أقبل خادم يقول : « ان الغجرية تقول انه لاتزال بالحجرة شابة غير متزوجة لم تذهب اليها ، وتقسم ألا تنصرف حتىتراها ! » ٠٠ ووجدتنى مسوقة الى أنأتسلل الى غرفة المكتبة ٠ وبادرتنى العجوز متسائلة : « لماذا لاترتجفين ؟ » ، فأجبت بأننى لا أشعر ببرد ، وعادت تسأل : « ولماذا لم يشحب وجهك ؟ » ، فأجبت : «لاننى لست مريضة » ، واستطردت تسألنى : « ولماذا لاتستشيرين حرفتى ؟ » ، فقلت : « لاننى لست حمقاء » ! ٠٠ واذا العجوز تضحك قائلة : « بل انت بردانة لانك وحيدة لايشعل نيرانك الكامنة احتكاك ٠٠ ومريضة لان أسمى وأحلى مايوهب من المشاعر للرجال ينأى عنك ٠٠ وحمقاء لانك برغم ماتقاسين لاتشيرين اليه (اى للرجل المرموق) ليقترب منك ، ولا تتقدمين خطوة نحوه لتلتقى به ! » ٠٠ ومضت تحلل نفسى تحليلا معقولا ، حتى مست خفيفا موضوع

ما كان يراودنى من غيرة لما كان بين مستر روشستر وضيفته الفاتنة ، وتنبأت بأن السيد لن يلبث أن يتزوج من مس انجرام ، ثم راحت تكشف عن أدق ما كان يخالج نفسى من أحاسيس خفية .. وما ان انتهت حتى قالت : « ألا انهضى يامس اير .. لقد انتهت المسرحية ! »

وشد ماكانت دهشتى حين تبينت ان الغجرية العجوز ، لم تكن سوى ... مستر روشستر متنكرا ! واذ قلت له ان الضيف الغريب - مستر ميسون - فى انتظاره ، شحب وجهه وترنح قائلا : « ياللشيطان !.. لقد أصابتنى لطمة ياجين !.. لقد قدمت لى كتفك مرة من قبل ، فدعينى أتكىء عليها اليوم » .. وما لبث أن سألنى أن أدعو اليه السيد ، ولكنه استوثق - قبل ذلك - من اننى على استعداد لان أعاونه ، فقال : « ولو جاء هؤلاء الناس وبصقوا فى وجهى ، فماذا تفعلين ؟ » .. فقلت : « اطردهم ! »

- واذا شهروا بك لتمسكك بى ؟

- لا أعرف شيئا عن هذا التشهير ، ولكننى لن أحفل به لو عرفته !

★ ★ ★

◆ وقضى مستر « ميسون » ليلته فى القصر . ولكننى استيقظت فى جوف الليل على صرخة مروعة ، حادة ، أعقبها ضجيج صراع كان يدور فى الغرفة التى كانت تعلو غرفتى ،وصرخات تطلب النجدة وتنادى روشستر .. وقفزالضيوف من مضاجعهم مذعورين . ولكن سيد القصر لم يلبث أن ظهر فطمأنهم وزعم ان كابوسا انتاب خادما عصبية ،سريعة الهياج .. وما ان اطمأننت الى أن الجميع عادوا الى مخادعهم ، حتى ارتديت ثيابى ، وجلست أنتظر وقد شعرت بأن مخدومى فى حاجة الى معونتى .. وفعلا أقبل بعد قليل ، فسألنى أن أحضر اسفنجا وبعض « النوشادر » ، ثم قادنى الى غرفة فى الطابق الثالث .. وسمعت ضحكة « جريس » تنساب من غرفة داخلية ، ينفذ المرء اليها خلال غرفة أخرى واسعة بها سرير كبير .. وفى هذه الحجرة رأيت مستر ميسون فاقد الوعى جريحا . وتركنى السيد أعنى بايقاف الدماء التى كانت تنساب من جراح ضيفه ، بينما أسرع هو الى استدعاء جراح ..

واشتد بى الخوف وانا وحيدة مع الجريح ، لايفصلنى عن المرأة التى كادت

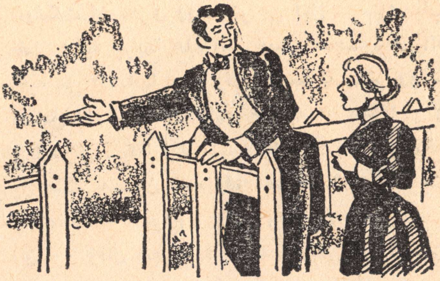
تفتك به ـ والتى أوشكت آن تحرق روشستر من قبل ـ سوى باب واحـد !
٠٠ورحت أسائل نفسى : أية جريمة هذه التى تعيش متجسدة فى القصر المنعزل، دون أن يقوى صاحبه على اقصائها ؟٠٠ ولقد سمعت مستر روشستر يختار لضيفه غرفة فى الطابق الاسفل ، فما الذى جاء به الى هنا ؟٠٠ ولماذا تستر مستر روشستر على الحريق ، كما أخذ يتستر على هذا الحادث الاخير ؟٠٠ ثم ، لماذا وقع نبأ وصول مستر ميسون عليه وقع الصاعقة ؟٠٠ وأخرجنى من خوفى وحيرتى مقدم السيد مصطحبا الجراح ، الذى وجد ان لحم كتف ميسون كان ممزقا من أثر أسنان ٠٠ وقال الجريح : « لقد عضتنى ٠٠ انقضت على كنمرة ضارية ، عندما انتزع منها روشستر السكين ! » ٠٠ فقال مستر روشستر : « كان عليك أن تصارعها ولا تستسلم ٠٠ لقد أنذرتك !٠ كان فى وسعك أن تنتظر الى الغد لاكون معك ٠٠ كانت حماقة منك ان حاولت مقابلتهـا الليلة وحدك ! » ٠ وشاهدته يرتجف فى اشمئزاز ورعب وكراهية وهو يتكلم ٠٠ وما لبث أن أمرنى بأن احضر من خزانته قميصا ورباط رقبة لمستر ميسون ، ثم ذكر له انهسيرسله مع الجراحبعيدا عن القصر قائلا : « ان هذا لصالحكوصالح تلك المخلوقة الشقية ٠ لقد ناضلتطويلا لتحاشى التعريض والتشهير ، ولا أريد أن يحدث شيء من هذا أخيرا ! »

وفى هدوء ، رحل مستر ميسون مع الطبيب بينما كان الضيوف نائمين !

★ ★ ★

◆ وكان الصبح قد تنفس عندما ودعتهما مع مستر روشستر ٠ فلما تهيأت للعودة الى داخل القصر ، دعانى الى بستان ذى باب مغلق ـ فىجانب من القصر٠ وأخذنا نتمشى فى هدوء ٠ وسألتـه ان كان الخطر الذى توقعه عنـدما علم بوصول مستر ميسون قد انتهى، فقال : « لا أستطيع الجزم بذلك ٠٠ حتى بعد أن يغادر ميسون انجلترا !٠٠ ان ميسون لن يمسنى عامدا بأذى ، ولكنه ربما تسبب عن غير قصد ، وبكلمة يتفوه بها ، فى حرمانى الى الابد من السعادة ٠ ان لم يكن من حياتى ! » ٠٠

وفيما كنا جالسين فى البستان ، حدثنى عن انغماسه منذ الصغر فى حياة كلها زيف ومظاهر ، وكيف انه ارتكب فى بلد اجنبى خطيئة تراكمت نتائجها



حتى أصبحت لاتطاق ، وحتى أغلقت أبواب الامل فى وجهه وهو بعد فى مقتبل العمر ، فأخذ يهيم على وجهه بحثا عن الراحة • ومضى ينشد السعادة فى اللهو الجثمانى الشهوانى الذى يظلم العقل ويؤذى الشعور •• ثم عاد الى الوطن بعد سنوات من النفى الاختيارى مثقل القلب ، ليجد صديقا جديدا لمس فيه الفضائل التى ظل يبحث عنها عشرين سنة ، فاذا قلبه ينتعش ، واذا آماله تتجدد ••
وكنت أنا ذلك الصديق على مافهمت • ولكنه استطرد قائلا انه يرجو أن يبدأ حياة جديدة ، سعيدة ،مع ذلك الصديق الغريب ، ولكن : « هل يجوز له أن يتخطى عقبة العرف والعادات •• تلك العقبة التى لايقرها ضمير ولا عقل ؟ »

وما لبثت أن فوجئت بدعوة من مسز « ريد » ارملة خالى التى سامتنى العذاب فى صغرى •• كان ابنها قد مات بعد أن بدد ثروته ومعظم ثروتها ، وكانت هى تحتضر وتطلب أن أكون الى جوارها • وسمح لى مخدومى كارها بأن ألبى دعوتها ، فرحلت الى (جيتسهيد) • وهناك وجدت مسز « ريد » لاتزال تكن لى أبشع ألوان البغضاء ، رغم انها كانت على أبواب القبر •• وتبينت انها كانت قد تلقت خطابا منذ سنوات ثلاث من قريب لوالدى يدعى « جون اير » ذكر فيه أنه هاجر الى (ماديرا) حيث أصاب ثروة ، وانه يتمنى أن يتبنانى ليترك لى ثروته عند موته • ولكن الارملة الحقود كتبت اليه زاعمة اننى مت !••

★ ★ ★

◆ وانقضى شهر قبل أن أعود الى (ثورنفيلد) بعد موت مسز « ريد » ••

وكان مستر روشستر أول مخلوق رأيته عند عودتى ، اذ كان يجلس وحيدا فى طرف ناء من حدائق القصر ، فاستقبلنى بابتهاج ·· وزخر الشهران اللذان أعقبا عودتى بهدوء مريب ، مشوب بالغموض · الى أن خرجت أتنزه عند غروب شمس أحد أيام منتصف الصيف ، واذا مستر روشستر يلقانى فى البستان ، فيحدثنى فى لهجة غامضة عن زواجه ولما أبديت رغبة فى مبارحة القصر وترك منصبى قبل وصول عروسه ، اقترح أن يلحقنى بخدمة أسرة صديقة له فى (ايرلندا) ··· فقلت واجفة القلب : « ولكن أيرلندا بعيدة ياسيدى ·· والبحر يفصلها عن انجلترا ، وعن ثورنفيلد ، وعن ·· » ، فتساءل : « وعن ماذا ؟ » ·· فقلت : « وعنك أنت ياسيدى ! » وطفرت الدموع من عينى دون ارادتى ·· وعصفت الاحزان بكيانى ، فلم ألبث أن هتفت : « ليتنى لم أولد ولم تقع عيناى على ثورنفيلد ! »

واهتاجنى الحزن والحب ، فاذا مستر روشستر يحتوينى بين ذراعيه ، ويضغط شفتيه على شفتى ، ويقول :« ان ارادتك سوف تقرر مصيرك ، وأنا أقدم لك قلبى ويدى وممتلكاتى ·· هل تتزوجيننى ؟ » ·· وظننته فى البداية يسخر منى أو يعبث بى ، ولكنه راح يؤكد لى انه جاد ، وانه مافكر فى الزواج من مس انجرام راضيا ، لاسيما وقد استوثق من انها لم تكن تحبه ، وانما كانت تحب ثروته ، فلما أوهما بأن هذه الثروة لاتساوى ثلث قيمتها الظاهرية ، انقلبت معاملتها له الى فتور · واستطرد قائلا : « أما أنت ·· أنت أيتها المخلوقة الغريبة العجيبة التى لاتمت الى الارض بصلة ، فاننى أحبك كما لو كنت من لحمى ·· أنت ، أيتها الفقيرة المغمورة الضئيلة البسيطة ··أنت هى التى أتوسل اليها أن تقبلنى زوجا ! »

وحدد للزواج موعدا بعد أربعة أسابيع ، فلم تكد الدنيا تتسع لفرحتى !

★ ★ ★

◆ وانقضى الشهر كأنه حلم بهيج ، لم يكن يعكر هنائى خلاله ، سوى شعور مبهم بأنه لم يكن من المعقول أن يحالفنى القدر الى الحد الذى يحقق سعادتى ·· ووقر فى نفسى أن زواجى من مستر روشستر لن يتم !

وحدث أن تغيب مستر روشستر عن القصر يومين . وكان مقدرا أن يعود فى الليلة السابقة على الزواج ، فجلست أنتظره ، ولكنـه تأخر .. وكانت الامطار تهطل مدرارة ، والرياح ترسل عواء حزينـا ، رهيبا .. وأويت أخيرا الى مخدعى ، ولكننى غادرته فى جوف الليل ، وانطلقت الى الخارج غـير حافلة بالعاصفة ، لانتظر السيد الحبيب . وما ان رآنى حتى هتف فى جزع مشفق يسائلنى عما بى .. ووجدتنى أفضى اليه بمخاوفى وهواجسى . فلقـد رأيت فى المنام فى الليلة السـابقة اننى أسير فى طريق مجهـول ، كثير التعاريج ، والمطر ينهمر مدرارا ، وعلى ذراعى طفل صـغير يولول بصـوت حزين .. وكنت أحاول أن ألحق بمستر روشستر .. ورحت أناديه وأضرع اليه ، ولكن قدمى سمرتا الى الارض ، وصوتى راح مـع الريح ، والسـيد ممعن فى الابتعاد عنى .. واستيقظت من الحلم مذعورة ، ولكننى لم ألبث أن نمت ثانيـة ، فرأيت مناما أكثر رهبة .. رأيت قصر (ثورنفيلد) اطـلالا موحشة .. ورأيتنى أتجول وسط الحشائش التى نبتت بداخله ، وأنا أحمل الطفل المجهول ، واذا بقدمى تتعثران .. وما لبثت أن سمعت وقع سنابك جواد ، فخيل الى أن مستر روشستر هو القادم ، وأسرعت أتسلق جـدارا ، واذا بالاحجار تنهار ، واذا بالطفل يلف ذراعيه حول عنقى حتى كاد يخنقنى .. وفقدت توازنى فسقطت ، ثم صحوت من نومى ، فبهر عينى نور شمعة ، ورأيت باب الخزانة - التى علقت فيها ثوب الزفاف وخمار العرس - مفتوحا .. وهتفت ظانة أن « صوفى » - مربية أديل - فى الحجرة ، واذا بشخص يمرق من الخزنة ، ويرفع النور عاليا ، ويتأمل الثياب المعلقة ، وهو صامت ! .. واستبدت بى الحيرة والخوف ، ثم جمـد الدم فى عروقى .. لم يكن الشخص « صوفى » ، ولا « لياه » ، ولا مسز « فيرفاكس » ، ولا تلك المرأة الغريبة الاطوار .. « جريس بول » !

... ...

والآن تستطيع ان تقرأ ماتبقى من هذه القصة الرائعة :

... ...

◆ **وقاطعنى** سيدى قائلا : « لابد ان الشخص كان واحدة منهن »

ـ لا ياسيدى ، أقسم لك ان الامر كان على النقيض ٠٠ ان الشكل الذى كان ماثلا أمامى ، لم تقع عليه عيناى فى أرجاء (ثورنفيلد هول) من قبل ٠٠ كان ارتفاع القامة والتفافهـا غريبين عنى

ـ صفيه ياجين !

ـ يلوح لى ياسيدى انها امرأة مديدة ضخمة يتدلى شعرها الغزير الاسود على ظهرها ، ولا أدرى ماذا كانت تلبس فقد كانت ترتدى شيئا أبيض مستقيما لم أتبين ما اذا كان عباءة أو ملاءة أو كفنا !

ـ هل شاهدت وجهها ؟

ـ لم أره فى البداية ، ولكنهـا سرعان ما أخذت خمـار الزفاف من مكانه فرفعته وراحت تتأمله طويلا ، ثم ألقت به على رأسها واستدارت الى المرآة ٠ وفى تلك اللحظة شاهدت وجهها وأساريرها منعكسة بوضوح تام على صفحة المرآة المعتمة



— وماذا كان شكلها ؟

— مخيفة ، مروعة ٠٠ أواه ياسيدى ، ما رأيت قط مثل هذا الوجه !٠٠ وجه عديم اللون ، وحشى ، بودى لو أنسى كيف كانت مقلتاه المحمرتان تجولان فى محجريهما اللذين توسطا وجها منتفخا ، مسودا ، رهيبا !

— ان الاشباح شاحبة فى العادة ياجين !

— لقد كان هذا الشبح قرمزيا ياسيدى ، وكانت الشفتان متورمتين داكنتين ، والجبين مغضنا ، والحاجبان الاسودان مرتفعين متباعدين فوق العينين اللتين كانتا بلون الدم ٠٠ أفأقول لك بماذا ذكرنى هذا الشبح ؟

— قولى !

— بالشبح الالمانى المخيف ٠٠ الغول شارب الدماء

— آه ٠٠ وماذا فعلت تلك المرأة ؟

— رفعت خمارى عن رأسها الهزيل ياسيدى ، ثم مزقته شطرين ألقت بهما على الارض وداستهما بقدميها

— وبعد ذلك ؟

— جذبت احدى ستائر النافذة وأطلت الى الخارج ، ولعلها شاهدت تباشير الفجر ، لانها تناولت الشمعة وسارت الى الباب ٠ فلما بلغت فراشى ، وقفت راحت تحدق فى بعينيها المتقدتين ، ثم دفعت بالشمعة قريبا من وجهى ، وأطفأتها تحت عينى ٠ وأحسست بوجهها يلفح وجهى ، فأغمى على للمرة الثانية ٠٠ أجل ، للمرة الثانية فى حياتى ، فقدت رشدى لفرط الرعب !

— من كان معك عندما أفقت من اغمائك ؟

— لا أحد ياسيدى غير ضوء النهار ٠٠ فنهضت من فراشى وغسلت وجهى ورأسى، وشربت بعض الماء ٠ وكنت أحس ضعفا ، ولكنى لم أكن مريضة ٠ وعولت على ألا أبوح بهذه الرؤيا لاحد سواك ياسيدى ٠ والآن خبرنى ياسيدى ماذا ومن تكون تلك المرأة ؟

ـ انها من ابتداع رأس زاخر ـ أكثر ممابنبغي ـ بالمثيرات، ولا بد لى من أن أعنى بك ياكنزى الغالى ، لان أعصابا كأعصابك لم تخلق للمتاعب

ـ ثق ياسيدى ان أعصـــابى لم تكن مرهقة ، وان الرؤيا صحيحة ، وأن الحادث وقع فعلا

ـ وأحلامك السابقة ، هل كانت حقيقية هى الاخرى ؟٠٠ هل ترين (ثورنفيلد) أطلالا ؟ وهــل صحيح اننى افترقت عنك وحالت بينى وبينك عقبات لايمكن تذليلها ؟ هل فارقتك بدون دمعة ٠٠ بدون قبلة ٠٠ بدون كلمة ؟

ـ كلا ، لم يحدث شىء من هذا بعد

ـ وهل أنا على وشك القيام بذلك ؟ لقد بدأ فعلا اليـــوم الذى سوف نرتبط فيه برباط لاتنفصم عراه ، وآذا امتزجنا واتحدنا فلن تعاودك هــذه الاهوال الذهنية ٠٠ اننى أضمن لك ذلك !

ـ أهوال ذهنية ياسيدى ؟٠٠ ليتها كما تقول ! ليتهاكانت كذلك مادمت تعجز عن تفسير هذه الرؤيا المفزعة

ـ وما دمت عاجزا عن تفسيرها ياجين ، فلا بد انهـــا غـير حقيقية

ـ ولكننى ياسيدى عندما قلت لنفسى هذا القول ثم غادرت فراشى فى هذا الصباح ، نظرت حولى فى الغرفة لاجمع شتات نفسي ، فاذا عيناى تقعان على الخمار ملقى على الارض وقـــد انشق من أوله الى آخره !

* * *

◆ **وشعرت** بمستر روشستر يفزع ويرتعــد ، ثم بادر يطوقنى بذراعيه ويصيح : « حمــدا لله آذ اقتصر الشر فى الليلة الماضية على تمزيق خمارك !٠٠ ان يدى لترتعش كلمـا تصورت ماكان يمكن آن يصيبك » ٠٠ ثم تنهد ، وجذبنى اليه

بشدة كدت معها لا أقوى على اللهث • وبعد ان أخلد الى الصمت لحظات قال فى ابتهاج : « سأشرح لك الآن ياجين كل شيء •• **لقد كان الامر نصف حلم ، ونصف حقيقة ، فلست أشك فى أن امرأة دخلت حجرتك • ولابد ان تكون هذه المرأة جريس بول ، فقد وصفتها أنت بأنها مخلوقة عجيبة ، ولك الحق فى هذا الوصف بعد الذى علمتيه عنها •• أفتذكرين مافعلته بى ؟•• وما فعلته بمستر ميسون ؟•• ولابد انك كنت بين النوم واليقظة حين لاحظت دخولها وأفعالها • ولكنك فى حالتك المحمومة ، بل فى هذيانك ، تصورتها فى صورة خيالية لاتتفق والواقع •• وما الشعر الطويل المشعث ، والوجه المنتفخ الاسود ، والقوام المبالغ فيه سوى أوهام الخيال وتلفيقاته الناشئة عن كابوس •• أما تمزيق الخمار فحادث حقيقى من المعقول ان تقدم عليه • ولعلك تسألينني لماذا آوى مثل هذه المرأة فى منزلى ، وسأتولى الرد على ذلك بعد أن ينقضى على زواجنا عام ويوم ، وليس الآن •• أفأنت راضية الآن ياجين ؟ هل قبلت شرحى للغز ؟ »**

وفكرت فرأيت ان هذا كان التفسير الوحيد المحتمل • ومع اننى لم اقتنع به تماما ، الا اننى تظاهرت بذلك لأبعث السرور فى نفسه • ومن ثم أجبت بابتسامة راضية • وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة بكثير ، فتأهبت لمغادرته •• وعندما أضأت الشمعة ، سألنى : « هل تنام صوفى مع أديل فى غرفة الاطفال ؟ » •• فأجبت : « نعم ياسيدى »

— ان فى فراش اديل على صغره متسعا لك ، فعليك أن تشاطريها اياه الليلة ياجين ، فليس من العجيب أن يؤثر الحادث الذى رويته على أعصابك ، وأؤثر لذلك ألا تنامى وحيدة ، عدينى ان تأوى الى حجرة الطفلة !

— سأفعل هذا بكل سرور ياسيدى

— ثم اغلقى الباب جيدا من الداخل بعد ان توقظى «صوفى»

عند صعودك متعللة برغبتك فى ان توصيها بايقاظك فى ساعة مبكرة من صباح الغد ، لان عليك أن ترتدى ثيابك وتفرغى من فطورك قبل الثامنة ٠٠ والآن ، اطرحى عنك الافكار المظلمة ، بل طاردى الهموم القاتمة ياجين ٠ ألا تسمعين كيف انقلبت الرياح الى همسات ناعمة ، وكف المطر عن طرق زجاج النوافذ ٠٠ انظرى (ورفع الستارة عاليا وقال) ٠٠ ان الليل جميل !

وحقا كان الليل جميلا وقد صفا نصف السماء ، وأخذت السحب تنجاب أمام الرياح التى كانت تسوقها بعيدا نحو الشرق ٠ وأخذ القمر يرسل ضياءه فى هدوء ٠ ونظر مستر روشستر فى عينى متسائلا ثم قال : « كيف حال حبيبتى جين الآن ؟ »

ـ آن الليل هادىء رائق ٠٠ وكذلك أنا

ـ سوف لا تحلمين الليلة بالفراق والاحزان وانما ستكون أحلامك عن الحب السعيد والرباط المبارك

ولكن هذه النبوءة لم تتحقق كلها ٠٠ لم أحلم فى الحقيقة بالاحزان ، ولكنى لم أر أحلاما سارة كذلك ، اذ لم يغمض لى جفن ، بل رحت أرقب أديل وهى بين ذراعى ، وأتأمل نوم الطفولة الهادىء البرىء ، وأنا أرقب مطلع النهار ، وقد استيقظت كل حياتى وراحت تدب فى كيانى ٠٠ حتى اذا نهضت الشمس ، نهضت بدورى ٠ وأذكر أن أديل كانت متعلقة بى عندما غادرتها ، كما أذكر اننى قبلتها عندما رفعت يديها الصغيرتين عن عنقى ، فجعلت أبكي ـ وأنا أحنو عليها ـ بانفعال عجيب ، ثم غادرتها خشية ان تقض شهقاتى مضجعها ونومها العميق ٠٠ فلقد تبدت لى رمزا لحياتى الماضية ٠ أما هذا الذى كان على ان أتهيأ اذ ذاك للقائه ، فقد تراءى لى انه الرمز الذى أرهبه وأعبده ليومى المقبل المجهول !

*

الفصل السادس والعشرون



◆ **قدمت** صوفى فى الساعة السابعة لتساعدنى على ارتداء ملابسى ٠ والواقع انها تباطأت كثيرا فى تأدية مهمتها ، حتى عيل صبر مستر روشستر لتأخرى ، فيما أعتقد ، فأرسل يسأل عن السبب فى عدم مجيئى ٠ وكانت صوفى اذ ذاك تثبت خمارى الابيض المربع البسيط الذى كنت أريده فى البداية ، الى شعرى بدبوس ٠ فبادرت أغادرها بأسرع ما استطعت ، ومن ثم صاحت بالفرنسية : « قفى ! انظرى الى نفسك فى المرآة فانك لم تختلسى نظرة واحدة الى صورتك ! » ٠٠ فعدت ثانية الى الحجرة لارى فى المرآة جسما يرتدى ثوبا وخمارا ، ولا يشبهنى اطلاقا بحيث خيل الى أننى أرى صورة فتاة غريبة عنى !٠٠ وسمعت صوتا ينادى : « ياجين ! » ، فهرعت الى حيث استقبلنى مستر روشستر عند السلم قائلا : « أيتها المتلكئة !٠٠ لقد التهب رأسى بنفاد الصبر ، وأنت تتأخرين حتى الآن ! »

وذهب بى الى حجرة المائدة ، حيث جعل يتأملنى من مفرقى الى أخمص قدمى ٠ **وما لبث ان وصفنى قائلا اننى كنت « جميلة كالزنبقة » ، واننى لم أكن كل ما تزدهى به حياته فحسب ،**

وانما كنت « **غاية ماتشتهى عيناه !** » • واذ قال انه يمهلنى عشر دقائق لاتناول فطورى ، دق الجرس ، فلباه أحد الخدم الذين استأجرهم أخيرا • واذ ذاك سأله : « هل أعد جون العربة ؟ »

ـ نعم ياسيدى

ـ وهل آنزلتم الحقائب ؟

ـ انهم يفعلون ذلك الآن ياسيدى

ـ اذهب الى الكنيسة وتأكد من وجود مستر وود (الكاهن) مع الكاتب هناك ثم عد واخبرنى

وكانت الكنيسة ـ كما يعلم القارىء ـ تقع وراء الابواب الخارجية للقصر مباشرة • لذلك عاد الخادم بسرعه يقول : « ان مستر وود فى قاعة الثياب يرتدى الزى الكهنوتى ياسيدى »

ـ والعربة ؟

ـ انهم يلجمون جيادها

ـ لسنا نريدها للذهاب الى الكنيسة ، وانما يجب أن تكون مستعدة عند عودتنا ، وأن تكون كل الصناديق والحقائب معدة ومحزومة ، وأن يكون السائق فى مقعده

ـ حسنا ياسيدى

ثم سألنى مسر روشستر : « أمتأهبة أنت ياجين ؟ » • فنهضت واقفة • ولم نكن ننتظر أحدا من أصدقاء «العريس» أو صديقات العروس أو الاهل والاقارب ، بل كنت وحدى مع مستر روشستر • وكانت مسز فيرفاكس تقف فى البهو عندما اجتزناه ، فهممت بأن أخاطبها لولا ان يدى كانت فى قبضة من حديد ، كما كانت خطوات مستر روشستر الواسعة تستحثنى حتى كاد يتعذر على أن أسايرها • وكان فى وسعك أن تدرك لاول وهلة انه لن يتسامح فى لحظة واحدة نتأخرها ، مهما كانت الاسباب !•• فما أحسب ان « عريسا » بدا مثله فى عزمه البالغ وحرصه على بلوغ غايته ، مما نم عنه جبينه

الذى انعقد فى اصرار على عينين متوهجتين مستعرتين !

ولم أدر ما اذا كان الطقس جميلا أو سيئا فى ذلك اليوم ، لاننى سرت فى طريقى لا ألتفت الى سماء أو الى أرض ، وقد علق قلبي - مع عينى - بمستر روشستر ، أملا فى ان أرى الشيء الخفى الذى كان يسدد اليه نظراته - طوال الطريق - فى قسوة وحدة ، وفى ان أتبين الخواطر الى لاح انه كان يصارعها وكانت تصارعه بقوة .. وما لبث ان توقف عند مدخل صحن الكنيسة ، واذ ذاك فقط ، أدرك اننى متهدجة الانفاس ، فقال : « أترينني قاسيا فى حبى ؟.. تمهلى لحظة ، واتكئى على ياجين ! »

* * *

◆ **ولا يزال** فى وسعى ان أتذكر صورة بيت الله الابيض القديم ، الذى قام أمامى فى هدوء ودعة ، ومنظر غراب اسحم يدور حول برج الكنيسة ، ثم منظر السماء المتوردة اللون فى ذلك الصباح ، كما اننى أذكر شيئا عن الآكام الخضراء المتناثرة حول القبور . **ولم أنس بعد اننى رأيت رجلين غريبين ، كانا يهيمان بين الروابى الخفيضة ، ويقرآن ماسطر على شواهد القبور القليلة التى كانت الطحالب تكسوها . وقد استلفتا انتباهى لانهما اتجها الى مؤخر الكنيسة بمجرد ان وقعت أعينهما علينا ، فلم أشك لحظة فى انهما سيدخلان من الباب الخلفى لمشاهدة الحفلة . أما مستر روشستر فلم يلحظهما لانه كان مشغولا بالنظر الى وجهى الذى هربت منه الدماء ..** وشعرت بعرق بارد يتصبب على جبينى ، وأحسست ببرودة تسرى فى وجنتى وشفتى ، حتى اذ بادرت الى استجماع قواى ، سار معى فى رفق ونحن نرقى الطريق الى مدخل الكنيسة

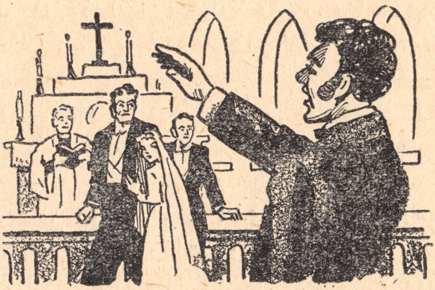
ودخلنا الهيكل الهادىء المتواضع ، فرأيت الكاهن ينتظرنا

فى ثوبه الكهنوتى الابيض عند المذبح ـ الذى كان متواضعا كذلك ـ والكاتب بجانبه · وكان الهدوء شاملا وليس ثمة أحد سوى شبحين كانا يتحركان فى ركن بعيد · وصدق حدسى ، اذ أنهما لم يكونا سوى الرجلين الغريبين ، وقد تسللا الى داخل الكنيسة قبلنا ، وما لبثا أن وقفا أمام القبو الخـاص بموتى آل روشستر ، وأوليانا ظهريهما ليتطلعا ـ خـلال القضبان الحديدية ـ الى المقبرة الرخامية العتيقة ، حيث ركع تمثال أحـد الملائكة فى حراسة رفات دامر روشستر ـ الذى ذبح فى (مارستون مور) أثناء الحروب الاهلية ـ ورفات زوجته اليزابث

واتخذنا مكاننا عند قضبان الهيكل المقدس · واذ سـمعت خطوا محاذرا خلفى ، نظرت من فوق كتفى فرأيت أحد الغريبين ـ وهو من الطبقة الراقية بلا مراء ـ يتقدم فى الكنيسة نحونا ·· ثم بدأت المراسم ، فتلا الكاهن مقاصد الحياة الزوجيـة ، ثم تقدم خطوة الى الامام ، وانحنى قليلا نحو مستر روشستر واستطرد يقول : « **اننى أسألكما ، بل أحتم عليكما ان تعترفا ـ كما ستعترفان يوم الدينونة الرهيب حين تتكشـف أسرار القلوب جميعا ـ بما اذا كان ثمة مايحول دون ارتباط أحدكما بالآخر شرعا بالزواج · اذ خليق بكما ان تثقا من ان الكثيرين الذين يرتبطون بغير كلمة الله ، لايجمع الله بينهم ، ولا تقر الشرائع زواجهم !** »

وسكت وفقا للعادة ·· ولكن ، متى بدد السـكون الذى يعقب هذه العبارة عادة أى جواب ؟·· آنه أمر لايحـدث ولو مرة فى كل مائة عام !·· ولم يرفع الكاهن عينيه عن كتابه ، بل أمسك أنفاسه لحظة، ثم بسط يده نحو مستر روشستر، وهم بأن يسأله : « هل تقبل هذه المرأة زوجة لك ؟ » · ولكن صوتا واضحا انبعث عن قرب قائلا : « **لايمكن آن يتم هـذا الزواج ، وأجاهر بان هناك عقبة** »

فرفع الكاهن عينيه الى المتكلم ووقف صـامتا كالاخرس ،



وكذلك فعل الكاتب ، بينما تحرك مستر روششتر قليلا كأن زلزالا هز الارض تحت قدميه ، ثم ثبت قدميه فى مكانيهما تحفزا ، وقال دون ان يلتفت برأسه أو عينيه : « استمر ! » •• وما أن نطق بهذه الكلمة ـ فى صوت خفيض ولكنه عميق ـ حتى ساد المكان صمت شامل • وما لبث مستر « وود » ان قال : « ليس بوسعى ان أستمر قبل بعض التحرى عن صحة ماقيل ، وحتى يقوم الدليل على صدقه أو زيفه » • وهنا عاد الصوت من خلفنا يقول : « **لقد فسخت حفلة الزواج تماما ولدى البرهان على دعواى •• ان هناك عقبة لا يمكن تذليلها تحول دون هذا الزواج** »

وسمع مستر روششتر ذلك ولكنه لم يكترث ، بل ظل صامدا لا ينثنى ، ولم يبد حراكا اللهم الا ليتشبث بيدى ، وما كان أشد قبضته وأدفأها ! •• وكم كان وجهه الشاحب الحازم الضخم يشبه الرخام فى تلك اللحظة •• وشدما كانت عيناه تأتلقان فى يقظة تخفى تحتها ضراوة !

★ ★ ★

◆ **وبدت** الحيرة على مستر وود فقال : « وما ماهية هذه العقبة ؟ •• ربما أمكن تذليلها اذا وضحت لنا ! » •• فكان الرد:

« يصعب ذلك فقد وصفتها بأنها لا تذلل وقد تكلمت ناصحا ! »

ثم تقدم المتكلم ومال على القضبان ، واستطرد فى وضوح وهدوء وثبات دون أن يرفع صوته : « **انها بكل بساطة تعنى وجود زواج سابق ٠ انلمستر روشستر زوجة على قيد الحياة!** »

واهتزت أعصابى عند سماع هذه الكلمات الخفيضة كما لم تهتز من قبل لقصف الرعد ، وفعلت نبراتها بدمى مالم يفعله صقيع ولا نار من قبل !٠٠ بيد اننى لم أفقد روعى ولم أخش اغماء ، وانما تطلعت الى مستر روشستر وحملته على أن ينظر الى بوجه يشبه الصخر الشاحب ، وبعينين تقدحان شررا ٠ ولم ينكر شيئا ، وان بدا عليه الاصرار على أن يتحدى كل شىء !٠٠ وبدون ان ينطق بحرف أو يبتسم ، وبدون ان يبدو عليه أنه كان يرانى مخلوقة آدمية ، طوقنى بذراعه ،وسمرنى الى جانبه ، ثم سأل الدخيل المتطفل : « من أنت ؟ »

ـ اسمى بريجز ، محام بشارع ٠٠٠ فى لندن

ـ وهل تريد ان تلصق بى زوجه ؟

ـ أريد ان أذكرك ياسيدى بوجود زوجتك التى يعترف بها القانون اذا كنت أنت لا تعترف بها

ـ تكرم **ببيان عنها ٠٠ عن اسمها ووالديها ومكان اقامتها**

فقال المحامى : « بالتأكيد ! » ٠ ثم أخرج مستر بريجز فى هدوء ورقة من جيبه ، وراح يقرأ مابها بصوت رسمى أغن :

« أؤكد ، وفى وسعى ان أقيم البرهان على أنه فى يوم ٢٠ أكتوبر سنة ٠٠ بعد الميلاد (منذ خمسة عشر عاما) تزوج ادوارد فيرفاكس روشستر صاحب قصر ثورنفيلد هول باقليم ٠٠٠ وصاحب ضيعة (فرندين) بمقاطعة ٠٠ بانجلترا ، من اختى برتا انطوانتا ميسون ، ابنة جوناس ميسون التاجر وانطوانتا ميسون زوجته ، الخلاسية المولد ، بكنيسة ٠٠٠ فى سبانش تاون بجاميكا ويمكن الحصول من سجلات تلك الكنيسة على وثيقة الزواج ٠ وفى حوزتى الآن نسخة منها ـ

التوقيع : ريتشارد ميسون »

ـ ان هذه الوثيقة ـ اذا صحت ـ قد تثبت انني تزوجت ولكنها لا تثبت أن المرأة المذكورة هنا على أنها زوجتى مازالت على قيد الحياة !

فأجابه المحامى : « **لقد كانت على قيد الحياة منذ ثلاثةأشهر** »

ـ كيف علمت ؟

ـ **لدى شاهد على هذه الحقيقة لا يستطيع أحد ، حتى أنت ، دحض شهادته**

ـ قدمه أو اذهب الى الجحيم !

ـ **سأقدمه على الفور . ليتفضل مستر ميسون بالتقدم**

فلما سمع مستر روشستر ذلك الاسم ، **صرف على أسنانه** وبدت عليه رعدة تشنجية . وكنت بجواره ، فشعرت برعشة الحنق واليأس تجرى فى أوصاله . وكان الرجـل الغريب الثانى ـ الذى تلكأ بعيـدا ـ قد اقترب وأهل من وراء كتف المحامى بوجهه الشاحب ، فاذا به ميسون نفسه !..واستدار مستر روشستر يحملق فيه بنظرة حانقة ـ كالنظرات التى سبق ان حدثتك عنها ـ ولكنها كانت فى هذه المرة عفراء ،أى تختلط ظلمتها ببريق دموى ، بينما احتقن وجهـه وتألقت وجنتاه السمراوان وجبينه الشـاحب بالنيران المتأججة فى صدره وقلبه .. ثم تحرك ورفع ذراعه القـوية . وكان من الممكن ان يلطم ميسون ويصرعه على أرض الكنيسة ، بعـد أن أذهلته الضربة التى نزلت على رأسه ، ولكن ميسون أجفـل مبتعدا ، ثم صـاح فى صـوت واهن « يا الهى ! » . وأحس مستر روشستر نحوه باحتقار هدأ من انفعاله ، فاذا حنقـه يخبو .. واكتفى بأن سأله : « ما الذى لديك ؟ » . . فانبعث عن شفتى ميسون جواب لا تستبينه الاذن

ـ سحقا لك اذا لم تتكلم بوضوح..اننى أسألك مرة أخرى: ماذا تريد ان تقول ؟

فقاطعه الكاهن : « ياسيدى • ياسيدى • لاتنس أنك فى مكان مقدس ! » •• ثم توجه الى ميسون يسأله فى رفق :

– هل تعلم علم اليقين ان زوجة هذا السيد على قيد الحياة أم لا ؟

وحثه المحامى قائلا : « تشجع •• تكلم ! » •• فقال ميسون بصوت أكثر وضوحا :

– انها الآن بقصر ثورنفيلد هول ، فقد شاهدتها هناك فى ابريل الماضى • وأنا شقيقها !

فصاح الكاهن : « فى ثورنفيلد هول ؟•• مستحيل ! اننى أقيم فى هذه المنطقة منذ زمن قديم ياسيدى ، ولم أسمع قط بوجود زوجة لمستر روشستر فى ثورنفيلد هول »

★ ★ ★

• **وشاهدت** ابتسامة متجهمة تلوى شفتى مستر روشستر، ثم غمغم قائلا : « كلا والله !•• لقد احتطت كى لا يسمع أحد بها تحت هذا الاسم ، ولا بقصتها ! » •• ثم أطرق حوالى عشر دقائق ناقش فيها نفسه • وما لبث ان اعتزم شيئا أعلنه قائلا :

– كفى ! سوف ينطلق منى كل شىء أشبه برصاصة مدوية• اطو كتابك يا وود واخلع عنك ثوبك الكهنوتى !

ثم التفت الى الكاتب وقال : « وانت ياجون جرين ، غادر الكنيسة فلن يتم اليوم زفاف ! »

فأطاعه الرجل • واستطرد مستر روشستر فى جرأة واندفاع :

– ان تعدد الزوجات كلمة بشعة !•• ومع ذلك فقد قصدت أن أكون زوجا لاثنتين ، ولكن القدر خيب رجائى ، أو هى العناية الالهية التى عاقتنى عن ذلك • ولست الآن خيرا من شيطان رجيم ، بل أننى أستحق بلا شك – كما يريد الكاهن أن يقول – أقسى عقاب يفرضه الله ، حتى النار التى



.. فانقضت المجنونة عليه ! .. (ص ٣٧)

لاتخبو والديدان التى لاتشبع ٠٠ لقدفشلت خطتى ياسادة،فان ماقاله هذا المحامى وعميله صحيح ٠ **اذ تزوجت ، وما زالت المرأة التى تزوجتها على قيد الحياة !!٠٠ لقد قلت يا « وود » انك لم تسمع قط بوجود زوجة لى فى ذلك القصر ، ولكنى اعتقد انك طالما ملت بأذنك لتلتقط أخبار المجنونة الخفية التى وضعتها هنالك تحت الحراسة والرقابة ، وقد أسر اليك بعضهم بأنها أخت غير شقيقة لى ، وأسر الآخرون بأنها خليلة منبوذة ، ولكنى اخبرك الآن بأنها زوجتى التى اقترنت بها منذ خمسة عشر عاما ، واسمها « برتا ميسون » ، وهى شقيقة هذا الرجل الثابت العزم (!) الذى يريك الآن باطرافه المرتعدة ووجنتيه الشاحبتين أى جنان جرىء يمكن أن يحمله الرجال بين جنوبهم!!٠٠** طب نفسا يادوارد ، ولا تخشنى قط فاننى أوثر أن أضرب إمرأة على أن أضربك ! ان « برتا ميسون » مجنونة ، ومن سلالة اسرة مجنونة ، كلهم بلهاء وملتاثون طوال اجيال ثلاثة ، فقد كانت امها الخلاسية مجنونة وسكيرة ، وقد اكتشفت ذلك بعد أن تزوجت الابنة لانهم كانوا يتكتمون اسرار العائلة !٠٠ وسرعان ماقلدت برتا أمها – كأية ابنة بارة – فى كلا الامرين » ٠٠ واستطرد فى سخرية مريرة :« وغدت لى شريكة ساحرة ، نقية ، عاقلة ، حيية !!٠٠ ان فى وسعكم ان تتصوروا كيف كنت رجلا سعيدا أنعم بمشاهد رائعة !٠٠ كانت تجربة من السماء والنعيم ، لو تعلمون !٠٠ ولكننى لن أزيدكم شرحا ، بل ادعوك بابريجز – وانت ياوود ، وانت ياميسون – الى القصر كى تشهدوا زوجتى المريضة التى عهدت بها الى مسز بول لترعاها ٠ سترون أية مخلوقة خدعت فيها وتزوجتها، ثم احكموا بما اذا كان من حقى – أو لم يكن – ان أفصم الرابطة بينى وبينها وأبحث عن الحنان والمشاركة الوجدانية مع انسانة من البشر » ٠

ثم نظر الى واسترسل يقول : « **ان هذه الفتاة لاتعرف ،**

ياوود ، عن هذا السر البغيض أكثر مما تعرف أنت ٠ بل انها كانت تعتقد أن كل شيء عادل شرعي ، ولم يدر بخاطرها قط أنها سوف تتردى في حبائل زواج زائف ، من رجل شرير غدار مرتبط بشريكة شقية مجنونة متوحشة !٠٠ تعالوا جميعا ٠ اتبعوني ! »

ثم غادر الكنيسة وهو مازال يشد قبضته على يدي ، والسادة الثلاثة يتبعونه ٠ وعند مدخل باب البهو ، وجدنا العربة ، فقال للحوذي ببرود وفتور : « عد بها ياجون الى الحظيرة اذ لاحاجة لنا بها اليوم ! » ٠٠ واذ ولجنا القصر ، تقدمت مسز فيرفاكس وصوفي ولياه للقائنا وتحيتنا ، ولكن السيد صاح فيهن : « ابتعدوا جميعا ٠٠ سحقا لتهانئكم ! من الذي يحتاج اليها؟٠٠ لست أنا ، اذ أنها قد تأخرت خمسة عشر عاما ! »

* * *

• **وواصل** السير مرتقيا الدرج وهو مازال يمسك بيدي ويشير الى السادة أن يتبعوه ، حتى اذا بلغنا الطابق الاول واجتزنا الردهة ثم تقدمنا وواصلنا الصعود الى الطابق الثالث، فتح لنا مستر روشستر الباب الاسود الخفيض بمفتاحه الخاص، وادخلنا حجرة مغطاة بالسجاجيد ، بها سرير كبير وصوان بديع ، ثم قال : « انك تعرف هذه الحجرة ياميسون ، فقد عضتك وطعنتك هنا ! » ٠٠ ثم رفع الستار عن الجدار ليكشف عن الباب الثاني ــ المفضي للحجرة الداخلية ــ وفتحه بدوره عن حجرة خالية من النوافذ ، بها موقد مشتعل يحيط به سياج عال قوي ، ومصباح يتدلى من السقف بسلسلة ٠ وكانت جريس بول منحنية على النار وهي تطهو شيئا في مقلاة ٠ **وفي الظل الداكن، في ركن بعيد ، كان ثمة شبح يذرع الغرفة بسرعة ولا يستطيع المرء أن يحكم لاول وهلة هل كان شبح حيوان كاسر ، أو انه كان مخلوقا آدميا ، اذ كان يحبو على أربع ، ويهمهم ويزمجر كوحش عجيب ٠ ولكنه كان مكسوا بالثياب ، وبكمية**

من الشعر السنجابى الحالك انسدل أشبه بمعرفة تخفى الرأس والوجه ٠٠ وقال مستر روشستر :

ـ صباح الخير يامسز بول ! كيف حالك وحال (الامانة) التى فى عهدتك ؟

ـ حالنا لابأس به ياسيدى ٠٠ أشكرك !

وبعد أن رفعت الطعام المغلى بعناية عن موقد التسخين ، قالت : « انها فظة شرسة ولكنها ليست خطرة » ٠٠ وارتفعت اذ ذاك صرخة وحشية كأنها جاءت تكذيبا لهذا التصريح الذى انطوى على مجاملة لها ٠ ثم وقفت الضبعة البشرية على قدميها الخلفيتين ٠ فصاحت جريس :

ـ آه ياسيدى ٠ لقد رأتك وخير لك أن لاتبقى

ـ بضع دقائق فقط ياجريس ، يجب أن تمنحينى بضع لحظات

ـ احترس اذن ياسيدى ٠٠ احترس بالله عليك !

وجأرت المجنونة ، ودفعت عن وجهها خصلات شعرها الكث، ثم حملقت كالوحشة فى زوارها ، فتبينت جيدا وجهها القرمزى وتقاطيع وجهها المنتفخ ٠ واذ تقدمت مسز بول ، دفعها مستر روشستر جانبا وقال : « افسحى لى الطريق ، فهى على مااعتقد لاتحمل الآن سكينا ، كما اننى على حذر منها »

ـ ان الانسان لايعرف مالديها ياسيدى لانها غاية فى الدهاء ، ويتعذر على ذوى الفطنة والتمييز تصور مكرها !

فغمغم ميسون بصوت هامس : « يجدر بنا أن نتركها » ٠ واذ ذاك صاح به صهره : « الا اذهب الى الجحيم ! » ٠٠ بينما صرخت جريس : « حذار ! »

فارتد السادة الثلاثة الى الخلف بحركة آلية تلقائية،وجذبنى مستر روشستر خلفه ٠٠ فانقضت المجنونة عليه تمسك عنقه بعنف وتغرز اسنانها فى وجنته ثم دار بينهما النضال ٠ كانت امرأة ضخمة الجسم وفى مثل قامة زوجها ، فضلا عن انها كانت

مفرطة في البدانة فأبدت قوة الرجال فى نضالها ، وكادت تخنقه أكثر من مرة رغم انه رياضي !٠٠ وكان فى وسعه أن يتغلب عليها بضربة مسددة ، ولكنه لم يشأ الا أن يصارعها ٠ وأخيرا أمسك بذراعيها فناولته جريس بول حبلا شدهما به خلفها ، ثم اوثقها بحبل آخر الى أحد المقاعد ٠ وقد تمت هذه (العملية) بين أبشع الصرخات والحركات المذعورة ٠٠ واخيرا، استدار مستر روشستر الى النظارة وتطلع اليهم فى إبتسامة امتزجت فيها المرارة بالسخرية والاسى ، وقال : « هذه زوجتى، وهذا هو كل ماعرفت من عناقها كزوجة ٠٠ هذا كل ماتمنحنى من مظاهر الاعزاز والتدليل التى أتعزى بها فى ساعات الفراغ» ٠٠ ثم وضع يده على كتفى ومضى يقول :

ـ هذه هى التى أردتها ٠٠ هذه الشابة التى تقف فى هدوء ورزانة عند فوهة الجحيم ، وتتطلع فى ثبات الى الشيطانة التى تحجل أمامها !٠٠ أردتها فقط كضرب من التغيير بعد طبخة حريفة متبلة ٠ انظر ياوود ، وانت يابرجز ، الى الفارق بين الاثنتين وقارنا بين هاتين العينين الصافيتين وبين الكرتين الملتهبتين هناك ، وذلك الوجه المقنع ، والجسم البدين المنتفخ ، ثم أحكما بعد ذلك يارجل الدين ويارجل القانون ، وتذكرا انه كما يدين المرء يدان ٠٠٠ هيا اخرجوا جميعا الآن حتى أغلق الباب على درتى الغالية !

★ ★ ★

• **وانسحبنا** جميعا ، وبقى مستر روشستر بضع لحظات ليصدر بعض اوامره الى مسز بول ٠٠٠ وفى أثناء هبوطنا الدرج ، خاطبنى المحامى قائلا :

ـ انت خالصة من كل لوم ياسيدتى وسيغتبط عمك « جون اير » بذلك ، لو انه بقى على قيدالحياة حتى عودة مسترميسون الى ماديرا

ـ عمي ؟!٠٠ ما أخباره ؟ هل تعرفه ؟

ـ ان مستر ميسون يعرفه . فلقد كان مستر اير عميلا له فى (فونشال) لبضع سنوات . وتصادف عندما تلقى عمك خطابك الذى ذكرت فيه انك اعتزمت الزواج من مستر روشستر، ان كان مستر ميسون معه اذ سافر الى (ماديرا) ليستكمل نقاهته ـ بعد الحادث الذى تعرفينه وقبل عودته الى جمايكا ـ فأبلغه عمك النبأ لانه كان يعلم ان له صلة بسيد يدعى روشستر، وشد مادهش مستر ميسون واغتم . ثم شرح جلية الامر لعمك الذى يؤسفنى أن أقول انه الآن مريض وطريح الفراش فى حالة انهيار قد لاينجو منها ، ولذلك لم يقو على أن يبادر الى انجلترا بنفسه ليخلصك من الشرك الذى وقعت فيه ولكنه توسل الى مستر ميسون أن يسرع الى اتخاذ التدابير اللازمة لمنع هذا الزواج الزائف ، كما أحاله على لمساعدته ، فأسرعت ماوسعنى الاسراع . وأحمد الله على أننى لم أتأخر عن الوقت المناسب ، وخليق بك أن تحمدى الله معى . ولو لم أكن موجسا من أن عمك سيموت قبل وصولك الى (ماديرا) لنصحتك بمرافقة مستر ميسون عند عودته . ولذلك أرى من الخير أن تبقى فى انجلترا الى أن تصلك انباء من عمك أو عنه . هل هناك شىء آخر يدعونا للبقاء ياميسون ؟

فأجابه هذا فى لهفة : « كلا .. كلا .. هيا بنا » .. ومرقا خلال باب البهو دون أن ينتظرا مستر روشستر ليستأذناه فى الانصراف . وبقى الكاهن ليتبادل بعض عبارآت لائمة أو مؤنبة مع ابن ابراشيته ـ روشستر ـ حتى اذا انتهى من مهمته ، غادر القصر بدوره .. وسمعته يرحل وانا واقفة عند باب حجرتى الموارب، بعد أن انسحبت اليها. واذ خلا القصر ، اغلقت حجرتى بالمزلاج حتى لايتطفل على أحد ، ثم شرعت ـ لا فى البكاء ولا فى العويل ، لاننى كنت أهدأ من أن أفعل ذلك ـ وانما فى خلع ثوب الزفاف بحركة آلية ، ثم ارتديت ثوبى العادى الذى كنت ألبسه في اليوم السابق لآخر مرة كما زعمت ، وجلست

بعد ذلك وأنا احس الوهن والتعب ، فاتكأت بذراعى على المنضدة وألقيت راسى عليهما ثم أخذت أفكر فى أن دورى – حتى تلك اللحظة – لم يكن يعدو مجرد أن أسمع وأن أشاهد وأن أتأثر ، وانا مطاردة فى أثناء ذلك أينما ذهبت أو انسقت٠٠ ارى الحادث يندفع وراء الحادث ، والفضيحة تتلو الفضيحة ، ثم لا أملك سوى التفكير !

★ ★ ★

◆ **وانقضى** الصباح فى هدوء تام ، فيما عدا مشهد المجنونة القصير ٠٠ حتى حادث الكنيسة لم يثر أية جلبة ولم تنفجر فيه الانفعالات ، أو ترتفع المهاترات والخلافات ، ولم يصحبه تحد أو صراع أو دموع أو نشيج ، بل قيلت فى أثنائه كلمات قليلة، وأثير الاعتراض فى هدوء نسبى ، وألقى مستر روشستر بعض أسئلة جافة مقتضبة تلقى عنها اجابات وايضاحات وأدلة ، اعترف سيدى بعدها بالحقيقة ، وشاهدنا الدليل الحى ماثلا أمام عيوننا ، ثم رحل المتطفلان وانتهى كل شىء !

كنت فى حجرتى كالعادة ، بمفردى ، دون تغيير ملحوظ ، فلم يضربنى أحد أو يؤذنى أو يشوهنى ، **ومع ذلك فأين كانت « جين اير » الامس بحياتها وآمالها ؟** ان جين اير التى كانت امرأة ذات حمية وآمال وكادت تصبح عروسا ، عادت فتاة باردة وحيدة كما كانت ، بعد أن شحبت حياتها وتقوضت آمالها وحل لديها صقيع رأس السنة فى أوج الصيف ، وهبت عواصف الشتاء المدوية فى شهر يونية ، وطلى الجليد التفاح الناضج ، وسحق الثلج الورود اليانعة ، ولف الحقول كفن من الجليد ٠ أما الطرقات الصغيرة التى كانت تزدان فى ليلة أمس بالزهور ، فقد أقفرت من المارة فلم تعد تطؤها الآن سوى اقدام الجليد ٠٠ وأما الغابات التى كانت عطرة مورقة منذ اربع وعشرين ساعة كأنها احراش المناطق الاستوائية ، فقد غدت الآن موحشة مهملة بيضاء ناصعة كانها غابات الصنوبر في

شتاء النرويج !
ذلك لان آمالى جميعها قد قضى عليها القدر بضربة خفية ٠٠ ورحت أتأمل أمانى العزيزة التى كانت بالامس زاهرة زاهية فاذا بها قد ذبلت وغدت رمما لايمكن قط أن تسترد الحياة ؟

٠٠ وعدت الى حبى الذى خلقه سيدى فرأيته يرتجف فى قلبى، أشبه بطفل مريض فى مهد بارد ـ لفرط ما كانت تنتهبه العلل والآلام ـ دون ان يقوى على البحث عن ذراعى مستر روشستر أو صدره ليستمد الدفء ! ٠٠ **أواه ! لن يستطيع قلبى الالتجاء اليه لان الايمان قد تبدد والثقة قد تلاشت ، ولان مستر روشستر لم يعد لى كما كان من قبل ، ولاظل على ماكنت أتصوره ٠ ولست أعزو اليه أية نقيصة ، ولا أقول انه غدر بى، وانما زايل فكرتى عنه كل اطمئنان الى الحقيقة الخالصة من أية شائبة !٠٠ ولم يعد ثمة بد من الرحيل بعيدا عنه ٠٠ وكان هذا جل ماتراءى لى وما احسست به ، ولكن:متى،وكيف ، والى أين؟**

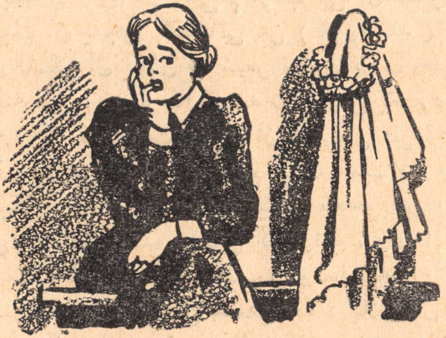
٠٠ لم اهتد بعد الى رأى،غير اننى لم أرتب فى ان مستر روشستر نفسه لن يلبث أن يعجل باقصائى عن (ثورنفيلد) ٠ فقد لاح لى ان من غير الممكن أن يكون قد شعر نحوى بحب حقيقى ،وانما كان الامر كله مجرد نزوة طارئة هدأت ، ولن يعود السيد بحاجة الى ٠٠ بل اننى بت أخشى أن أعترض طريقه ، اذ لابد انه غدا يعاف رؤيتى ٠٠ آه ، لكم كنت عمياء ، ولكم كان مسلكى ضعيفا !٠٠ اجل ، كانت عيناى محجوبتين،ومغمضتين!

وخيل الى ان الظلمة تدور حولى كالدوامة ، وأن أفكارى غدت سوداء ، تنساب فى اضطراب السيل وتدفقه ٠٠ كنت ابدو ـ وقد نبذتنى نفسى وخلفتنى مسترخية ، بلا حول ولا قوة ـ وكأنما ألقى بى فى حوض نهر جاف ، ثم سمعت فيضا ينساب منحدرا من جبال بعيدة ، وأحسست بسيوله تقترب منى ، دون ان أجد من نفسى رغبة فى النهوض ، أو قدرة على الفرار ، فرقدت خائرة القوى أتلهف على الموت ٠ ولا تراودنى سوى فكرة

واحدة ٠٠ ذكرى الله ، تبدت فى صلاة صامتة راحت كلماتها تسبح فى خاطرى كشىء يجب أن أهمس به دون أن أقوى على النطق به : « اللهم لاتبتعد عنى لان العناء قريب ولا أحد فى عونى ! »

كان السيل قريبا٠٠ولكننى لم اجأر بالدعاء للسماء كى تقينيه، ولم أضم يدى أو أثنى ركبتى أو أحرك شفتى ٠٠ ثم اقترب السيل ودهمنى بكل قوته واندفاعه، فاذا كل احساسى المضعضع بالحياة ، وحبى المضيع ، وآمالى الخابية ، وايمانى المصعوق ٠٠ اذا بها جميعا تنصب على رأسى كتلة واحدة ٠٠ وكانت ساعة مريرة رهيبة يصعب وصفها ٠٠ والواقع ان الماء دهم نفسى ، فاذا بى أغرق فى حمأة عميقة ، دون أن أجد أرضا أضع عليها قدمى ، وما لبثت ان بلغت الماء العميق ثم جرفتنى السيول !

الفصل السابع والعشرون



◆ **ورفعت رأسى - فى الاصيل - وتلفت حولى فرأيت الشمس الغاربة ترسم على الجدار صورة غروبها ، ورحت أتساءل : « ماذا أعمل ؟ » ، فجاءنى الرد من نفسى : « غادرى ثورنفيلد فى الحال ! » ٠٠ وكان ردا سريعا مروعا**

جعلنى أصم اذنى . واعترف بأننى لم أكن أطيق اذ ذاك سماع مثل هذه الكلمات .. ورحت أجادل نفسى : « ليس أسوأ ما فى الامر اننى لم أعد زوجة ادوارد روشستر ، ولكن استيقاظى من أحلامى الرائعة لاجدها كلها زائفة كاذبة ، هو الامر الرهيب الذى لا أقوى على احتماله والتغلب عليه ، كما لايمكن ان احتمل أو ان أقدم على مغادرة سيدى فى اصرار ، وفى الحال، والى الابد ! »

ولكن صوتا من أعماقى أهاب بى أن ذلك فى وسعى ، وأن من واجبى أن افعله . ورحت أناضل هذا القرار وأتمنى أن أكون من الضعف بحيث أتحاشى الطريق المؤلم الذى يفضى الى عذاب آخر رأيته مبسوطا أمامى !.. وعندئذ ثار « الضمير » وتحول الى طاغية أمسك بخناق « الهوى » ، ثم قال يؤنبه : انه قد دس قدمه الرشيقة فى حمأة موحلة ، وأقسم ان يلقيه بذراع حديدية فى أعماق الآلام والاوجاع .. وعندئذ صرخت : « سأتمزق اربا اذن !.. اما من معين ؟ » .. وأجاب الهاتف : « كلا بل انك ستمزقين نفسك دون أن يساعدك أحد !.. سوف تفقئين عينك اليمنى وتقطعين بنفسك يدك اليمنى ، وسيكون قلبك الضحية وستكونين أنت الكاهن الذى يذبح هذا القربان ! »

واذ ذاك نهضت فجأة وقد استبد بى الرعب لوحدتى القاسية مع هذا القاضى الذى لايرحم ، ومع هذا الصمت الذى غشى حواشيه مثل هذا الصوت الرهيب !.. واذ انتصبت واقفة ، سبح رأسى ، وأدركنى غثيان فطنت الى انه ناشىء عن ثورتى وخلو معدتى لاننى لم أذق طعاما ولا شرابا فى ذلك اليوم .. حتى الفطور لم أجد وقتا لتناوله . وفطنت ـ وقلبى يخفق بألم عجيب ـ الى اننى اذا ظللت فى معزلى هذا فلن يسأل عنى أحد أو يدعونى انسان للنزول .. حتى أديل الصغيرة لن تطرق بابى .. بل ان مسز فيرفاكس لن تبحث عنى !.. ثم غمغمت وانا أرفع المزلاج : « ان الاصدقاء ينسون دائما من يتخلى عنهم الحظ ! » . وخرجت لاتعثر بشىء فى طريقى ، وكنت لا أزال غائمة العينين واهنة الاطراف لا أقوى على استجماع قواى الخائرة ، فسقطت .. لا على الارض ، وانما تلقفتنى ذراع ممدودة ، فرفعت عينى لاجدنى مستندة الى مستر روشستر وقد جلس على مقعد عند عتبة غرفتى . ثم قال :

ـ ها قد خرجت أخيرا !.. لقد انتظرتك طويلا ، وأرهفت السمع دون أن تتناهى الى أذنى حركة أو نشيج واحد ، ولو ان هذا السكون المطبق الشبيه بسكون الموت استمر خمس دقائق اخرى ، لفتحت الباب عنوة كلص ..هل تجفلين منى ؟.. لماذا تغلقين عليك الباب وتستسلمين وحدك للاحزان ؟.. اننى اوثر أن تأتى وتعنفينى فى قسوة !.. انك شديدة الانفعال سريعة التأثر ولذلك كنت أتوقع منك مثل هذا المشهد فأعددت نفسى لوابل من الدموع

الحارة والعبرات ، وما كنت ارجو سوى ان تذرفيها على صدرى بدل ان تتلقاها الارض التى لا تحس ولا تشعر ، أو يتلقفها منديلك الصغير المبلل ٠ بل أحسبنى مخطئا فانى أرى وجنتك شاحبة وعينك ذابلة دون أثر فيها للدموع ، فأغلب الظن اذن أن قلبك كان يبكى دما !٠٠ حسنا ياجين ! اما من كلمة تقريع ؟٠٠ اما من شىء اشد مرارة وانكى وخزا ؟ اما من شىء يثلم الشعور أو يلدغ العاطفة ؟٠٠ انك تجلسين هادئة حيث وضعتك وتتطلعين الى بنظرة واهنة سلبية !٠٠ ما اردت ياجين ان اصيبك بهذا الجرح ٠٠ ان المرء الذى لم يؤت سوى شاة صغيرة يعتز بها كما لو كانت ابنته ، ويدعها تأكل من خبزه وتشرب من كأسه ، وترقد فى حجره ، قد يضطر لخطأ ما الى ذبحها ٠٠ ولكنه لن يعانى اذ ذاك من الندم على غلطته الدامية ، ما اعانى من الحسرة على غلطتى ٠٠ فهلا صفحت ؟

★ ★ ★

◆ ولقد صفحت عنه أيها القارىء فى الحال ، وعلى الفور ، بعد ان تبدى فى عينيه ما نم عن ذلك الندم العميق ، وما تجلى فى لهجته من هذا الاسى الحقيقى ، وما ظهر على طلعته من رجولة صادقة ٠ هذا ، فضلا عما كان فى كل شكله وهيأته من حب لا يتبدل ولا يتغير ٠٠ اجل ، لقد غفرت له كل شىء٠٠ غفرت فى صميم فؤادى ٠ وان لم اعبر عن ذلك بقول او تظاهر ٠ وكأنما رابه اخلادى الطويل الى الصمت والاستكانة ، اللذين كانا نتيجة ضعف أكثر مما كانا نتيجة تعمد وقصد ٠ فما لبث ان سألنى : « اتدركين اننى وغد ياجين ؟ »

ـ نعم ياسيدى

ـ اذن قولى ذلك فى عنف وحدة ولا تأخذك بى رحمة !

ـ لا أستطيع ٠٠ اننى متعبة ومريضة ، وفى حاجة الى بعض الماء

فتنهد تنهدة راعدة ، ثم حملنى بين ذراعيه الى الطابق الاسفل ٠ ولم أدر فى أول الامر الى أية حجرة حملنى ، لان كل شىء كان غائما فى ناظرى ، ثم سرعان ما استشعرت دفء النيران المنعش بعد أن كنت محوطة فى حجرتى ببرودة جليدية رغم اننا كنا فى الصيف !٠٠ ثم سكب خمرا بين شفتى فتذوقتها وانتعشت ٠ وما لبثت ان تناولت طعاما قدمه الى فاستردت قواى وتبينت اننى فى حجرة المكتبة ، اجلس على مقعد السيد ، بينما جلس هو على مقربة منى ٠ وحدثت نفسى قائلة : « ليتنى اغادر الحياة الآن دون الم شديد ، فان هذا خير لى ، اذ يكفينى مئونة بذل الجهد فى انتزاع نياط قلبى وانا افصله عن قلب مستر روشستر الذى يبدو ان لامفر من فراقه ، وان كنت لا أحب أن أتركه ولا استطيع مغادرته ! » ٠٠ وسألنى اذ ذاك : « كيف حالك ياجين ؟ »

- أحسن كثيرا ياسيدى ، ولن البث أن أصبح بخير
- تذوقى النبيذ مرة أخرى ياجين

فأطعته ، وعندئذ وضـع الكأس على المنضـدة ثم وقف أمامى يتفرس فى متمعنا . وفجأة .. ابتعد وقد ندت عنه صيحة مدغمة زاخرة بالانفعـال ، ثم أسرع ليعبر الحجرة ليعود من فوره فينحنى على وكأنه يهـم بتقبيـلى ، ولكنى تذكرت ان الغزل قد بات محظورا علينا ، فأشحت بوجهى عنه ، ودفعت وجهه بعيدا . فصاح على التو : « ماذا ؟!.. كيف هذا ؟ أواه ، لقـد عرفت !.. انك لا تريدين تقبيل زوج برتا ميسون وتعتبرين ذراعى مليئتين ، وصدرى ملكا لغيرك .. أليس كذلك ؟ »

- على كل ، ليس لى مكان أو حق فى ذلك ياسيدى
- لماذا ياجين ؟ سأكفيك مشقة الحديث الطـويل وأتولى عنك الجواب : لاننى متزوج فعلا ، أليس هذا ردك كما أتوقعه ؟
- نعم
- اذا كان هذا ماتظنينه ، فان رأيك فى يجب أن يكون عجيبا .. ولا بد أنك تعديننى متهتكا خليعا يتآمر عليك ، ووغـدا وضيعا دنيئا تظاهر لك بحب كاذب زائف ليجتذبك الى فخ محبوك الاطراف عن قصد وعمد ، فيجردك من الشرف ويسلبك كرامتك واعتزازك بنفسك .. ما قولك فى هذا ؟ أراك لاتقوين على قول شىء : أولا لانك مازلت ضعيفة واهنة ولا تكادين تقـوين على اجتذاب أنفاسك ، وثانيا لانك لا تستطيعين بعـد أن تعودى نفسك عـلى اتهامى وانتهارى .. وفوق ذلك ها قد تفتحت عيون الدموع ، وسوف تتفجر اذا ما أكثرت من الكلام !.. لا رغبة لديك فى الاعتراض والتعنيف واشهاد الناس علينـا ، ولكنك تفكرين فيما يجب عمله ، وترين فى الـكلام أمرا لا يجدى ولا ينفع .. اننى أعرفك وآخذ منك حذرى !
- لا رغبة لدى فى أن أعمل ضدك ياسيدى

★ ★ ★

◆ ونبهنى صوتى المرتجف الى ضرورة الايجاز والاقتضاب ، فلم ازد ولكنه اجاب قائلا : « انك لا ترغبين فى العمل ضدى بالمعنى الذى تفهمينه . ولكنك ترسمين خطتك للقضاء على بالمعنى الذى افهمه . فقد صدقت فى قولك اننى رجل متزوج فيجب أن تتجنبينى وان تبتعدى عن طريقى بمثل ما رفضت منذ لحظة ان تقبلينى لانك اعتزمت ان تجعلى نفسك انسانة غريبـة عنى تماما ، وان لا تعيشى تحت هذا السقف الا كمعلمة لاديل ، واذا وجهت اليك كلمـة ود او اجتذبتك نحوى بشعور الصداقة ، فسوف تقولين : « لقد كاد هذا الرجل أن يتخـذ منى خليلة له ، فيجب أن أكون فى عـلاقتى به كالثلج

والحجارة » . وانى لادرك ان بوسعك ان تصبحى كذلك فعلا !

فجلوت صوتى وثبت نبراته لارد قائلة : « لقد تغير كل شيء حولى ياسيدى، فيجب ان أتغير بدورى . هذا أمر لاشك فيه .. ولكى أتحاشى كل تحول فى مشاعرى وكل صراع مع ذكرياتى وصلاتى ، لا أجد أمامى سوى طريق واحد ، هو ضرورة البحث لاديل عن معلمة أخرى ! »

- أوه !.. ان اديل سوف تذهب الى المدرسة ، فقد قررت ذلك منذ قليل ، كما اننى لا أريد ان أعذبك بذكرياتك البغيضة وصلاتك القديمة بثورنفيلد هول .. هذا المكان اللعين .. هذا القبو العاتى الذى يعكس على ضياء السماء الفسيحة شحوب الموت .. هذا الجحيم الحجرى الضيق ، وشيطانته الحقيقية التى تجعله أسوأ من كل ماتتصور !.. سوف لا تقيمين هنا ياجين ، ولا أنا !.. فقد أخطأت فى أن جئت بك الى ثورنفيلد هول رغم ما أعلمه عن هذا المكان الذى تسكنه العفاريت . ولقد أمرتهم بأن يخفوا عنك لعنة هذا المكان قبل أن تقع عليك عيناى ، لاننى خشيت ألا أحصل على معلمة لاديل اذا علمت أية مرشحة بالشيطانة التى ستضطر الى الاقامة معها . ولم أكن أعتزم نقل هذه المجنونة الى مكان آخر ، مع اننى أملك دارا قديمة فى ضيعة (فرندين) ، أكثر عزلة من هذا القصر . وكان فى مقدورى ان أنقلها الى هناك فى سلام وطمأنينة ، لولا ان خطر لى خاطر عن الظروف الصحية فى قلب الغابة ، فأثار ضميرى .. كان من المحتمل أن تعجل الجدران الرطبة بخلاصى منها . ولكن لكل وغد عيبا ، وعيبى اننى لا أميل الى القتل غير المباشر ، ولو لاكثر الناس نصيبا من بغضائى !..

ولقد أخفيت عنك مكان المجنونة القريب ، فكنت فى ذلك كمن يغطى طفلا بعباءة ثم يرقده بالقرب من شجرة « الأوبا » - السامة - فان العيش بجوار هذه المجنونة سام !.. لسوف أغلق (ثورنفيلد هول) وأسمر بابه الخارجى، وأسد نوافذ الطابق الارضى بالالواح الخشبية ، وأعطى مسز بول مائتى جنيه فى السنة لتعيش هنا مع زوجتى ، كما تسمين هذه الشوهاء الرهيبة .. و « جريس بول » لا تتردد فى عمل الكثير من أجل النقود ؟ وسوف تستعين بابنها - الذى يشتغل كحارس فى جريسمبى ريتريت - ليحتمل رفقتها ويبادر الى مساعدتها فى نوبات الهياج ، عندما تحاول زوجتى - كعادتها - حرق الناس فى مضاجعهم بالليل ، أو طعنهم وفصل لحومهم عن عظامهم بأسنانها ، وما الى ذلك ..

فقاطعته قائلة : « انك شديد القسوة على تلك السيدة التعسة ياسيدى.. انك تتحدث عنها بمقت .. بحقد ونقمة . وهذه قسوة منك ، اذ لا حيلة لها فى جنونها »

ـ ياجين ٠٠ ياحبيبتى الصغيرة ـ هكذا سأناديك وهكذا أنت بالنسبة الى ـ انك لا تدرين ماذا تقولين ٠ انك تسيئين الحكم على مرة أخرى ٠٠ اننى لا أكرهها لانها مجنونة ٠ هل تظنيننى أكرهك اذا مسك خبل ؟

ـ أظن ذلك ياسيدى

ـ اذن فأنت مخطئة ، ولا تعرفين شيئا عنى أو عن مدى الحب الذى يمكن أن يزخر به قلبى ٠٠ ان كل ذرة من بدنك عزيزة لدى كأنها من لحمى ، سواء كانت سليمة أو عليلة ٠ وعقلك كنزى الغالى ومهما اختبل فسيظل كنزى كذلك ٠٠ واذا أنت هذيت فسوف تكون ذراعاى مأواك ، وليس ذلك القميص الضيق ، واذا اهتجت فان قبضتك تغدو كوقع السحر عندى ، واذا هاجمتنى بوحشية ـ كما فعلت تلك المرأة صباح اليوم ـ تلقيتك على صدرى لاضمك وأقيدك الى ، دون أن أجفل منك كما جفلت منها متقززا ٠٠ أما فى لحظات الهدوء فلن يحرسك أو يمرضك سواى ، وفى وسعى ان ألازمك بحنان لايدركه تعب رغم انك لن تكافئينى على ذلك بابتسامة !٠٠ لن أمل من التطلع الى عينيك وان لم يعد ينبعث منهما شعاع ينم عن انك تعرفيننى ٠٠ ولكن لماذا اتبع مثل هذه الافكار المتلاحقة ؟٠٠ كنت أتحدث معك عن نقلك من (ثورنفيلد) ٠٠ ان كل شىء معد كما تعلمين ، وستسافرين غدا ٠ فقط اطلب اليك ياجين أن تحتملى المبيت ليلة أخرى تحت سقف هذا القصر ، ثم تودعينه وتودعين آلامه وأهواله الى الابد !٠٠ ولدى مكان يمكن ان تحتمى فيه من الذكريات البغيضة والتطفل الكريه ، ومن الزيف والنميمة !٠٠

فقاطعته قائلة : « خذ أديل معك ياسيدى ، وسوف تؤنسك ! »

ـ ماذا تعنين ياجين ؟٠٠ لقد قلت لك اننى سأرسلها الى المدرسة ٠ ثم ما حاجتى الى طفلة ترافقنى ٠٠ طفلة ليست من صلبى ، وانما ولدتها راقصة فرنسية فاجرة ؟ لماذا كل هذه اللجاجة بشأنها ٠٠ لماذا تفرضينها على كرفيقة؟

ـ لقد حدثتنى عن رغبتك فى التقاعد والاعتزال ياسيدى ٠٠ وهما من بواعث الهم والاكتئاب ٠٠ لاسيما بالنسبة اليك

فقال ثائرا : « الاعتزال ! الوحدة !٠٠ ارى من واجبى ان ابسط لك الامر، ولا أدرى أى غموض هذا الذى يرتسم على أساريرك ويجعلك اشبه بأبى الهول ! انك أنت التى يجب ان تشاطرينى وحدتى ٠ أفهمت ؟ » ٠٠ فهززت رأسى ٠٠ كنت فى حاجة الى شىء من الشجاعة أمام ثورته حتى استطيع أن أجازف بالتعبير ـ ولو فى صمت ـ عن رفضى ٠ وكان يذرع الحجرة بسرعة ، فتوقف فجأة وكأن قدميه سمرتا الى بقعة واحدة ثم تفرس فى وجهى طويلا وبقسوة ، فحولت عنه عينى لاثبتهما فى نيران المدفأة محاولة ان أبدو أمامه هادئة رابطة الجأش ٠ وأخيرا قال فى هدوء لم أتوقعه من

نظرته : « ها هنا الثغرة فى أخلاق جين !٠٠ ان بكرة الخيط الحريرى قد انسابت حتى الآن ناعمة ملساء ولكنى لم أشك أبدا فى أن تأتى عقدة تعرقل سيرها وتحير العقل ، وها هى ذى قد أتت لتبعث الكدر والحنق والمتاعب التى لا تنتهى ٠ يا الهى ! كم أتمنى ان تكون لى قوة شمشون فأحطم كل قيد وكأنى أحطم حبلا من الكتان ! » ٠٠ وعاد يذرع الحجرة من جديد ، ثم ما لبث ان توقف مرة أخرى أمامى مباشرة ، وانحنى مقتربا بشفتيه من أذنى وقال :

– هلا أصغيت ياجين الى صوت العقل ؟٠٠ اذا لم تفعلى ، فسوف التجىء الى العنف ؟

وكان صوته مبحوحا ، ونظرته كنظرة من يوشك أن يحطم قيدا لا يحتمل ثم يندفع فى ثورة هائجة ٠ وأدركت اننى اذا مكثت لحظة أخرى سادرة فى برودى فلن أتمكن من الوصول الى شىء معه ٠٠ كان الحاضر كل مايجب ان امسك بعنانه وأكبحه فى نفسى ، وكل حركة نافرة أو جافة أو خائفة كفيلة بأن تقرر مصيرى ومصيره ، ولكننى لم أكن خائفة بحال من الاحوال ، بل اننى استشعرت قوة داخلية كامنة واحساسا من النفوذ عليه يساندنى ٠ وكانت الازمة خطيرة ، وان لم تخل من السحر الذى يحسه الهندى وهو ينزلق فى قاربه على الجنادل ، فمددت يدى وامسكت بيده المتشنجة ٠ واذ ذاك استرخت اصابعه الملتوية ، فقلت له فى رفق : « اجلس ٠ سأحدثك طويلا كما تريد وسأصغى الى كل ماتريد قوله سواء كان معقولا أو غير معقول ! »

★ ★ ★

◆ وجلس ، ولكنى لم آذن له فى الحديث على الفور لاننى كنت اصارع دموعى ، وعانيت كثيرا من الآلام فى حبسها لاننى كنت أعلم انه يود ان يرانى باكية ، ولكننى عدت فآثرت ان أطلق لها العنان كما تشاء ، ولو أغضبه ذلك ! وهكذا بكيت بحرقة ، واذا بى أسمعه يتضرع الى ان اهدىء من جاشى ٠ فقلت له ان هذا لم يكن فى وسعى ماظل هو ثائرا مهتاجا ٠ واذ ذاك قال : « ولكنى لست غاضبا ياجين ، وانما أنا أحبك فحسب ، وقد رأيت على وجهك الصغير الشاحب دلائل الجمود والبرود والاصرار فلم اطق رؤيتك على هذه الحال ٠ كفى الآن وكفكفى دموعك ! »

وكشف صوته الناعم عن هدوئه فهدأت بدورى ٠ وحاول اذ ذاك ان يعتمد برأسه على كتفى ، ولكنى لم أدعه ٠٠ ثم أراد ان يجذبنى اليه فأبيت ، وعندئذ قال فى لهجة بالغة الحزن والمرارة الى درجة هزت أعصابى : « جين ! جين ! انك لا تحبيننى ٠ انك لم تقدرى فقط سوى مركزى والمركز التى تتبوأه من تكون زوجتى ، فلما رأيت الآن اننى لا استأهل ان أكون زوجا

لك ، كمشت منى واجفلت من لمسى وكانني ضفدع أو قرد ! »
اثرت فى نفسى هذه الكلمـــات ولكن ما الذى كان فى وسعى ان أفعل او اقول ؟.. ولعله كان من الواجب أن أفعل او ان اقول شيئا ، ولكننى كنت اتعذب بالندم لايذائى مشاعره . ولم يسعنى ان اقاوم رغبتى فى وضع بلسم شاف على الجرح الذى ادميته فقلت : « اننى احبك أكثر من اى وقت مضى ولكن .. لاينبغى ان أظهر هذا الشعور أو أطلق له العنـــان .. بل يجب ان تكون هذه آخر مرة أعرب لك فيها عن شعورى »
ـ آخر مرة ياجين ! ماذا ؟ اتحسبين انك تستطيعين العيش معى ورؤيتى فى كل يوم ثم تمضين فى برودك ونايك عنى وانت مازلت تحبينني ؟
ـ كلا ياسيدى . هذا ما لا أشك فيه .. ان ثمة طريقة واحدة ، ولكنك قد تهتاج اذا ذكرتها لك
ـ اوه . اذكريها ! واذا عصف بى الغضب فلديك فن البكاء !
ـ يجب يامستر روششتر .. أن أغادرك !
ـ الى متى ياجين ؟.. لبضع دقائق حتى تسوى شعرك الذى تشعب قليلا ، وحتى تغسلى وجهك شبه المحموم ؟
ـ يجب أن أغادر أديل وثورنفيلد .. يجب ان أفارقكم مدى الحيـــاة !.. يجب ان ابدا حياة جديدة بين وجوه غريبة ومشاهد غريبة !
ـ طبعا ، وقد أخبرتك بان هذا ضرورى.ولسوف استبعد انك ترومين فراقى، لافهم قولك على انك تعنين ـ ولا بد ـ أن تصبحى جزءا منى . اما عن الحياة الجديدة ، فلا ضير هناك .. انك على كل حال ستصبحين زوجتى ، لاننى لست متزوجا !.. ستكونين مسز روششتر اسما وفعلا ، وسألازمك مادمت حيا .. وسوف تنتقلين الى قصر امتلكه فى جنوب فرنسا .. فيللا بيضاء على شواطىء البحر الابيض المتوسط . حيث تنعمين بالسعادة فى أمان وتحيين حياة صافية ولا تخشين ان أغريك بارتكاب احدى المعاصى وأن أتخذك خليلة . لماذا تهزين راسك ؟ يجب أن تكونى عاقلة ياجين والا هاجت ثائرتى مرة أخرى
وكان صوته ويده يهتزان ، وخياشيمه الكبيرة تتسع ، كمـا تالقت عيناه ولكنى جرؤت على الكلام فقلت : « ان زوجتك لاتزال حية ياسيدى وهذه حقيقة اعترفت بها بنفسك فى هذا الصباح ، فاذا أنا عشت معك كما تهوى صرت لك خليلة .. اما القول بغير ذلك فسفسطة .. وزيف ! »
ـ انا لست من رقيقى الطبع ياجين فلا تنسى ذلك ، كمـا اننى لسـت ممن يقوون على الاحتمال الطويل .. لست باردا أو هادئا ، ولذلك ارجو اشفاقا على وعلى نفسك ـ ان تضعى اصبعك على نبضى وتتبينى وجيبه ثم حاذرى !
وكشف عن رسغه وقدمها الى . ووجدت الدماء تهرب من وجنتيه وشفتيه ،

وقد استحال لونها الى الزرقة فشمل الحزن كل نفسي لان اثارته الى هذا الحد المضني ـ الذى كان يكرهه ـ ضرب من القسوة ٠٠ وكان خضوعى فى الوقت ذاته ـ أمرا مستحيلا ، ففعلت مايفعله غيرى من البشر بغريزته عندما يساق الى نهاية الشوط : تطلعت الى غياث من قوة تسمو على الانسان ، وصحت على غير ارادتي : « أمدنى بالعون ياربّاه ! »

* * *

◆ وفجأة صاح مستر روشستر : « ما أحمقنى ! لقد ظللت احدثها باننى لست متزوجا دون أن أبسط لها الاسباب فقد نسيت انها لاتعلم شيئا عن اخلاق تلك المرأة وعن الظروف التى لابست زواجى البغيض بها ٠٠ وانني لواثق من ان جين سوف تتفق معى فى الرأى عندما تعرف كل ما اعرفه !٠٠ فقط ضعى يدك فى يدى ياجانيت لكى أرى بحاستى اللمس والبصر انك قريبة منى ، وسأبسط لك فى ايجاز حقيقة الامر ، فهل تستطيعين الاصغاء الى ؟ »

ـ نعم ياسيدى ٠٠ ساعات اذا شئت !

ـ كلا فلست اسألك سوى بضع دقائق ياجين ٠٠ هل سمعت أننى لم أكن أكبر اخوتى فى القصر وأنه كان لى أخ يكبرنى ؟

ـ أذكر أن مسز فيرفاكس اخبرتنى بذلك

ـ وهل سمعت أن أبى كان رجلا شحيحا محبا للمال ؟

ـ فهمت شيئا من هذا القبيل

ـ حسنا ياجين ٠ لما كانت هذه طباع أبى فانه لم يكن يطيق مجرد التفكير فى تقسيم ممتلكاته ليترك لى نصيبا عادلا ، ومن ثم استقر رأيه على أن يرث أخى « رولاند » كل شيء ، ولكنه لم يرتض لى حياة الفقر فمضى يبحث لى عن زوجة غنية ٠ وكان صديقه القديم مستر ميسون مزارعا من سراة جزر الهند الغربية وتاجرا كبيرا ، عرف أبى انه أنجب ابنا وابنة ، وانه آثر الاخيرة بثلاثين ألف جنيه ، وما ان غادرت الكلية ، حتى أوفدنى أبى الى (جمايكا) لاخطب الفتاة ، دون أن يشير الى ثروتها ، بيد أنه قال انها فتنة المدينة ٠ ولم يكن كاذبا فى ذلك اذ وجدتها جميلة من طراز بلانش انجرام : هيفاء سمراء ملتفة القوام ، ارادت أسرتها أن تستحوذ على نظرا لكرم محتدى ، ونجحت فى ذلك ٠٠ كانوا يبرزونها لى فى المجتمعات فى أبهى فتنتها ، فيحيط بها الرجال معجبين وهم يغبطوننى عليها ٠ ووجدتنى مبهور العواطف ، منساقا للاغراء ، لا أدرى حقيقة أمرى ٠ فقد كنت غرا قليل التجربة ، ولم انفرد بها أو أطل معها الحديث على حدة ، فخيل الى اننى أحببتها ٠٠ وليست هناك حماقة تسلب اللب وتعجل بمصير الانسان كالتنافس الابله فى المجتمعات ، وكالاندفاع وراء العاطفة ، وتهور الشباب وعدم بصيرته ٠وهكذا شجعنى أهل الفتاة ودفعنى تزاحم المتنافسين

عليها ، وبهرتنى هى بسحرها ، فتم الزواج قبل أن ادرك أين أنا !٠٠ آه ، كم أحتقر نفسى عندما افكر فى هذه التمثيلية !٠٠ وكم اتألم فى قرارتى للزراية التى تستبد بى ، فاننى لم احبها ولم احترمها قط ، بل اننى لم أكن أكاد أعرفها ، أو أطمئن الى وجود فضيلة واحدة فى طبيعتها ، أو المس فىعقلها أو خلقها شيئا من الخفر أو الاريحية أو الصراحة أو التهذيب ٠٠ وتزوجتها مع ذلك ، فكم كنت أبله حقيرا قصير النظر ! أما امها فاننى لم أرها ، وفهمت انها كانت ميتة ، فلما انقضى شهر العسل أدركت خطئى اذ علمت ان الام مجنونة فى مستشفى المجاذيب ، وان لزوجتى كذلك أخا يصغرها أبله تماما ، أما أخوها الاكبر - الذى رأيته - فسوف يلقى على الارجح نفس المصير يوما ما، ولكنى لا استطيع ان اكرهه - وان ابغضت كل اقاربه - بسبب ما كان يظهر لاخته من حب يتبدى فى اهتمامه بهذه البائسة المنكودة ، وبسبب انه كان يلازمنى كثيرا ملازمة الكلب لصاحبه ٠ وكان أبى وأخى « رولاند » يعرفان ذلك كله ، ولكن تفكيرهما كان مقصورا على الثلاثين الف جنيه ، فاشتركا فى المؤامرة التى دبرت ضدى !

واستطرد قائلا : « هكذا انكشفت لى الحيلة الخسيسة الدنيئة ٠٠ ولولا اخفاؤها عنى ماجعلتها موضوعا لتأنيب زوجتى وتقريعها ، حتى بعد أن وجدت طباعها تتنافى مع طباعى ، وميولها تتباين مع ميولى ، وعقلها منحطا ضيق الافق يستحيل التسامى به أو الامتداد به الى ماهو أفسح من رقعته المحدودة ٠ ووجدت اننى لا أستطيع أن أقضى معها أمسية واحدة - بل ساعة واحدة من النهار - فى راحة وسلام ، وانه لاسبيل الى ان نتبادل الحديث معا ، لاننى كنت اذا بدأت الكلام فى موضوع ما ، تلقت هى حديثى بفظاظة وخشونة وغباء ، ووجدت أن لا سبيل لى فى منزلى الى هدوء أو استقرار ٠٠ بل انخادما واحدا لم يقو على احتمال ثوراتها العنيفة الدائبة وطباعها البلهاء وأوامرها السخيفة المتناقضة التى كانت تفرضها فرضا ٠ وحاولت أن أكبح عواطفى ، وان اتجنب التقريع والتوبيخ ، فأوجزت فى احتجاجاتى ، وحاولت أن أطوى صدرى على ما كان ينتابنى من ندم وتقزز ، وكتمت ما كنت أحس به من كراهية وبغضاء

« ولست أريد ياجين أن أثقل عليك بالتفاصيل المقيتة بل تكفى بضع كلمات قوية للتعبير عما أريد قوله ، فقد عشت مع المرأة التى بالطابق العلوى اربع سنوات ذقت منها خلالها الامرين ، اذ تبدت طباعها بسرعة عجيبة مخيفة ، وتجلت رذائلها بقوة لاتجدى معها غير القسوة التى لم اشأ أن أعمد اليها ٠ كانت قزمة فى عقليتها ، عملاقة فى نزواتها ونزعاتها الشريرة التى جرت على أبشع اللعنات ٠٠ أجل ، ان برتا ميسون كانت ابنة صادقة لام مجنونة متبذلة،

وقد جلبت على كل الوان العذاب المقيت المهين الذى يلاحق أى رجل ارتبط بزوجة مختبلة العقل ، غير عفيفة !

« وفى تلك الاثناء توفى أخى الاكبر ، وفى نهاية السنوات الاربع مات والدى كذلك ، فأصبحت غنيا . ولكن ما كان أشد فقرى - فى الحقيقة والواقع - بمعاشرة هذه المخلوقة البغيضة التى باتت شريكتى فى الحياة ، والتى يعتبرها القانون والناس جزءا منى ، والتى لم يعد فى وسعى أن أتخلص منها باية وسيلة شرعية ، اذ كان الاطباء قد اكتشفوا اذ ذاك انها مخبولة !.. انك لاتميلين الى قصتى ياجين اذ أرى على وجهك دلائل الامتعاض فهل تحبين أن أؤجل البقية الى يوم آخر ؟ »

- كلا ياسيدى ، أتممها الآن .. اننى أرثى لك .. ارثى لك حقا !

- ان الرثاء من بعض الناس ياجين عاطفة مهينة مزرية ، يخلق بالمرء ان يرميها فى وجوه من يقدمونها ، اذ انها تكون وليدةقلوب مليئة بالحقدوالانانية. وانه لما يدعو الى الالم - القائم على الاثرة - أن يسمع الانسان كيف تقابل ويلات الناس ونكباتهم بالازدراء ينصب على رؤوس من احتملوا وقاسوا !..اما رثاؤك لى ياجين فمن نوع آخر أراه يرتسم على وجهك ويلتمع فى عينيك وينبض به قلبك ، وترتعد له يدك وهى فى يدى ... ان رثاءك ياحبيبتى منبعث من قلب طاهر كقلب الام المضناة ، فلا يسعنى سوى ان أتقبله ياجين ، وافتح له صدرى !

- استمر ياسيدى . ماذا فعلت عندما وجدت أنها مجنونة ؟

- كنت على شفا هوة اليأس والقنوط ياجين ، ولم يحل بينى وبينها سوى بقية من احترام النفس . نعم ، كنت ملطخ الشرف فى أعين الناس ، ولكنى اصررت على أن أكون نقيا فى عينى نفسى . وأن أنأى عن دنس جرائم هذه المرأة وأن أبتعد عن عيوبها ونقائصها العقلية .. ورغم ذلك ظل المجتمع يقرن اسمها باسمى ، وظللت أراها وأسمع صوتها وأتنفس الهواء المشبع بأنفاسها - والعياذ بالله - كما أننى لم أنس اننى كنت يوما زوجها ، وان كانت هذه الذكرى - ولا تزال - بشعة مقيتة الى درجة لاتوصف !.. وفضلا عن هذا فاننى كنت أدرك أن ليس بوسعى أن أكون زوجا لزوجةتفضلها، مادامت هى على قيد الحياة . ومع انها تكبرنى بخمس سنوات - فقد كذبت أسرتها وأبوها حتى فيما يختص بسنها - الا انه من المحتمل أن تعيش قدر ما أعيش ، لانها أوتيت من قوة البنية بقدر مالديها من خبل . وهكذا وجدتنى فى السادسة والعشرين من عمرى بلا أمل فى الحياة !

★ ★ ★

◆ ومضى يقول : « وحدث ذات ليلة ان استيقظت على صرخاتها ، اذ كنا

قد حبسناها بطبيعة الحال ، مذ قطع الاطباء بجنونها ٠٠ وكانت الليلة من ليالى جزر الهند الغربية النارية ، كما يصفون الطقس الذى يسبق العواصف هناك ! ٠٠ واذ عز على أن أعود للنعاس ، غادرت فراشى وفتحت النافذة ٠ ولكن الهواء كان أشبه بعيون كبريتية،فلم أجد فيما كان حولى ماينعش النفس٠ وأقبل البعوض يطن فى عناد ويحوم فى الحجرة ٠ وتناهى الى سمعى هدير البحر مكتوما ، وقد انعقدت السحب القاتمة ، وانحدر القمر الى المغيب فى أطواء الامواج ، فبدا عريضا محمرا كقنبلة انطلقت من مدفع ٠٠ وراح يرنو بنظرة دموية أخيرة للعالم الذى كان يرتجف أمام العاصفة المقبلة !٠٠ وأثر الجو والمنظر فى نفسى ، كما امتلأت اذناى بالشتائم التى كانت المجنونة لاتزال تصرخ بها ، والتى كانت تخلطها من آن لآخر باسمى فى لهجة حاقدة بشعة ، وفى تعبيرات وقحة لاتفوه بها عاهرة !٠٠ وكانت كل كلمة تتناهى الى مسمعى ، وان فصلتنى عنها حجرتان ٠ اذ أن الجدران فى بيوت الهند الغربية رقيقة ، لاتحجب مثل تلك الصرخات الشبيهة بعواء الذئب ٠ واخيرا قلت :

ـ ان هذه الحياة جحيم ٠٠ فهذا هواء جهنم ، وهذه هى الاصوات التى تنبعث من جوفها الذى لاقرار له !٠٠ ان من حقى أن أتخلص منها اذا استطعت، فان آلام هذه الحال القاتلة خليقة بأن تخنق روحى ٠٠ اننى لااخشى الجحيم المقيم الذى يؤمن به المتعصبون ، فليس من مصير اسوأ من حياتى الراهنة ٠ ٠ لاتخلص من هذه الحال ، ولاطلق روحى لبارئها ! »

« قلت ذلك وأنا أجثو على ركبتى بجوار حقيبة مفتوحة مليئة بمسدسات محشوة بالرصاص ٠ وكنت قد عزمت على الانتحار ، ولكن هذه الفكرة لم تتملكنى سوى لحظة واحدة عاد بعدها صوابى ليتغلب على رغبتى فى القضاء على نفسى ٠٠ واذ ذاك هبت رياح منعشة من ناحية اوروبا ، ثم انسابت من المحيط الى الحديقة ٠ وثارت العاصفة وأرعدت وتوهجت ، ثم صفا الهواء ٠ وعندئذ رسمت خطة وعولت على قرار ٠٠ فبينما كنت أتمشى تحت أشجار البرتقال فى الحديقة المبللة ، وبين اشجار الرمان والاناناس ، والفجر من حولى يضىء الاقاليم الاستوائية ، فكرت ياجين فأصغى لما ساورنى ، لان هذه هى الحكمة التى وجدت فيها عزاء فى تلك الساعة وهى التى هدتنى الطريق الصحيح الذى يجب ان أسلكه

« وكانت رياح المنعشة القادمة من اوروبا لاتزال تهمس بين أوراق الشجر التى انتعشت وكان المحيط الاطلسى يهدر فى انطلاق بديع ٠ وما لبث قلبى الذى طال جفافه واحتراقه ان تحرك لتلك الانغام ، وامتلأ بدم حى ، كما تاق كيانى للتجديد وتعطشت روحى الى هواء نقى ورأيت الامل ينبعث ، وشعرت بان تجدد القلب سهل ميسور ، فرحت ـ من خميلة مزهرة فى نهاية الحديقة ـ

اتطلع الى البحر الذى كان يفوق السماء زرقة ، فرأيت العالم القديم بعيدا وقد تفتحت أمامى الامانى هكذا :

« حدثنى الامل قائلا : « اذهب وعش فى اوربا ، حيث لايعرف أحد أى اسم ملطخ تحمله ، وأى عبء قذر جثم على كاهلك . وفى وسعك أن تأخذ المجنونة معك الى انجلترا حيث تحبسها فى (ثورنفيلد) وسط رعاية واحتياطات شديدة ، ثم ارحل حيث شئت واتخذ لنفسك الحياة التى تروق لك والعلاقات التى تحبها ، لان المرأة التى دنست اسمك ولطخت شرفك وقضت على زهرة شبابك ليست زوجتك ، ولست انت زوجها . واطمئن الى انها تلقى من العناية ماتتطلبه حالها ، وانك فعلت كل مايتطلبه منك الله والانسانية . اما حقيقتها وعلاقتها بك فأمران يجب ان يطويا فى سجلات النسيان ، فلا ترو لاحد قصتهما .. ولتدعها فى امان وسكينة وتستر على هوانها ، ثم غادرها الى الابد ! »

« وعملت بهذا الاقتراح بكل دقة . ولم يكن أبى وأخى قد أذاعا خبر زواجى بين معارفهما ، لاننى ألححت عليهما - فى أول خطاب أرسلته بعد زواجى - أن يكتما خبر هذه الرابطة بعد ان بدأت استشعر التقزز البالغ من عواقبها ، وبعد ان رأيت على ضوء الاسرة التى صاهرتها وحالها وطباعها اى مستقبل بغيض كان ينبسط أمامى . ولم يلبث نبأ المرأة المخبولة المتبذلة التى اختارها لى أبى زوجة أن تناهى اليه ، فأصبح وجهه يتضرج بدماء الخجل لانتسابها اليه ، وأصبح أكثر منى رغبة فى كتمان أمرها !

« نقلتها اذن الى انجلترا ، وما كان افظع الرحيل مع هذه الوحشة فى سفينة واحدة !.. وكم ابتهجت نفسى عندما بلغت بها (ثورنفيلد) ، فوضعتها فى الغرفة الخفية التى بالطابق الثالث ، والتى اتخذتها هذه (الحيوانة) الكاسرة عرينا لها عشر سنوات طوال ، تحت رعاية جريس بول واشرافها .. فان هذه المرأة والجراح الدكتور كارتر - الذى ضمد جراح ميسون - هما الوحيدان اللذان أطلعتهما على هذا السر الرهيب . ولعل مسز فيرفاكس قد استرابت فى الامر ، ولكنها لاتدرى شيئا عن الحقيقة . وعلى الرغم من أن جريس قامت بمهمتها فى الحراسة على أكمل وجه ، الا انه حدث بسبب غلطة ارتكبتها - ويبدو ان لاشفاء لها منها وان نغصت عليها صفو مهنتها - أن يقظتها تراخت أكثر من مرة ، فان المجنونة ماكرة بقدر ماهى شريرة مؤذية ، فلذلك لم يفتها أن تنتهز غفلة من حارستها ، فحصلت على ذلك الخنجر الذى طعنت به أخاها . كما سرقت المفتاح مرتين فى أثناء الليل ، وحاولت أن تحرقنى فى فراشى فى المرة الاولى ، ثم زارتك فى المرة الثانية ، تلك الزيارة الرهيبة . وانى لاشكر للعناية الالهية ان صانتك فاقتصرت المجنونة على ان تصب جام غضبها على خمار زفافك ..

اذ أنه ولا بد قدأعاد اليها ذكريات غامضة عن أيام عرسها ، ولست احتمل مجرد تصور ما كان يحتمل ان يحدث !٠٠ ان الدم ليجمد فى عروقى حين افكر فى ذلك الوحش الذى انقض فى هذا الصباح على عنقى ، وخيم بطلعته القرمزية القاتمة على عش حبى »

* * *

♦ وعندما توقف سألته : « وماذا فعلت ياسيدى بعد ان جئت بها الى هنا ؟ الى آين ذهبت ؟ »

ـ ماذا فعلت ياجين ؟ تحولت الى طيف ٠٠ الى سراب ! والى اين ذهبت ؟ رحت آتجول كالارواح الهائمة ٠٠ سعيت الى أوربا ورحت أضرب فى مناكبها ، وأطوف ببلدانها ، وقد وضعت نصب عينى أن أبحث عن امرأة طيبة ذكية استطيع ان أهيم بها حبا ، وأن تكون على نقيض تلك الشيطانة التى تركتها فى ثورنفيلد

ـ ولكنك لم تكن تملك أن تتزوج ياسيدى

ـ كنت قد قررت ذلك وأقنعت نفسى بأن فى وسعى أن أتزوج ٠٠ بل وبأن من الواجب ان أتزوج ٠ ولم يكن فى نيتى أن أخدع أحدا كما خدعتك ، بل كنت اعتزم بسط قصتى فى بساطة وعرض مقترحاتى فى صراحة ٠ وبدا لى أن من المعقول جدا أن يعتبرنى الناس حرا فى أن أحب وأن أحظى بالحب ٠ ولم اشك فى وجود امرأة تستطيع فهم قضيتى ، فتقبلنى زوجا على الرغم من اللعنة التى تثقل عاتقى ٠

ـ وبعد ياسيدى ؟

ـ ان فضولك ياجين يحملنى على الابتسام ، اذ تفتحين عينيك كطائر متلهف، وتند منك بين الحين والآخر حركة تنبىء عن قلق ، وكأن المعلومات التى يزخر بها حديثى لاتوافيك بسرعة ، فانت تودين أن تستشفى قرارة قلبى ٠٠ ولكن قبل أن أسترسل فى الحديث ، خبرينى : ما الذى تعنيه بعبارة « وبعد ياسيدى ؟ » ٠٠ انها عبارة صغيرة عادية منك ، ولكنها طالما استدرجتنى الى حديث لاينتهى ، ولا أدرى السبب فى ذلك

ـ انما أعنى : ماذا بعد ذلك ؟٠٠ كيف سرت فى طريقك ، وماذا نجم عن مثل هذا الحادث ؟

ـ تماما !٠٠ وماذا ترغبين فى معرفته الآن ؟

ـ هل وجدت من احببتها ، وهل طلبت اليها ان تتزوجك ، وماذا قالت ؟

ـ فى وسعى ان اجيب عن : هل وجدت من أحببتها ، وهل طلبت اليها ان تتزوجنى ٠٠اما ماقالته فسيدون فى سجل القدر٠ فلقد قضيت عشر سنواتاهيم هنا وهناك ، اعيش فترة فى عاصمة ، ثم اغادرها الى غيرها ٠٠ فانا حينا فى

سانت بطرسبرج،وحينا فى باريس ، وأحيانا كثيرة فى روما ونابولى والبندقية. وبفضل ماكنت مزودا به من مال ، ومن جواز سفر يحمل اسما قديما ، فقد كان بوسعى ان اختار الوسط الذى آنس اليه ، اذ لم يكن أى وسط يغلق ابوابه فى وجهى . فرحت أبحث عن زوجة نموذجية بين السيدات الانجليزيات و « الكونتات » الفرنسيات و « السنيورات » الايطاليات و « الجرايفينات » الالمانيات ، دون أن أهتدى الى ضالتى . وكان يخيل لى أحيانا - لفترة عابرة - اننى لمحت نظرة وسمعت صوتا ورأيت قواما يحقق حلمى، ولكنى كنت لا ألبث أن أثوب الى رشدى !.. لاتحسبنى اننى كنت أنشد الكمال سواء فى العقل أو الجمال ، ولكنى كنت أتلهف فقط على من تلائمنى على نقيض هذه الخلاسية . وعبثا حاولت ، اذ لم أجد بينهن من يمكن ان اسألها أن تتزوجنى لو أتيحت لى الحرية ، بعدكل ماعانيت من المخاطر والاهوال والخوف من الاواصر التى لاتتلاءم معى . وجعل اليأس منى شخصا مستهترا فحاولت الانغماس فى الملذات .. وليس فى الفسق ، فاننى كنت أكرهه وما زلت اكرهه !.. وكانت كل متعة فيها صخب تقربنى من المرأة التى كنت اهرب منها ، ومن ثم كنت اسارع الى تجنبها !.. ومع ذلك فاننى لم أستطع العيش بمفردى فجربت معاشرة الخليلات، ووقع اختيارى اولا على « سيلين فارنس » - وهذه احدى الخطوات التى تجعل المرء يحتقر نفسه كلما تذكرها - وأنت تعرفين ماذا كانت وكيف انتهت صلتى بها ، وأعقبتها اثنتان : احداهما ايطالية تدعى « جياشينتا » ، والاخرى ألمانية تدعى « كلارا » . وكانت كل منهما آية فى الجمال ، ولكن ما الذى صار اليه جمالهما فى عينى بعد بضعة أسابيع ؟.. كانت جياشينتا امرأة عنيفة ،وضيعة الاخلاق والمبادىء فسأمتها بعد ثلاثة أشهر ، بينما كانت كلارا أمينة وهادئة ، ولكنها كانت ثقيلة بلا عقل ، ولا عاطفة . كما انها كانت لاتثير شعرة فى جسدى ، فاغتبطت بأن أمنحها مبلغا كبيرا يكفل لها العيش الرغد ، وهكذا تخلصت منها برفق ! ولكنى أرى من سيمائك ياجين انك لاتأخذين عنى الآن فكرة طيبة ، فهل تحسبيننى وغدا مستهترا لايشعر ولا يتقيد بمبدأ ؟!

- اننى لا احبك بمثل ما أحببتك فى بعض الاحيان .. هذا هو الواقع ياسيدى . أفلا ترى انه من الخطأ على الاقل أن تحيا بهذه الطريقة : تعاشر هذه العشيقة ثم تلك ؟.. أراك تتحدث عن هذه الامور كما لو كانت طبيعية !!

- هكذا كنت أحيا ولكنى لم أحب هذه الطريقة ، ولكنها كانت مجرد وسيلة هائمة للبقاء فى الحياة ولا أحب أن أعود اليها بحال ، فان استئجار محظية هو فى عينى بمثابة استرقاق جارية ، كلاهما دنىء بطبيعته وبوضعه . وفى العيش مع الادنياء تدهور وانحطاط ، ولذلك فاننى أكره التفكير فى الفترة التى قضيتها مع سيلين وجياشينتا وكلارا !

★ ★ ★

◆ وشعرت بصدق هذه الكلمات ، واستخلصت منها النهاية الاكيدة • فلو اننى نسيت نفسى والتعاليم التى غرست فى اعماقى ، فغدوت خليفة لهذه الفتيات التعسات – مبررة فعلتى بأى مبرر ، أو بأية حجة ، أو منساقة لاى اغراء – لنظر الى على نفس الضوء الذى يشع الآن فى ذهنه على ذكراهن •• ولم أبح بهذا الاقتناع ، مكتفية بأن أشعر به ، فكتمته فى فؤادى عسى أن يمكث فيه ليكون فى عونى فى وقت الضيق !

– والآن ياجين ، لماذا لاتقولين : « وبعد ياسيدى ؟ » •• انك تبدين مهمومة واراك مازلت تستنكفين مافعلت ، ولكن دعينا نصل الى ما أرمى اليه : فقد تخلصت فى يناير الماضى من كل خليلاتى ، اذ تولانى تفكير قاس مرير ، نتيجة الحياة غير المجدية ، الهائمة ، الموحشة ، التى نخرها القنوط والخيبة ، فاذا بى اشعر بكراهية بغيضة لكل الناس ،لاسيما النساء منهم ، لاننى بدات اعتنق الرأى القائل عن عقل واخلاص : ان المرأة المحبة لاتعدو حلما من الاحلام !•• وكانت شئونى قد أرجعتنى الى انجلترا • وفيما كنت راكبا جوادى، بعد ظهر يوم شديد البرد من أيام الشتاء،وقد أشرفت على (ثورنفيلدهول) – هذا المكان البغيض الذى لم أكن أتوقع فيه سلاما ولا هناء – شاهدت فى طريق (هاى) شبحا صغيرا يجلس وحيدا فى هدوء ، فواصلت السير دون اكتراث مارا بشجرة الصفصاف القطبية فى الاتجاه الآخر دون أن أدرى ماسيكون لهذا الشبح من شان فى حياتى ، ودون أن ينبهنى شىء فى قرارة نفسى الى ان المرأة التى سيكون لها الحكم الفاصل فى حياتى ، والى ان الجنية التى ستقودنى الى الخير أو الى الشر ، كانت تنتظرنى متنكرة فى شخصية متواضعة • أجل ، لم أفطن الى ذلك ، حتى عندما تقدمت جادة تعرض مساعدتها لانهاضى من عثرتى عندما كبا بى جوادى « مسرور » ••

كم كانت مخلوقة ناحلة أشبه بالاطفال !•• لقد خيل الى انها عصفور وثب عند قدمى وعرض على ان يحملنى على جناحه الصغير !•• وكنت فظا ، ولكن هذه المخلوقة لم تنصرف بل وقفت أمامى فى الحاح عجيب ، وجعلت تتطلع الى وتحدثنى فيما يشبه الامر باننى يجب أن أتقبل العون ، ومن يدها بالذات•• وفعلا عاونتنى •• وما ان ضغطت على كتفها الهزيلة ، حتى تسرب الى جسمى احساس جديد ، ثم طبت نفسا عندما علمت أن هذه (القزمة) لن تلبث أن تعود لى ، وأنها على صلة بمنزلى •• ولولا ذلك ماتركتها تمضى فى سبيلها وتختفى وراء السياج القاتم دون ندم غير عادى !•• ثم سمعتك تعودين الى المنزل فى تلك الليلة ياجين ، وان لم يخطر ببالك اننى كنت افكر فيك أو ارتقب عودتك • وفى اليوم التالى ، لاحظتك خفية نحو نصف ساعة وانت

تلعبين مع اديل فى الدهليز ، اذ كان اليوم قر والجليد يتساقط ، فلم يكن فى وسعكما الخروج ٠٠ ولقد شغلت اديل اهتمامك برهة ، ومع ذلك فقد خيل الى ان أفكارك كانت تهيم فى مكان آخر ٠ ولكنك كنت بالغة الصبر فى معاملتك لاديل ياصغيرتى جين ، فظللت تحدثينها وتسلينها طويلا ٠ حتى اذا غادرتك الطفلة فى النهاية ، غرقت على الفور فى لجة عميقة من أحلام اليقظة ، ورحت تذرعين الدهليز بخطوات بطيئة ، وكنت بين الفينة والاخرى تطلين - كلما مررت بالنافذة - على الجليد الكثيف المتساقط وتصغين الى نحيب الرياح ، ثم تعودين الى ذرع الدهليز وأنت سادرة فى احلامك ! وأغلب الظن ان احلام اليقظة تلك لم تكن قاتمة ، لان عينيك كانتا تشعان فى سرور واغتباط ، وكانت انفعالاتك تتجلى على أساريرك ناعمة ، لاتدل على شعور بمرارة أو اكتئاب أو وسوسة ٠٠ كانت نظرتك تشى بأفكار الشباب الحلوة التى تحلق مع الروح على أجنحة الامل الى سماء المثل العالية ٠ وأخيرا ، أفقت من احلامك على صوت مسز فيرفاكس تنادى احدى الخادمات ، وياللابتسامة التى ابتسمتها ياجانيت اذ ذاك لنفسك ٠٠ كانت ابتسامة تزخر بالمعانى ٠٠ ابتسامة اريبة تلقى ضوءا على شرود أفكارك ، وكأنها تقول : « ان أحلامى لذيذة للغاية ، ولكن يجب ألا أنسى أنها مجرد أوهام خيالية ٠٠ ان فى رأسى جنة نضيرة الازهار وسماء وردية اللون ، ولكن عند قدمى طريقا وعرا ، وحولى تتجمع العواصف السوداء » ٠٠ ثم أسرعت تهبطين الدرج الى الطابق السفلى ، وطلبت الى مسز فيرفاكس نوعا من العمل لعله الحساب الاسبوعى لنفقات القصر أو شىء من هذا القبيل ، فاستأت أنا لاختفائك عن عينى !

وترقبت وفود المساء فى صبر نافد ، لادعوك الى حضرتى ٠ فقد شككت فى ان تكون لك طباع غير عادية ولا قبل لى بها ، فاردت أن أسبر غورها واتعرف عليها جيدا ٠ ورأيتك تدخلين الحجرة بمظهر يجمع بين الحياء واستقلال الشخصية ، كما انك كنت فى ثياب عجيبة كما انت الآن ٠٠ واستدرجتك الى الكلام ، فسرعان ما وجدتك مشحونة بالمتناقضات العجيبة : فقد كانت ثيابك وطباعك تخضع لقيود شديدة ، وكان مظهر ينم فى أغلب الاحيان عن خفر وحياء ، ولكنه فى مجموعه كان يدل على انك مثقفة ، وغير مختلطة بالمجتمع ٠٠ كنت شديدة الخوف من التعرض بلا داع الى الهراء والاخطاء ،ولكنك اذا ماوجه اليك حديث - كنت ترفعين الى وجه محدثك عينا حادة جريئة متألقة ، وظهر فى كل لمحة من لمحاتك انك ذات سلطان ينفذ الى أعماق محدثك ، فاذا ضيق عليك الاسئلة جاءت ردودك حاضرة سديدة ٠٠ وسرعان ما ألفتنى واعتقد انك شعرت بالتجاوب بينك وبين مخدومك المتجهم العبوس ياجين ، لان ثورتك كانت تخبو لاقل تهدئة من ناحيتى ، ولانك لم تعجبى لما اتصف به من عبوس وفظاظة ولم تخافى ولم تجزعى ولم تستائى لشراستى ، بل كنت ترمقيننى وتبتسمين الى من

حين الى آخر ببساطة تجل عن الوصف ، فقنعت بما رأيت ورضيت بماشاهدت، وتمنيت المزيد • ولكننى ظللت لمدة طويلة أعاملك معاملة ترمى الى اقصائك فلم أسع للاختلاط بك الا فيما ندر ، لاننى أردت أن أطيل حبل القصة من جهة ، ولاننى خشيت من جهة أخرى ان تذبل الزهرة اذا أكثرت من تداولها ،فتضيع رائحتها الساحرة •• وما كنت أعرف وقتذاك أن ازدهارها ليس زائلا ، وانما هو اشراق دائم كتألق الجوهرة لايتلاشى ولا ينمحى • هذا الى أننى أردت أن أعرف ما اذا كنت تنشدين رؤيتى اذا تجنبتك ، ولكنك لم تحفلى بى ياجين وظللت تلازمين حجرتك ، فاذا التقيت بى عرضا واتفاقا ، لم تظهرى نحوى الا مايفرضه عليك واجب الاحترام

وكانت أساريرك العادية فى تلك الايام ياجين تنم عن التفكير العميق •• ولم تكن شاحبة ، لانك لم تكونى تعانين اذ ذاك هما ولا قنوطا •• وكذلك لم تكن متهللة ، اذ كانت آمالك قليلة بسيطة ولم تكن فى حياتك غبطة حقيقية ••ولقد ساءلت نفسى عما جال بخاطرك عنى ، وعما اذا كنت قد فكرت لحظة فى • • ولكى أتبين ذلك ، ظللت أراقبك ، فاذا فى نظراتك شىء من الفرح ، وفى تصرفاتك ماينم عن سماحة ، وفى حديثك – اذا تكلمت – مايكشف عن قلب ودود • وما كان حزنك سوى ضجر تولد عن حجرة الدراسة الساكنة ، وعن الحياة الرتيبة ، الجامدة !•• وتركت نفسى تنعم بمعاملتك بالحسنى ، وسرعان ماتحركت عواطفك بهذه الشفقة ولانت أساريرك ونبراتك ••وأصبحت أحب سماع اسمى تنطق به شفتاك بلهجة تشف عن الامتنان والسعادة ، كما اعتدت ان أتحين الفرص للقائك فى تلك الايام ياجين • ورأيتك فى حيرة ، وشاهدت قلقا فى نظراتك اذ لم تكونى تدرين هل سأمثل معك دور السيد فأعاملك بشدة وحزم ، أو اننى سأتخذ دور الصديق فأبدى لك الود والعطف •• ولكننى كنت قد أصبحت متيما فى هواك الى درجة حالت دون ان أقوم ازاءك بالدور الاول ، فكنت اذا مددت اليك يدى فى ود ، تهلل وجهك الصغير وتوردت أساريرك المشتاقة حتى أصبحت أجد عناء كثيرا فى منع نفسى من ان أضمك الى صدرى

★ ★ ★

◆ فقاطعته وانا أكفكف دموعى خلسة : « لا تحدثنى مرة أخرى عن تلك الايام ياسيدى ! » •• فلقد كانت كلماته تعذبنى لاننى كنت قد عرفت مايجب ان أفعله •• وأن أفعله بسرعة • ومن ثم فقد كانت تلك الذكريات والاعترافات العاطفية تزيد فى صعوبة مهمتى • وأجابنى قائلا : « كلا ياجين •• لا ضرورة تدعو الى التحدث عن الماضى اذا كان الحاضر أكثر منه أمنا ، والمستقبل أكثر اشراقا وتألقا ! »

وارتجفت لهذا التأكيد الذى يدل على أنه رجل مسلوب القلب • ولكنه

استرسل يقول : « هأنتذى قد رأيت قضيتى .. أليس كذلك ؟ فبعد شباب ورجولة انقضيا فى بؤس لا يوصف ووحدة موحشة ، عثرت على ضالتى المنشودة ، والتقيت بمن أستطيع ان أحبها حبا صادقا .. عثرت عليك أنت.. أنت عاطفتى وذاتى الفضلى وملاكى الكريم !.. وانى لمرتبط بك برباط قوى، وأراك فتاة طيبة موهوبة مليحة ، وأحمل لك فى قلبى حبا عاتيا يهفو اليك ويجتذبك الى سويدائى والى منبع حياتى ، ويدفع وجودى الى أن يلفحولك، والى أن يشتعل فى لهيب صاف مشبوب يصهرك واياى فى كيان واحد !.. كان شعورى هذا ومعرفتى هذه سر اصرارى على أن أتزوجك ، واذا قلت لك الآن ان لى زوجة فان هذا القول يعد سخرية فارغة ، لانك تعلمين انها شيطانة مريدة !.. لقد أخطأت فعلا فى اخفاء هذه الحقيقة عنك ، وعذرى اننى كنت أخشى ما أعهده من عناد فى أخلاقك .. انه جبن منى بلا ريب ، فقد كان خليقا بى ان أبسط لك قضيتى كما بسطتها الآن ، ثم أتوسل الى نفسك النبيلة والى كرم أخلاقك أولا ، ثم أكشف لك بصراحة عن تاريخ حياتى المعذبة وأصف لك مدى جوعى وتعطشى الى حياة أسمى وأفضل .. حتى اذا ما أبديت لك عزمى الذى لا ينثنى على أن أحب وأخلص حيثما أجد الحب والاخلاص ، كان لى أن أسألك ان تبادلينى العهد على الوفاء .. فهلا عاهدتنى ياجين ؟ »

وران السكون بيننا لحظة قال بعدها : « لماذا تسكتين ياجين ؟ »

وكنت أعانى عذابا مضنيا ، وكأنما راحت تعتصر أحشائى قبضة من حديد ملتهب .. كانت لحظة عصيبة زخرت بالصراع والظلام والاحتراق !.. ماكان فى الدنيا انسان يهفو الى أن يلقى من الحب ماكنت ألقى .. وكنت اعبد هذا الذى يحبنى عبادة مطلقة ، ولكن واجبى كان يحتم على أن أنبذ هذا الحب وهذا المعبود ! .. كان كل واجبى ينحصر فى كلمة واحدة ، بغيضة.. الرحيل ! »

وعاد يسألنى : « أتفهمين ياجين ما أريده منك ؟.. لا أريد سوى هذا الوعد : سأكون لك يامستر روشستر ! »

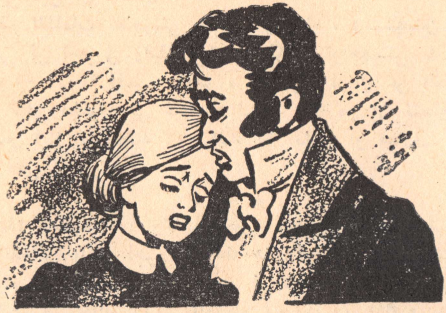
ـ بل اننى لن أكون لك يامستر روشستر !

وران سكون مطبق آخر ، قبل ان يستأنف السيد حديثه بصوت رقيق انفطر له قلبى ، وأحالنى كالحجر البارد لفرط الاشفاق والهلع . فقد بدا كصوت أسد يلهث وهو يقول : « أتعنين ياجين ان تتخذى لك فى هذا العالم طريقا غير طريقى ؟ »

ـ نعم أعنى ذلك

فانحنى على وضمنى الى صدره ، ثم عاد يقول : «وهل مازلت تعنينه الآن ؟»

ـ نعم أعنيه



فطبع قبلة رقيقة على وجنتي وجبيني ثم قال : « والآن ؟ »
فبادرت الى انتزاع نفسي تماما من احضانه وقلت : « نعم أعنيه ! »
ـ أواه ياجين ٠٠ هذه قسوة !٠٠ هذا شر ! هل من الشر أن تحبيني ؟
ـ بل من الشر أن أطيعك
فارتفع حاجباه عن نظرات شرسة توهجت على أساريره ، ثم نهض من مكانه. ولكنه تجلد بينما اتكأت بيدى على ظهر أحد المقاعد خشية السقوط ،وقد ارتجف جسمي واستبد بى الخوف ، ولكننى ظللت مصرة على ما اعتزمت فقال: « لحظة واحدة ياجين ٠٠ القى نظرة واحدة على حياتى البائسة قبل ان تذهبى ٠ انك تنتزعين معك كل سعادتى ، فماذا يتبقى لى بعدها ؟٠٠ ليس لى الا الزوجة المجنونة بالطابق العلوى كأنها احدى الجثث المدفونة فى فناء الكنيسة ، فماذا أفعل ياجين ؟ وأين أنشد الرفيق ؟ وأى أمل يبقى لى فى الحياة ؟ »
ـ افعل مثلي : ثق في الله ، وفى نفسك ، وآمن بالسماء ، وتمسك بالامل في ان نلتقى فيها !
ـ اذن فلن ترضخى ؟
ـ كلا
فقال بصوت مرتفع : « اذن فأنت تقضين على بان أعيش شقيا وان أموت ملعونا ؟ »
ـ بل أنصحك بأن تعيش بلا خطيئة ، وأتمنى لك أن تموت فى هدوء وسلام !
ـ اذن فأنت تنتزعين مني الحب والبراءة ، وتردينني الى الشهوات والرذيلة؟
ـ أنا لا أحملك على مثل هذه الحياة يامستر روشستر ، اللهم الا اذا كنت ارتضيها لنفسي ٠٠ انما ولدنا لكي نناضل ونحتمل ٠٠ هذا مصيرك ومصيري،

وسوف تنسانى قبل أن أنساك !

ـ انك بهذه الكلمات تصمينني بالكذب والرياء ، وتستهينين بشرفى . لقد صارحتك بأننى لن أجد لى رفيقا غيرك ، ولكنك تواجهينني بأننى لن ألبثان أتغير فأنساك .. ألا ما أقسى حكمك ، وما أبعد أراءك عن الحقيقة !.. هل من الخير أن تلقى مخلوقا فى غياهب اليأس بدلا من ان تتجاوزى عن قانون بشرى لن يضير أينا اذا نقضه ؟.. انك بلا أقارب أو معارف تخشين غضبهم اذا ما عشت معى !

★ ★ ★

◆ كان هذا صحيحا .. وكان ضميرى وعقلى قد تألبا ضدى ـ أثناء الحديث ـ واتهمانى بأننى اجرم فى حقه اذ أقاومه . وصاح شعورى عاليا بدوره : « أواه !.. اخضعى !.. فكرى فى شقائه .. فكرى فى الخطر الذى يتهدده . فكرى فى حاله عندما تغادرينه وحيدا .. تذكرى اندفاعه وتهوره فى حبك وفكرى فيما قد يجره عليه اليأس .. هيا خففى عنه وانقذيه واجيبه .. أخبريه بأنك تحبينه وانك ستكونين له .. من ذا الذى يعنى بك فى العالم غيره ، ومن الذى يضيره ماتعملين ؟ »

ورغم ذلك ، فقد ظل الجواب الذى لايغلب ولا يقهر : « سأعنى بنفسى .. وكلما بقيت فى عزلة وبلا صديق أو عائل ، زدت احتراما لنفسى وتمسكا بالشرائع التى استنها الله وأقرها البشر . نعم ، سأتمسك بالمبادىء التى اعتنقتها وأنا فى سلامتى العقلية ، لا وأنا مخبولة بانفعالاتى كما أنا الآن ، فان قيمة الشرائع والمبادىء ليست فى الاوقات التى تخلو من الاغراء ، وانما هى فى مثل هذه اللحظات التى يتمرد فيها الجسم والروح على صرامة تلك المبادىء والشرائع . فهى صارمة حقا ، ولكنها ستظل مصونة حصينة . واذا كان فى وسعى ان أنتهكها لمصلحتى الخاصة ، فأية قيمة لها اذن ؟ ان لها قيمتها كما كنت أعتقد دائما ، فاذا كنت قد كففت عن الاعتقاد الآن ، فما ذلك الا لاننى مجنونة .. مجنونة وأى جنون بسبب النار التى تسرى فى شراييني ، وبسبب نبضات قلبى التى لم أعد أقوى على ملاحقتها واحصائها.. لم يبق لى الآن سوي الوقوف بجانب الآراء القديمة والارادة السابقة ،وسوف أتسمر اليها لا أريم ولا أتحرك ! »

وقد فعلت ذلك !.. ورأى مستر روشستر مما ارتسم على أسارير وجهى اننى اعتزمت ذلك .. وكان غضبه قد بلغ الذروة فعول على أن يهدىء من سورته مهما حدث ، ولذلك عبر الحجرة وامسك بذراعى ثم أمسك بخصرى وراح يصليني بنظراته الملتهبة ، فشعرت فى تلك اللحظة بعجزى الجثمانى ، ولكني بقيت محتفظة بقواي العقلية . واحسست بأنني لذلك في مأمن تام

وسلامة كاملة ٠٠ ومن حسن الحظ أن العين تترجم مايدور بالنفس ترجمة أمينة دون ان تدرى ، وكنت قد رفعت عينى الى عينيه ٠ وفيما كنت أتفرس فى وجهه الثائر ، ندت عن صدرى زفرة ـ برغمى ـ اذ كان يشد بقوة على خصرى ٠ ووجدت قواى تخور فقال وهو يصرف على أسنانه : « ما رأيت فى حياتى قط مخلوقة كهذه ٠٠ غاية فى الضعف ، وغاية فى الصلابة !٠٠ انها لتبدو فى يدى كقصبة من البوص ! » ٠٠ وهزنى بقوة وهو يقول : « اننى أكاد ألويها بين أصبعى وابهامى ، ولكن أى نفع أجنيه اذا أنا لويتها أوحطمتها أو سحقتها ؟٠٠ أنظر الى هذه العين !٠٠ تأمل النظرة العنيدة ، النافرة ، المنطلقة ٠٠ انها تتحدانى بشىء يفوق الشجاعة ٠٠ بشعور بالنصر المؤزر !٠٠ كأنى بهذا الجسد الهش قفص يضم روحها ٠٠ ولكنى لن أستطيع ـ مهما افعل بهذا القفص ـ ان أصل الى هذه المخلوقة المتوحشة الجميلة !٠٠ لو اننى مزقت أو هشمت هذا القفص الضئيل ، فلن يؤدى هياجى الا الى انطلاق الطائر الاسير ٠٠ اننى قد أقتحم هذا المأوى ، ولكن ساكنته ستفر الى السماء قبل أن تصل اليها يداى ٠ انك أنت أيتها الروح بما أوتيت من قوة وفضيلة وطهارة ، هى كل ما أنشد ، فلا حاجة لى بهيكلك الهش ٠٠ ان فى وسعك أن تأتينى طواعية وأن تحطى على صدرى كعصفور ، أما اذا أمسكت بك رغم انفك فسوف تروغين من قبضتى مثل الاثير ، وسوف تختفين قبل ان أنهل من عبيرك ! أواه ٠٠ تعالى ياجين ٠٠ تعالى ! »

ثم أطلقنى من قبضته وراح يتأملنى بنظرة أشد ايلاما للنفس من قبضته ، ولكنى وجدت من الحمق والغباء أن أستسلم الآن بعد أن جرؤت وقاومت ثورته فى عنفوانها ، فتراجعت الى الباب ولكنه صاح: « أذاهبة أنت ياجين ؟ »

ـ أجل ، أنا ذاهبة ياسيدى

ـ وهل تتركيننى ؟

ـ نعم

ـ ألا تعودين ؟٠٠ هلا تكونين لى الانيسة المنقذة ؟٠٠ ألا قيمة لديك لحبى العميق وحزنى الشديد وضراعتى الحارة ؟

وكان فى صوته شجن مكبوت ، ولذلك كان شاقا على أن اقول فى عزم واصرار : « اننى ذاهبة » ٠٠ فهتف : « جين ! » ٠٠ قلت : « مستر روشستر ! »

ـ اذهبى اذن ٠٠ لقد رضيت ، ولكن تذكرى أنك تتركيننى هنا لاعانى آلاما مبرحة ٠ اصعدى الى غرفتك وفكرى فى كل ما قلته لك ، ثم القى نظرة على شجونى وفكرى فى !

واستدار وانكفأ فوق الاريكة ، ثم غمغم بين شفتيه فى الم : « أواه ياجين ! يا أملي وحبي وحياتي ! » ٠ ونهنه باكيا ٠٠ وكنت قد بلغت الباب

اذ ذاك ، ولكننى عدت أيها القارىء .. عـدت بالعزم الذى انسحبت به ، فركعت بجواره ، وحولت وجهه عن الوسادة نحوى ، وقبلت وجنته ،ومسحت بيدى على شعره ، ثم قلت : « باركك الله ياسيدى العزيز ، وحفظك من كل شر ، وعصمك من الخطأ وسـدد خطاك ، ومنحك السلوان ، وجازاك خير الجزاء على ما أسلفت على من عطف وحنان ! » .. فأجابنى : « ان حب جين الصغيرة هو خير ما أطمع فيه من جزاء ، وبدونه يتحطم قلبى . ألا ان جين ستمنحنى حبها .. نعم ستمنحينه فى نبل وكرم ! » .. ثم اندفعت الدماء حارة الى وجنتيه والتهبت عيناه فوثب واقفا على قدميه ، ومد ذراعيه ، ولكنى أفلت من بينهما وغادرت الحجرة على الفور ، بينما كان قلبى يصيح وأنا اتركه: « وداعا ! » .. وأضاف « اليأس » الى ذلك قوله : « وداعا .. الى الابد ! »

★ ★ ★

◆ لم يطف بخاطرى فى تلك الليلة اننى بحاجة الى النوم ، ولكنى لم أكد استلقى على فراشى حتى أخذتنى سنة من النوم ، فانتقلت بى الرؤيا الى أيام طفولتى ، وحلمت بأننى راقدة بالغرفة الحمراء فى (جيتسهيد) فى ليلةحالكة الظلام ، وقد استبدت بعقلى مخاوف عجيبة . وانبعث فى المنام ضوء المصباح الذى لاح لى عندما كنت حبيسة تلك الغرفة ـ منذ أمد بعيد ـ فأذكى خوفى وجعلنى أفقد الرشد .. تراءى لى ذلك الضوء وهو ينزلق على الجدران ، ويظل يرتعش ويهتز حتى تركز عـلى السقف المعتم . وتبعته ببصرى فاذا بى أرى السقف يتحول الى سحب عالية داكنة وقد بدا فيها ذلك النور أشبه بالضياء الذى يخلعه القمر على السحب عندما يهم بتمزيق شملها .. ورحت أرقب ظهور القمر .. رحت أترقبه فى لهفة عجيبة وكأن مصيرى سينطبع عـلى قرصه . وسرعان ما برز بمثل ما لم يبرز قمر من قبل من بين السحب :فقد شقت يد طيات الغيوم السوداء وأزاحتها بعيدا ، وبدلا من ان يظهر القمر ، بدا شبح آدمى أبيض يلتمع فى اللون اللازوردى ، فأطل على الارض بطلعة بهية ، وراح يحدق فى ويطيل التحديق ، ثم خاطب روحى بصوت جد بعيد ، ولكنه مع ذلك كان جـد قريب ، فكأنما كان يهمس فى قلبى وهو يقول : « اهربى يا ابنتى من الاغراء ! » .. فهتفت : « سأفعل يا أماه ! »

وكررت هذه الاجابة وأنا أفيق من حلمى الذى كان أشبه باستغراقةروحية. وكان الليل لايزال مرخيا أستاره ، ولكن ليالى شهر يولية قصيرة ، لا تكاد تنتصف حتى يدهمها الفجر . فقلت لنفسى : « ليس الوقت مبكرا ، فلأنهض لاشرع فى المهمة التى يجب ان أؤديها ! » . ومن ثم نهضت ، ولم أكن قـد خلعت من ثيابى غير حذائى . وكان من اليسير على أن أخرج من أدراجى بعض الثياب ، ورصيعتى وخاتمي . وفيما كنت أجمع هذه الاشياء عثرت على عقد

من اللؤلؤ كان مستر روشستر قد أكرهنى على قبوله منذ بضعة أيام ،فتركته لانه لم يكن ملكا لى وان كان ملكا للعروس التى ذابت وتبددت فى الهواء ! .. أما أمتعتى الاخرى فقد حزمتها ، ووضعت كيس نقودى فى جيبى ـ ولم يكن به سوى عشرين شلنا هى كل ماكنت أملك ـ ثم ارتديت قلنسوتى القش وثبتت شالى بالدبابيس الى شعرى ، وحملت حزمة الامتعة و (شبشبى) الذى لم ألبسه من قبل ، ثم تسللت من الحجرة



وهمست وأنا أمر بباب غرفة مدبرة القصر : « وداعا يامسز فيرفاكس الرحيمة !.. ووداعا ياحبيبتى أديل ! » .. واكتفيت بالتطلع الى حجرة الطفلة دون ان أجسر على الدخول لاقبل أديل . وكان بودى ان أمضى فى طريقى دون توقف ـ عندما مررت بحجرة مستر روشستر ـ ولكن قلبى كف عن النبض لحظة عندما بلغت عتبة بابها ، كما سمرت قدماى فى مكانيهما .. لم يكن النوم يعمر تلك الغرفة ، اذ كان ساكنها يذرعها فى قلق وانفعال ، من أحد طرفيها الى الطرف الآخر ، وهو يتنهد بين آونة وأخرى . وأرهفت السمع .. كانت هذه الغرفة خليقة بأن تغدو جنتى لفترة من الزمن اذا شئت .. كل ما كان على ، هو أن ألجها وأقول : « لسوف أحبك يامستر روشستر ، ولسوف أحيا معك حتى الممات ! » ثم يفيض على شفتى الفرح.. هكذا خيل الى !

لقد كان هذا السيد الرحيم ـ الذى لم يقو على النوم ـ ينتظر مطلع النهار بصبر نافد ، كى يرسل فى طلبى اذا ما أقبل الصباح . ولكننى سأكون قد رحلت .. ولسوف يبحث عنى سدى ، ثم يشعر بأننى هجرته ونبذت حبه ، فيتعذب ويتملكه اليأس .. فكرت فى هذا كله أيضا ، ثم امتدت يدى الى



وتهالكت على عتبة الباب المبتلة .. (ص ٧٨)

قفل باب السلم ففتحته ، ثم تسللت ٠٠ وهبطت الدرج فى اكتئاب ٠ وكنت أدرك ماينبغى عمله ، ومن ثم رحت أتصرف بطريقة آلية ، فبحثت عن مفتاح الباب الجانبى فى المطبخ ، كما بحثت عن قارورة زيت وريشة فدهنت المفتاح والقفل بالزيت ، وتناولت بعض المـاء والخبز خشية ان يطول بى المسير وتفاديا لخور القوى الذى أصبح ينتابنى كثيرا فى الفترة الاخيرة ٠ ثم فتحت الباب وخرجت وأغلقته خلفى ٠ ولاحت اذ ذاك تباشيرالفجر معتمة فى الفناء ٠ وكانت الابواب الخارجية مغلقة بالمفاتيح ، ولكن كوة فى أحدها كانت موصدة بالمزلاج فقط ، فتسللت خلالهـا ، ثم أغلقتها خلفى هى الاخرى ٠ ٠ وغـدوت خارج (ثورنفيلد) !

وكان ثمة طريق - على بعد ميل من الحقول - يمتد فى الاتجاه المضـاد لميلكوت ٠٠ طريق لم أكن قد سلكته من قبل ، ولكنى شاهدته مرارا دون أن أعرف الى أين كان يفضى ، فيممت شطره ، وانطلقت فيـه ، لا أنظر الى ما خلفى ولا الى ما أمامى ، ولا أتجه بخواطرى نحو الماضى ولا نحو المستقبل، فقدكان الاول صفحة سماوية البهاء ولكنها محفوفة بالاسى ، يكفى أنأطالع سطرا واحدا من سطورها لتذوب شجاعتى وتنهار عزيمتى ٠٠ ولان الثـانى كان صفحة مروعة أشبه بالدنيا التى أغرقها الطوفان وأزالها من الوجود !

وسرت فى محاذاة الحقول وأسوار المزارع والطرقات الضيقة الى مابعـد طلوع الشمس ٠ وأغلب الظن أنه كان صباحا جميلا من أيام الصيف ،وكنت أدرك ان الندى لن يلبث ان يبلل حذاءى اللذين لبستهما عندما غادرت القصر ٠٠ ولم أتطلع الى الشمس المشرقة أو الى السماء الباسمة أو الى الطبيعـة المستيقظة ، فان من يقاد الى المقصلة عبر منظر جميل لايفكر فى الزهور التى تبتسم فى طريقه ، وانما يتركز تفكيره فى النطع وحافة البلطة وتمزيق العظام والشرايين وفى القبر الذى يستقبله فى النهاية !٠٠ وكذلك كنت أنا الاخرى أفكر فى هروبى البغيض ، وفيما كنت مقبلة عليه من تشرد ٠٠ كما فكرت فيه ٠٠ فى مستر روشستر !٠٠ وتصورته فى غرفته يرقب مطلع الشمس ويعلل النفس بالآمال ، متوقعا أن أعود اليه لاخبره بأننى سوف أحيا معه وأكون له ٠٠ آه ، كم كنت أتلهف على أن أكون له ، وأتحرق على ان أعود اليه !٠٠ ان الفرصة لم تكن قد ضاعت بعد وكان فى وسعى أن أكفيه مرارة الحزن واللوعة !٠٠ واذ كنت واثقة من ان أحدا لم يفطن الى فرارى ، فقد كان من الميسور أن أرتد لاكون له الانيسة ، ولأكون المرأة التى يفخر بها ، ولانقذه من البؤس والشقاء ، وربما من الهلاك !

وكان هجره لنفسه انكى من هجرى له ، فكيف أغرتنى نفسى بذلك الذى اذا فكرت فيه شعرت بسهم شـائك فى صدرى يمزق قلبى كلمـا حاولت

انتزاعه ، ويزيدنى ضعفا ومرضا كلما ساقته الذكريات الى أبعد من ذلك ٠٠ وكانت الطيور قد بدأت تغرد على الايكات والاجمات ، فخيل الى أنها مخلصة، كل آلف لاليفه ، بل انها رموز الحب ، أما أنا فماذا كنت ؟ ٠٠ لقد أبغضت نفسى وسط الآلام التى كانت تجتاح قلبى ، والمبادىء والمثل التى كنت اجاهد من أجلها ٠٠ لم يكن ثمة عزاء لى بعد أن جرحت سيدى وآذيته ثم هجرته ٠٠ بل اننى غدوت بغيضة فى عينى نفسى ! ولكننى لم أكن أقوى على النكوص والرجوع الى الخلف خطوة واحدة ، بل كان لابد من ان أسير قدما فى الطريق الذى رسمه لى الله ٠٠ أما ارادتى وضميرى فان الحزن الدافق داس الاول وكبت الثانى ٠ ثم أخذت دموعى تنهمر بشدة وانا أسير فى الطريق الموحش بسرعة مطردة كمن اختبل عقلها أو مسها الذهول ، الى أن غشينى ضعف لم يلبث ان امتد الى أطرافى واستبد بى فسقطت ٠٠ وظللت مستلقية على الارض بضع دقائق وأنا أضغط وجهى فى الحشائش المبتلة ،وبى خشية أو رغبة فى الموت فى ذلك المكان ٠ ولكننى لم ألبث أن نهضت وزحفت على يدى وركبتى ، ثم استويت على قدمى وقد عزمت فى اصرار أن أصل الى الطريق الذى كنت اجتاز الحقول سعيا اليه

وعندما بلغته ، اضطررت الى الجلوس لاستريح تحت سياج نباتى ، على اننى لم ألبث أن سمعت وقع عجلات ، ثم رأيت عربة قادمة ، فوقفت ورفعت يدى فتوقفت العربة عن السير ٠ وسألت الى أين هى ذاهبة ، فذكر لى الحوذى مكانا بعيدا حدست أن ليس لمستر روشستر علاقة به ٠ واذ سألت الحوذى عن الاجر الذى يريده ليقلنى الى هناك ، قال انه ثلاثون شلنا ٠ ٠ فقلت اننى لم أكن أملك سوى عشرين شلنا ، واذ ذاك قال انه يكتفى بها ، وسمح لى بدخول العربة التى كانت خالية ٠ ثم اغلق بابها ، ومضى فى طريقه

أيها القارىء الكريم ، ادع الله أن يجنبك ماكنت أشعر به ، وأن لاتذرف عيناك قط ما ذرفت عيناى من دموع مدرارة ، لاذعة تعتصر القلب ، وان لا تلجأ اليه سبحانه فى صلواتك وأنت تعانى ماكنت أعانى اذ ذاك من يأس، وان لا تكون مثلى أداة نقمة وشر لمن تحب بكل روحك !

*

الفصل الثامن والعشرون



• **انقضى** يومان ، وحلت أمسية من أمسيات الصيف ٠٠ وكان الحوذى قد أنزلنى فى مكان يدعى (هويتكروس) ،لانه لم يشـــأ ان يقلنى بالمبلغ الذى دفعته الى أبعـــد من ذلك ، ولم أكن أمتلك من دنياى شلنا واحـــدا فوق ذلك المبلغ ٠٠ وكانت العربة قدابتعدت ميلا وخلفتنىوحيدة ، عندما اكتشفت اننى نسيت ان أتناول من جيب العربة الحزمة التى أودعتهـا كل حاجاتى ، والتىكنت قد وضعتها فى الجيب بغيةالاطمئنان على سلامتها !٠٠ لقد بقيت حيث أودعتها ، وكان لابد من ان تبقى لاصبح معدمة مجردة من كل شىء !

وليست (هويتكروس) بمدينة ، بل ولا هى بقرية ،وانما هى مجرد عمود حجرى أقيم عند ملتقى أربع طرق ، وقد طلى باللون الابيض ليبدو بوضوح على بعد ، وفى الظلام ، عـــلى ما أعتقد !٠٠ وتمتد من قمة العمود أربع أذرع تشير الىأقرب المواقع على الطرق الاربع ٠٠ وكانت أقرب بلدة تشير اليها ـ كما فهمت مما كتب عليها ـ تبعـد بحوالى عشرة أميال ، فى حين أن أبعدها كانت على بعد يزيد عـلى عشرين ميلا ٠ ومن

أسماء هذه المدن ـ وكانت مشهورة ـ عرفت المقاطعة التى هبطتها • وكانت من مقاطعات الشمال الاوسط ، تسود أرضها المستنقعات ، ويقوم على حافتها جبل كان من السهل ان أراه •• وكانت المستنقعات الواسعة تمتد من خلفى وعلى جانبى •• أما فيما أمامى ، فقد كان ثمة واد منخفض ، بدت خلفه سلسلة من الجبال !•• ولابد ان سكان الاقليم كانوا قلة ، فلم يلح لى أى عابر فى الطرق التي كانت تمتد ـ شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ـ بيضاء ، واسعة ، مقفرة ، وقدشقت جميعا وسط المستنقعات ، ونمت الاعشاب وأعواد الغاب كثيفة ، طويلة ، على جانبيها

ومع ذلك فقد كان من المحتمل ان تسوق المصادفة عابر سبيل ، ولم تكن بى رغبة فى أن ترانى عين ، خشية ان يعجب الاغراب مما حدا بى الى التسكع هكذا عند دليل الطرقات بلا هدف أو غرض ، وقد يسألنى أحد فلا أستطيع ان أجيب الا باضطراب يثير الريب والشكوك ، بعد ان أصبحت ولا شيء يربطنى بالمجتمع الانساني •• اذ لم يعد ثمة سحر أو رجاء يدفعنى الى حيث يقيم البشر • وما كان من المحتمل ان تساور أى امرىء يراني فكرة كريمة أو شعور يجعله يرجو لى خيرا • واذ لم يكن لى من أهل سوى الطبيعة ـ أم الكون ـ فقد عولت على أن ألجأ الى صدرها أنشد فوقه الراحة !

ورحت أضرب فى تلك الاجمات (أراضى المستنقعات) ، ثم يممت شطر حفرة رأيتها تشق جانبا داكنا • ومضيت أخوض حتى ركبتى فى حشائشها الحالكة ، وأدور مع منعرجاتها ، حتى عثرت فى ركن خفى على صخرة شامخة من الجرانيت يعلوها طحلب اسود ، فجلست تحتها ومن حولى آجام عالية ، بينما كانت الصخرة تحمي رأسى ، والسماء من فوقها •• وانقضت فترة قبل أن أشعر بالهدوء حتى فى ذلك المكان • فقد كان يساورني خوف غامض من أن تكون الى جوارى دابة

برية ، أو أن يكتشف وجودى صياد ٠٠ وكنت أرفع رأسى كلما هبت الريح ، اذ أخال هبوبها ثورا مندفعا نحوى ، وكلما صاح طائر توهمته رجلا ، حتى اذا أيقنت أن مخاوفى لا أساس لها ، وحتى اذا هدأ جأشى بفضل السكون العميق الذى ساد عندما أخذ الليل فى الهبوط ، اطمأنت نفسى ٠ وكنت الى تلك اللحظة لا أفكر فى شىء ، وانما اكتفيت بأن أصغى وأرقب والخوف يساورنى ٠ أما عندما اطمأننت فقد عاودتنى القدرة على التفكير والتأمل فتساءلت : « ما العمل ؟ والى أين أذهب ؟ »

أواه ! ٠٠ ماكان أقسى هذين السؤالين ، فى وقت لم أكن أستطيع فيه ان أعمل شيئا أو أذهب الى مكان ما ٠٠ فى وقت كان لابد لى فيه من أن أقطع مسافة طويلة على قدمى الكليلتين المرتعشتين قبل أن أصل الى مكان آهل بالبشر ٠٠ فى وقت كان يجب ان أضرع فيه وألحف فى طلب الاحسان حتى أحظى بمأوى ٠٠ لم يكن ثمة شك فى انني سأحتاج الى اللجاجة والالحاح لاكتساب عطف المستريبين قبل أن تجد قصتى من يستمع اليها ، وقبل أن تلقى حاجتى من يخف لقضائها !

★ ★ ★

• **وتحسست** الحشائش فوجدتها جافة ولكنها دافئة بحرارة الصيف ٠ وتطلعت الى السماء فوجدتها صافية الاديم وقد التمع نجم حان فوق حافة الهوة ، وتساقط الندى فى نعومة لطيفة ٠٠ ولم تكن هناك نسمة واحدة ، فخيل الى أن الطبيعة رحيمة طيبة القلب ، وحسبتها قد أشفقت على ، لانها تحبنى وتهوانى ـ أنا المنبوذة المشردة التى لا تتوقع من الانسان سوى الشك والنبذ والاهانة ـ فتعلقت بالطبيعة تعلق الطفلة بأمها الرؤوم ، وعولت على أن أنزل عليها ضيفة فى هذه الليلة على الاقل ، كما لو كنت ابنتها ـ فان الأم خليقة بأن ترحب

بابنتها ـ ومن ثم فلن تطالبنى بأجر الايواء ٠٠ ولم يكن قد تبقى معى سوى كسرة من الخبز ٠٠ فضلة من رغيف كنت قد اشتريته من مدينة مررت بها فى الظهر بآخر بنس كان معى ٠ ولكنى شاهدت ثمرا ناضجا كالكرز ، يلتمع هنا وهناك خلال الآجام كأنه حبات المسابح ، فجمعت منه حفنة أكلتها بالخبز ، وبذلك خففت حدة جوعى وان لم يتم اشباعه ٠ ثم أديت صلاة المساء ، وأخذت أبحث عن مكان آخر أرقد فيه ٠٠ وكانت الاعشاب كثيفة بجانب الصخرة ، فدفنت فيها قدمى عندما رقدت ، وحال ارتفاع عيدانها على الجانبين دون أن يغزونى هواء الليل ، ثم ألقيت شالى مزدوجا على جسمى واتخذت منه غطاء ، كما جمعت بعض العشب فتوسدته ٠ وهكذا رقدت دون أن أشعر فى البداية ـ على الاقل ـ بأى برد !

وكان من الممكن ان تكون راحتى تامة ناعمة ، لولا ان الآلام كانت تهرأ قلبى الدامى الذى ظل ينتفض اشفاقا على سيدى وعلى ما أصابه من مصير ، وينتحب من أجله فى رحمة ورثاء ، ويتلهف عليه مثل طائر مكسور الجناح يحاول عبثا ان يهتدى الى عشه ٠ واذ أمضتنى هذه الافكار المضنية ، جثوت على ركبتى وقد بلغ الليل عنفوانه وارتفعت الكواكب فى كبد السماء ٠٠ كانت الليلة تمتاز بسكون ساج ، صاف ، لا مجال معه لخوف! **٠٠ ونحن نعلم ان الله فى كل مكان ، ولكن وجوده ـ سبحانه ـ يتجلى على صورة أتم عندما تتبدى آياته الجليلة لاعيننا ٠٠ وفى تلك الليلة الصحوة ، التى كانت عجلة الكون تواصل فيها دورانها فى صمت هادئ ، تجلت لى لانهائية الله سبحانه ، وقدرته الشاملة ، ووجوده فى كل مكان ٠ ومن ثم رحت أصلى من أجل مستر روشستر وأنا جاثية على ركبتى ٠** ورفعت عينى المغرورقتين بالدموع ، فرأيت البياض المضئ المتألق الذى يسميه الفلكيون « المجرة » ٠ واذ تذكرت أوصافه وعدد الاجرام التي تشق الفضاء في وميض خاطف ، أيقنت

بعظمة الله وقدرته على حفظ مخلوقاته ، وازداد اقتناعى بأن لا هـــلاك للارض ، ولا لروح من الارواح التى تعمرهــا ، الا بارادته سبحانه ، ومن ثم حولت صلاتى الى شكر له ٠٠ ان منبع الحياة هو أيضا مخلص الارواح ومنقذها !٠٠ وأوحت لى هذه الفكرة بطمأنينة الى أن مستر روشستر كان فى أمان ، لانه من مخلوقات الله ، فلابد من ان يحرسه الله

وعدت أرقد فى حضن الصخرة ، فما لبث النوم انأنسانى همومى وأحزانى ٠ ولكن العوز والحاجة والمسغبة عاودتنى فى اليوم التالى ٠٠ وكانت العصافير قد غادرت أعشاشها ، وخرج النحل يسعى فى صدر النهار البديع ليجمع الرحيق قبل ان يجف الندى ، والصباح قد جمـــع ظلاله فملأ ضياء الشمس الارض والسماء ، عندما نهضت ورحت أتأمل ما حولى ٠٠وكم كان اليوم دافئا بديعا !٠٠ وما كان أجمل الآجام المترامية ،اذ بدت ــ تحت الشمس الســـابغة ــ كصحراء ذهبية ، فهفت نفسى الى العيش فيها وعليها ٠٠ ورأيت سحلية تجرى عـــلى صخرة ، ونحلة منهمكة بين الـــكرز اللذيذ ، فتمنيت لو كنت سحلية أو نحلة لأضمنالغذاء الطيب والمأوى الدائم فى ذاكالمكان! **٠٠ ولكننى كنت من البشر ، وبى حاجـة البشر ومطالبهم ، ومن ثم لم يكن من سبيل الى أن يطول مكثى فى مكان لا قضاء فيه لتلك الحاجات والمطالب ٠ ونظرت خلفى الى الفراش الذى غادرته ٠٠ وكنت يائسة من المســتقبل ، فتمنيت لو ان الله كان قد استل حياتى أثناء نومى فخلص جســـدى المضنى ، الواهن ، من الصراع الذى كان يرتقبه مـــع القدر ، وتركه يتحلل فى سكينة ويمتزج فى سلام بتربة هذه الفلاة ٠ ولكن الحياة كانت تدب فى كيانى بمطالبها وآلامها وتبعاتهـا ، فلم يكن بد من ان أقضى تلك المطــالب ، وأحتمـــل تلك الآلام ، وأؤدى تلك التبعـــات** ٠٠ ومن ثم سرت فى طريقى ، فبلغت (هويتكروس) ٠٠ وواصلت السير فى الطريق الممتدة نحـو

الشمس المشرقة ، الحامية ، التى كانت تتربع السماء ٠وسرت طويلا على غير هدى حتى اذا حسبتنى قد قطعت مافيه الكفاية، ونال منى التعب وأمضنى ، آثرت ان أستريح ، فجلست على حجر رأيته على مقربة ، ورضخت بلا مقاومه الى الجمود الذى أربك قلبى وشل أطرافى ٠ واذا بى أسمع جرسا يدق ٠٠ جرس كنيسة !

واستدرت الى ناحية الصوت ، فاذا بين التلال الرائعه ـ التى كففت عن ملاحظة صورها ومشاهدها المتعددة منذ ساعة ـ كوخ ومنارة تشبه المسلة ٠ والى يمينى ، كان الوادى كله مليئا بالمراعى وحقول القمح والغابات ، وقد انساب مجرى مؤتلق متعرج خلال ظلال هذه الخضرة السابحة فى ضياء الشمس ٠ وذكرنى ضجيج عجلات بالطريق الذى أمامى ، فشاهدت عربة قطار مثقلة تصعد التل فى جهد شديد ، وعلى مقربة منها ، رأيت بقرتين وراعيهما ، فأدركت اننى قريبة من الحياة البشرية والعمل البشرى ، واننى يجب أن أناضل وأكافح فى سبيل العيش كغيرى من البشر !

* * *

• ودخلت القرية حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ،فرأيت فى نهاية شارعها الوحيد حانوتا صغيرا عرض فى واجهته بعض الخبز ، فتحرقت شوقا الى رغيف منه استعيد به بعض نشاطى وقوتى ٠ فقد بات من المتعذر آن أمضى فى سبيلى دون قوت ٠ وعاودتنى الرغبة فى قسط من القوة والحيوية بمجرد ان وجدتنى بين مخلوقات بشرية مثلى ٠ ورأيت ان من المهانة ان يغمى على وأنا فى طريقى الى الكوخ ، ولو اننى كنت أمتلك شيئا لما ترددت فى أن آخذ بثمنه رغيفا من هذه الارغفة ٠ وكان معى منديل من الحرير ـ ألفه حول عنقى ـ ثم قفازى ، ولم أكن أدرى ماذا يصنع الناس فى وقت الضيق والعوز ، وأى هذين الشيئين يقبلهما صاحب الحانوت ٠٠ بل لعله يرفض

الاثنين ٠٠ ولكنى قررت ان أجرب فى النهـاية !٠٠ ومن ثم دخلت الحانوت فوجدت به امرأة ظننتنى - لثيابى - انسـانة محترمة ، فتقدمت تستقبلنى بحفاوة ٠ واستبد بى الخجل ، وانعقد لسانى فلم أستطع النطق بما أعـددته من رجاء ٠ ولم أجرؤ على أن أقدم لها القفاز البالى أو المنديل المتغضن ، حتى لا تستسخفنى ، فاكتفيت بأن رجوتها ان تأذن لى بالجلوس لحظة لاتخفف من تعبى ٠ واذ خاب أملها فى ان أبتاع منهـا شيئا ، قبلت طلبى ببرود وأشارت الى مقعد غصت فيـه ، وكدت أبكى لولا اننى استنكرت هذه الظاهرة فى غير أوانها ، فحبست دموعى ٠ وما لبثت ان سألتها عما اذا كان فى القرية حائكة أو امرأة تشتغل بالتطريز ، فقالت :

- نعم ٠ توجد اثنتان أو ثلاث ، هن كل ما تتطلبه الحاجة!

وفكرت هنيهة ٠٠ كنت مسوقة الى عمل ، فقد وجدتنى أمام الحاجة وجها لوجه ، وأصبحت فى موقف من لا مورد لها ولا صديق وبلا نقود !٠٠ كان لابد لى من ان أعمل ، ولكن ٠٠ أى عمل ؟٠٠ يجب أن أبحث ، ولـكن ٠٠ أين ؟٠٠ وسـألت السيدة :

- هل تعرفين مكانا قريبا يحتاجون فيه الى خادمة ؟

- كلا ٠ لا أستطيع الجزم

- ما هى أهم المهن فى هـذا المكان ؟٠٠ ماذا يعمـل معظم الناس ؟

- بعضهم مزارعون ، وكثير يعملون فى مصنع مستر أوليفر لانتاج الابر ، وفى المسبك

- وهل يستخدم مستر أوليفر نساء ؟

- كلا ٠٠ انه يستخدم الرجال

- وبماذا تشتغل النساء ؟

وأجابت بأنها لم تكن تدرى ٠٠ وبدا انها سئمت أسئلتى ٠٠ وأى حق كان لى - فى الواقع - فى هـذا الالحاف ؟٠٠

وما لبث ان أقبل رجل أو اثنان من الجيران ، فأصبح مقعدى مطلوبا • ومن ثم استأذنت فى الانصراف ، وسرت فى الطريق أنظر يمنة ويسرة الى المنازل • ولكنى لم أستطع ان أكتشف حجة أو حقا يخول لى دخول منزل منها ، فواصلت السير أتلكأ حول القرية ـ أبتعد عنها قليلا لاعود اليها ، وهكذا ـ نحو ساعة أو أكثر ، حتى نال منى الارهاق وأمضنى الجوع ، فاتجهت الى حارة جانبية ، وجلست تحت سياج من النباتات• وقبل ان تنقضى بضع دقائق ، انتصبت على قدمى مرة أخرى، لابحث عن شيء •• عن معين أو على الاقل عمن يرشدنى الى من يعينني !•• ورأيت فى طرف الحارة منزلا صغيرا جميلا ،أمامه حديقة نظيفة مزهرة ، فتقدمت ووقفت عنده أتساءل : ما الذى يبيح لى ان أقترب من بابه الابيض وألمس مقبضه اللامع ؟•• وكيف يتلقى سكانه مقدمى ؟•• ورغم ذلك اقتربت وطرقت الباب ، ففتحته شابة مليحة الوجه والهندام • وسألتها بصوت ينبعث من قلب يائس وجسم أنهكته الآلام حتى كاد يغمى عليه: « هل تريدون خادمة ؟ » فأجابت : « كلا •• لسنا نستعين بخدم »

ـ هل بوسعك ان ترشدينى الى مكان أجد فيه عملا ؟••



اننى غريبه بلا معارف هنا ، وفى حاجة الى أى عمل
ولكنها لم تكن ميالة الى أن تفكر من أجلى أو تبحث لى عن مكان . وكان من الطبيعى ان تبدو لهـا شخصيتى ووضعى محوطين بالشك . لذلك هزت رأسها معربة عن آسفها لانهـا لا تملك أن تمدنى بمعلومات فى هذا الصدد . ثم أغلقت الباب الابيض فى رفق بالغ وتأدب ، فكأنما أغلقت بذلك باب الدنيا فى عينى .. ولو انها أبقت الباب مفتوحا لبضـع لحظات أخرى ، لاستجديتها كسرة من الخبز ، اذ كانت كبريائى قد تهاوت من عليائهـا !.. ولم أكن أطيق ان أعود الى القـرية الجاحدة ، حيث لم يلح لى رجاء فى مساعدة ، فآثرت ان أمضى الى غابة غير بعيدة ، جذبنى اليها ظلها الوارف . ولكنى كنت غاية فى الضعف والوهن ، كما أن غريزتى كانت تردنى الى التجوال حول البقعة المعمورة ، حيث يحتمل ان تسنح فرصة الحصول على طعام ، فما كان ليهدأ لى بال أو يقر لى قرار مادام الجوع ـ ذلك النسر الكاسر ـ يغرس منقـاره ومخالبه فى أحشائى !.. لذلك اقتربت من المسـاكن ، ثم باعدت بينى وبينها ، لارتد اليها مرة أخرى ، ثم همت على وجهى مبتعدة ، وفى أعماقى شـعور ينتهرنى قائلا ان لا حق لى فى أن أطالب بشىء ، أو أتوقع أى اشفاق فى هـذه المنطقة المنعزلة . وكان المساء يقترب ـ فى تلك الاثناء ـ وأنا أهيم ككلب ضال برح به الجوع !.. وفيما كنت أجتاز أحد الحقول ، شاهدت برج كنيسة أمامى ، فأسرعت نحوه . ووجدت بالقرب من فنـاء الكنيسة ـ ووسط حديقة ـ منزلا صغيرا ولكنه حسن البناء ، فادركت انه مسكن القس . وتذكرت أن الاغراب الذين يحلون فى مكان لا معارف لهم فيه لينشدوا عملا ، يلجأون أحيانا الى القس ليوصى بهم ويسـاعدهم . واذ كانت مهمـة القس ان يساعد ـ ولو بالنصح ـ فقد رأيت من حقى ان أنشد هـذا النصح ، ومن ثم استجمعت شتات قواى الخائرة ، وسعيت الى

المنزل فطرقت باب مطبخه .. وفتحت الباب امرأة عجوز سألتها عما اذا كان ذلك بيت القس ، فقالت : « نعم »

– وهل القس هنا ؟

واذ أجابت بالنفى، عدت أسألها : «وهل سيعود قريبا ؟» ، فقالت : « كلا ، لقد رحل » ، فسألتها : « أ الى بعيد ؟ »

– ليس بعيدا جدا .. لعله على مسيرة أميال ثلاثة ، فقد استدعى لوفاة والده فى (مارش اند) ، حيث يحتمل ان يبقى أسبوعين آخرين !

– هل توجد ربة للبيت ؟

– كلا .. لايوجد غيرى .. مدبرة المنزل

ولم أطق – أيها القارىء – أن أسألها أن تنتشلنى من الضيق الذى كنت غارقة فى لجته ، ولم أشأ أن أستجدى فعدت أزحف من حيث أتيت ، وأخرجت منديلى من جديد .. ومرة أخرى فكرت فى أرغفة الخبز فى ذلك الحانوت الصغير .. آه ، أنى لى ولو ببعض الفتات !.. ولو بلقمة تهدىء من آلام هذا الجوع !.. ولم ألبث ان يممت بغريزتى شطر القرية ، حيث وجدت الحانوت مرة أخرى فدخلته ، ووجدت أشخاصا مع المرأة ، ولكنى تجرأت وتوسلت اليها قائلة : « هل تعطيننى رغيفا فى مقابل هذا المنديل ؟ »

فنظرت الى فى شك باد ، ثم قالت : « كلا فلست اشترى الاشياء بهذه الطريقة قط ! » .. وكدت أيأس ، فطلبت منها نصف رغيف ، ولكنها رفضت مرة أخرى قائلة : « كيف لى أن أعلم من أين حصلت على هذا المنديل؟ » .. فسألتها ضارعة: « هل تأخذين قفازى ؟ » ، ولكنها قالت : « كلا . ماذا أصنع بهما ؟ »

وليس من دواعى السرور – أيها القارىء – ان أورد هذه التفاصيل ، وقد يرى بعض الناس ان هناك متعة فى ذكر المحن المؤلمة التى تقضت ، ولكنى لا أحتمل اليوم ان أستعيد

ذكرى الاوقات آلتى ألمح اليها ، فان مافيهـا من هوان يمتزج بالعناء الجثمانى فتتألف منهما ذكريات أليمة لا أحب التفكير فيها ٠ ولم أنح باللائمة على أحد من هؤلاء الذين نهرونى ، بل خيل الى ان هذا هو عين ماكان يجب ان أتوقع دون أن يكون لى فى الامر حيلة ، فان المتسول العـادى يكون دوما عرضـة للشكوك مهما يكن هندامه حسنا ٠ والواقع اننى لم أكن أسأل احسانا ، وانما كنت أنشد عملا ، ولـكن ٠٠ من الذى يعنى بأن يقـدم لى عملا ؟٠٠ ما كان لى ـ بطبيعة الامر ـ أن أرجـو ذلك ممن كانوا يروننى لاول مرة ، فليسوا يعرفون عن أخلاقى شيئا ٠ ولقد كانت المرأة على حق فى رفضها ان تتقبل منديلى فى مقابل خبزها ، فربما رابها أمرى ، أو لعلها رأت المقايضة غير مربحة ٠٠ ومن ثم أوجز الآن فى الحـديث لاننى سئمت الموضوع

★ ★ ★

◆ **وقبيل** الغروب ، مررت بمنزل فى مزرعة ، وقد جلس فى بابه المفتوح فلاح يتناول عشاء من الخبز والجبن ،فتوقفت أمامه وقلت : « هل لك ان تعطينى كسرة من الخبز لاننى جائعة جدا ؟ » ٠٠ فرمقنى الرجل فى دهشة ، ولكنه قطع شريحـة



كبيرة من رغيفه أعطانيها دون أن ينطق بحرف · وأغلب الظن انه لم يتصورني متسولة ، وانما حسبني سيدة غريبة الاطوار، استهواها رغيفه الاسمر !·· وما ان ابتعدت عن منزله ،حتى جلست ألتهم الشريحة

ولم يكن يساورني أى رجاء فى الحصول على مأوى تحت أحد السقوف ، فالتجأت الى الغابه التى أشرت اليها من قبل، ولكن ليلتى كانت شقاء ، وراحتى لم تتوفر ، اذ كانت الارض مبللة والهواء باردا ، فضلا عن مرور المتطفلين بى أكثر من مرة، مما كان يضطرني الى تغيير مرقدى دون ان يلازمني شعور بالسلامه والطمأنينه · وأمطرت السماء قبيل الصباح ، واستمر المطر يهطل طوال النهار التالى · ولا تسألنى أيها القارىء أن أسرد عليك تفاصيل ذلك اليوم بدقة ، فقد بحثت عن عمل كما حدث فى اليوم الذى سبقه ، وقوبلت بالجفاء والنفور من جديد ، حتى أشرفت على الموت جوعا ، اذ أننى لم أذق طعاما فى ذلك اليوم الا مرة واحدة · **فقد مررت بفتاة عند باب كوخ ، تهم بالقاء بقية من ثريد بارد أمام خنزير فسألتها : « هل لك ان تعطيني هذا ؟ » ·· فحملقت فى وجهى وصاحت : « أماه ! توجد امرأة تريد ان أعطيها هذا الثريد ! » ·· فأجابها صوت من الداخل : « حسنا ياصبية ·· اعطيها اياه اذا كانت متسولة ، لان الخنزير لايريده ! »**

ومن ثم أفرغت الفتاة ذلك العفن المتيبس فى راحتى ، فسرعان ما التهمته فى نهم ·

وعندما اعتكر ضياء الغسق ، توقفت عن السير فى طريق لراكبى الخيل منعزل ، كنت أتعقبه منذ أكثر من ساعة ، ثم قلت أناجى نفسى : « آن قواى تتخلى عنى ، وأشعر بأن ليس فى وسعى المضى الى أبعد من ذلك ، فهل سأنبذ هذه الليلة أيضا ؟·· وهل لابد من آن أتوسد الارض الباردة المبتلة ، بينما تنهمر الامطار بهذا الشكل ؟·· ما أرى أمامى سوى هذا،

اذ من يقبل ايوائى ؟ .. ولكنه آمر مروع نظرا لجوعى وضعفى وبرودتى وعزلتى ، وهذا الامل المتقوض ، فليس بمستبعد ان ألفظ آخر أنفاسى قبل ان يطلع الصباح .. ولكن لماذا لا أوطن النفس على الموت ؟ .. ولماذا أناضل للاحتفاظ بحياتى التافهة ؟ .. **الواقع اننى كنت أشعر — بل أوقن — بأن مستر روشستر حى يرزق ، واذن فالموت من الاملاق والبرد مصير لا تقبله الطبيعة باستكانة واستسلام . أواه ، أيتها العناية الالهية أمدينى بقوتك .. عاونينى واهدينى سواء السبيل !**

وراحت عيناى المحملقتان تجوبان فى أنحاء الارض المعتمة التى تعلوها السحب ، ووجدتنى قد نأيت عن القرية بحيث غابت عنى معالمها ، ولم يعد بينى وبين التل غير بضعة حقول قليلة ، فآثرت الموت هنالك على الموت فى شارع تطرقه المارة .. بل آثرت أن تنهش الغربان لحمى — اذا وجدت غربان فى تلك الانحاء — على آن أسجن فى كفن وأدفن فى مقابر المتسولين !

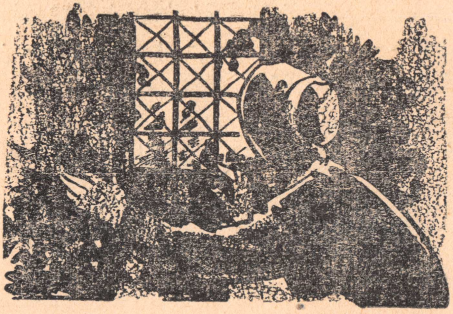
وما لبثت ان يممت شطر التل حتى بلغته ، وبقى فقط ان أبحث عن حفرة أرقد فيها وأشعر بأننى مختبئة فيهـا عن الانظار ، ان لم أكن فى أمان وسلام . ولكن الارض كلها كانت مستوية ، ولا تختلف بقاعها الا فى اللون ، فهى خضراء — بسبب الطحلب والحشائش النامية — فى البطاح والمستنقعات ، أو سوداء حيث لا تحمل التربة الجافة سوى الجدب والموت . واشتدت الظلمة شيئا فشيئا ، ولكننى كنت لا أزال أتبين ذلك الاختلاف فى اللون ، وان بدا كتعاقب الظلال والاضواء ، لان اللون الحقيقى انمحى مع نور النهار

وظلت عيناى تحومان فوق المرتفعات الكئيبة وحافة الآجام ، ثم تهيم نظراتهما وسط ذلك المنظر الموحش ، الى أن ظهر ضياء فجأة ، كنقطة بعيدة بين البطاح والحواف ، ففكرت أول ما فكرت فى أن ذلك نوع من السراب ، وتوقعت ان يتلاشى على الفور . ولكنه ظل متقدا فى ثبات واستقرار ، دون ان يتضاءل أو

يتزايد ، فتساءلت : « أهى نار أشعلت على التو ؟ » ٠٠ وترقبت لاتبين ما اذا كانت ستشتد ٠ ولكنها لم تقو ، كما انها لم تتضاءل ، فحدست انها ربما كانت مصباحا فى منزل٠ ولكن ، فيم يهمنى آمرها وليس فى وسعى ان أصل اليها - اذا صح حدسى - لانها كانت جد بعيدة ؟٠٠ بل ما نفعها اذاكانت على ياردة واحدة من مكانى ، مادمت آنف ان أطرق بابها حتى لايغلق فى وجهى ؟٠٠ وتهالكت فى البقعة التى كنت آقف عليها ، وأخفيت وجهى فى الارض ، ورقدت فترة فى هدوء وسكون ٠ وكانت الرياح تهب فوق التل وفوقى ، ثم يتلاشى أنينها بعيدا ٠ وأخذت الامطار تهطل بسرعة فتبللنى من جديد وتنفذ الى جلدى ، فلم يسعنى سوى ان أجمد فى ذلك الصقيع الذى خلت انه برودة الموت تسرى فى جسدى ٠٠ وما كان ينبغى آن أتأذى منها ، ولكن الجسد الحى ما لبث ان رآح يرتعش تحت وخزها ، فما لبثت ان نهضت

* * *

• **وكان** الضوء لايزال يشع هناك وباستمرار ، خلال المطر، فحاولت السير مرة أخرى ، ورحت أجر قدمى العليلتين فى بطء نحوه ، فاذا بى أتجه الى أعلى التل خلال مستنقع واسع كان الخوض فيه مستحيلا فى الشتاء ، بل فى هذه الآونة ، اذ كنا فى منتصف الصيف !٠٠ وسقطت مرتين ، ولكنى نهضت واستجمعت قواى ، لان هذا الضوء كان الامل الذى أستقتل فى سبيله ولابد من آن أبلغه !٠٠ فلما عبرت المستنقع ، شاهدت أثرا لبياض فوق الآجام ، فسرت اليه ، واذا به طريق يصعد الى النور الذى كان يضىء من خلال ثغرة وسط مجموعة من أشجار الشربين على ما لاح لى وسط الظلام٠ واختفى (نجمى) عندما اقتربت منه ، لان عقبة حالت بينى وبينه فحجبته عن عينى ٠ ولكننى بسطت يدى أتلمس طريقى



فى الظلمة التى كانت أمامى ، الى أن وصلت الى سور من أحجار خشنة ، فواصلت تلمسى الى أن رأيت مرة أخرى شيئا أبيض يلتمع أمام عينى ٠٠ وكان هذا الشىء بابا لمستهفتحرك على مفاصله ، فاذا خلفه ـ على كل من الجانبين ـ أيكة قاتمة اللون من أشجار السدر ٠٠ ونفذت خلال ذلك الباب وسرت بين الحشائش ، فرأيت شبح منزل اسود منخفض ، طويل ، ولكني لم أر أثرا للنور الهادىء حولى ، بل كان الظلام مسيطرا ٠ ترى هل هجع سكان الدار ؟٠٠ ووجف قلبى لهذه الفكرة ٠ وفيما كنت أبحث عن باب المبنى ، انثنيت حول زاوية ، فسطع أمامي الضوء الصديق مرة أخرى خلال زجاج نافذة صغيرة ترتفع قدما عن الارض وتبدو أصغر من حجمها الحقيقى ، اذ كانت تحيط بها النباتات الزاحفة كالعليق وغيره

وكان الداخل محجوبا ، فأزحت ستار النباتات المتسلقة عن النافذة ، واذ ذاك تجلى المشهد أمامى ، فرأيت حجرة فرشت ارضها بالرمال ، وبها منضدة وبعض مقاعد ٠ وكان المصباح الذى أرشدنى يسطع فوق المنضدة فشاهدت على ضوئه امرأة طاعنة فى السن ، خشنة المظهر ، ولكنها غاية فى النظافة ككل

شيء حولها ، وقد جلست ترفو جوربا .. وكانت النظرة التى ألقيتها على هذه الاشياء سطحية ، اذ لم يكن بينها شاذ أو غير عادى . ولكن منظرا آخر استرعى انتباهى .. **كانت ثمة شابتان بجانب المدفأة ، وسط السكينة الوردية والدفء الغامر .. وكانتا سيدتين فى كل شيء ، وقد جلست احداهما على مقعد متأرجح خفيض ، والاخرى على مقعد أكثر انخفاضا ، ودون مساند .. وكانتا فى ثياب الحداد التى زاد سوادها من تألق وجهيهما ونحريهما ، وقد اعتمد كلب كبير - من كلاب الصيد - برأسه الضخم على ركبة احدى الفتاتين ، بينما استكانت فى حجر الاخرى قطة سوداء !**

ماكان أغربه من مكان هذا المطبخ المتواضع ، اذا قيس بمظهر ساكناته !.. ترى من تكون الشابتان ؟ ما كان من المحتمل أن تكونا ابنتى هذه المرأة الجالسة بجانب المائدة ، لانها كانت خشنة جافة ، فى حين أنهما كانتا رقيقتين مهذبتين . والحق اننى لم أر مثل وجهيهما من قبل . ولست أملك أن أصفهما بالجمال الفاتن لانهما كانتا شديدتى الامتقاع والرزانة . . وعندما كانت الواحدة منهما تنحنى على كتابها ، كانت آيات التفكير العميق الحاد تتجلى على أساريرها . وكان بينهما قائم يحمل شمعة أخرى ، ومجلدين ضخمين طالما رجعتا اليهما ، وكأنهما تقارنان بينهما وبين الكتابين الصغيرين اللذين كانا فى أيديهما كما يرجع الناس عادة الى القاموس ليعاونهم على مهمة الترجمة . وكان مشهدا ساكنا ، فبدا الاشخاص كالاشباح ، وبدت الحجرة السابحة فى أضواء الموقد أشبه بالصورة الرائعة .. أجل ، كانت الحجرة فى صمت شامل ، حتى اننى سمعت تساقط الرماد خلال شبكة المدفأة ، ودقات الساعة فى الركن المظلم ، بل لقد خيل لى اننى سمعت ارتطام الابر فى يدى المرأة العجوز !..وأخيرا ، هتك حجاب الصمت صوت تناهى لاذنى ، اذ قالت احدى الفتاتين المنهمكتين لرفيقتها : « اسمعى ياديانا ..

ان فرانز ودانيال الشيخ يقضيان الليل معا ، فيروى فرانز حلما استيقظ منه مضطربا ٠٠ اصغى ! » ثم قرأت شيئا بصوت خافت لم أدرك منه كلمة واحدة لانه كان بلغة يونانية أو المانية حتى اذا فرغت من قراءتها قالت : « هذا أسلوب قوى لا أستسيغه ! »

وكانت الفتاة الاخرى قد رفعت رأسها لتصغى الى أختها ، فكررت سطرا مما قرىء وهى تحملق فى نار المدفأة ٠ ولقد عرفت فيما بعد تلك اللغة وذلك الكتاب ، ومع ذلك فاننى لم أفهم معنى لذلك السطر الذى هبط على رأسى أشبه بطرقة على نحاس رنان ٠٠ أجل ، كان كالرنين الاجوف الذى لامعنى له ٠ ثم هتفت الفتاة وعيناها السوداوان العميقتان تأتلقان : حسن !٠٠ حسن !٠٠ اننى استسيغه ! » وران عليهما الصمت مرة أخرى الى أن قطعته العجوز وقد رفعت عينيها عن شغل الابرة :

ـ هل توجد بلاد يتحدثون فيها بمثل هذه اللغة ؟

ـ نعم ياحنه ٠٠ بلاد أكبر كثيرا من انجلترا ، لايتكلمون فيها غير هذه اللغة

ـ الواقع اننى لا ادرى كيف يفهم بعضهم بعضا ٠ فهل اذا ذهبت احداكما الى تلك البلاد استطاعت أن تدرك مايقولون ؟

ـ لعلنا نعرف بعض مايقولون وليس كله ، لاننا لانتكلم الالمانية ولا نستطيع أن نقرأها بغير الاستعانة بقاموس !

ـ وأية فائدة ترجوانها ؟

ـ نرجو أن نتولى تدريسها ٠٠ أو أن نعلم على الاقل مبادئها ـ كما يقولون ـ وعندئذ نحصل على أكثر مما نربحه الآن !

ـ حسنا ٠ كفى درسا هذه الليلة !

ـ أظننا كذلك ٠٠ اننى ـ من ناحيتى ـ متعبة ، وانت ياماري ؟

ــ كل التعب ، فانه من الصعب ان نرهق أنفسنا فى لغة لا تقدر عليها غير المعاجم !

ــ هو ذلك ، لاسيما اذا كانت كهذه اللغة الألمانية المعقدة ، وان كانت رائعة ٠ ترى متى سيعود سانت جون ؟

فقالت وهى تتطلع الى ساعة ذهبية صغيرة أخرجتها من حزامها : « سيعود بعد قليل ، ونحن الآن فى تمام العاشرة ، والمطر ينهمر غزيرا سريعا ياحنة ٠ هل لك أن تطمئنى الى اشتعال النار فى غرفة الجلوس ؟ » ٠٠ فنهضت المرأة وفتحت بابا رأيت من خلاله ممرا ، ثم مالبثت أن سمعتها تقلب نارا فى غرفة داخلية وتعود على الفور لتقول : « أواه ياصغيرتى !٠٠ لكم يمضنى ان أذهب الآن الى تلك الغرفة التى تبدو موحشة بالمقعد الخاوى المودع فى أحد الاركان ! » ٠٠ ومسحت عينيها بمرولتها ، كما تبدى الحزن على الفتاتين الرزينتين،واستطردت حنه تقول :

ــ ولكنه انتقل الى مكان أفضل ، ولسنا نرجو له أن يعود الى هنا ، فما أظن أحدا حظى بأهدأ من ميتته !

فسألتها احدى السيدتين : « تقولين انه لم يذكرنا ؟ »

ــ لم يكن لديه متسع من الوقت لذلك ، فان المنية عاجلته٠٠ كان يعانى بعض التوعك الذى أصابه فى الليلة السابقة دون أن نهتم كثيرا بالامر ٠ ولما سأله أخوكما مستر « سانت جون » عما اذا كنا نرسل فى طلب احداكما ، اكتفى بأن ضحك منه ٠ ثم أصيب فى اليوم التالى بثقل في رأسه ٠٠ كان ذلك منذ أسبوعين تماما ، ثم مضى لينام فلم يستيقظ الى الابد !٠٠ وعندما دخل عليه أخوكما وجده جثة هامدة ٠ آواه ياطفلتى!٠٠ هكذا انتهى الرجل الكهل بمثل ماذهبت أمكما من قبل ٠ انك صورة طبق الاصل منها ياماري ٠٠ أما أنت ياديانا فتشبهين والدك !

ولكننى كنت أراهما جد متشابهتين ، فلم أدر من أين جاءت

الخادمة العجوز بهذا الفارق بينهما فى حين ان كلا منهما كانت جميلة المحيا ، نحيفة القوام ، ترتسم على وجهها آيات الفطنة والذكاء ، وان كان شعر احداهن أحلك قليلا من شعر الاخرى ويختلف فى طريقة تصفيفه ، فمارى ذات خصلات سوداء مفروقة معقوصة ، بينما كانت جدائل ديانا - الاحلك لونا - تنسدل محواة على عنقها !

* * *

• **ودقت** الساعة العاشرة فقالت حنة : « أعتقد أنكما ترغبان فى تناول العشاء ، وكذلك سيفعل مستر سانت جون بمجرد عودته ! » .. ثم تقدمت لتعد العشاء ، فنهضت السيدتان ، ولاح انهما تهمان بالانتقال الى حجرة الجلوس . وكنت الى تلك اللحظة أرقبهما فى اهتمام وقد استهوانى منظرهما وحديثهما ، حتى كدت أنسى موقفى التعس ، ولكن سرعان ماعاودتنى الآلام ورأيت كيف تناقض حالتى البائسة اليائسة حالتهما ، وأدركت كيف يستحيل ان أجعل سيدتى هذا المنزل تهتمان بأمرى وأحملهما على تصديق حاجتى وويلاتى وأغريهما بأن تريحانى من عناء التشرد . وعندما تحسست طريقى الى الباب وطرقته فى تردد ، شعرت بأن الامل الاخير لايعدو أن يكون وهما باطلا. وفتحت حنه الباب ، فلما رأتنى على ضوء الشمعة التى تحملها، سألتنى فى صوت مشدوه : « ماذا تريدين ؟ » فأجبتها : « هل أستطيع التحدث الى سيدتيك ؟ »

- يحسن أن تخبرينى بما تريدينه منهما . من أين جئت ؟

قلت : « آننى غريبة ! » ، فأجابت متسائلة : « وماذا تريدين فى مثل هذه الساعة ؟ »

- أريد أن أبيت ليلتى فى حجرة خارجية أو فى أى مكان وأريد كسرة من الخبز

وبدأ الاحساس بالشك - الذى كنت أخشاه - يظهر على

وجه حنه ، فقالت بعد صمت قصير : « سـأعطيك كسرة من الخبز ولكننا لانستطيع أن نؤوى غريبة » . فهتفت ضارعة : « ألا دعينى أتحدث الى سيدتيك ! »

ـ كلا .. فما الذى تصنعانه لك ؟ .. ماكان يجمل ان تتجولى الآن على هذه الصورة التى لاتليق اطلاقا

ـ ولكن أين أذهب اذا طردتنى ؟ ماذا أصنع ؟

ـ انك أدرى بلا شك بالمكان الذى تذهبين اليـه ، وبمـا تصنعينه ! .. انما حذار من الاقدام على أى شر . خذى هـذا البنس واذهبى !

ـ ان البنس لايستطيع ان يطعمنى ، ولا قوة لى على السـير أكثر من هذا . لاتغلقى الباب .. اواه لاتغلقيه بالله عليك !

ـ بل يجب ان أفعل لان المطر ينهمر

ـ اخبرى السيدتين . دعينى ألقاهما !

ـ كلا لن أفعل . لانك لست أهلا للقائهما، والا ما أحدثت هذه الجلبة . اذهبى من هنا !

ـ ولكنى أموت اذا طردتنى

ـ لا ضير عليك ! .. أخشى ان تكون لك أغراض شريرة ،هى التى تجعلك تحومين حول بيوت الناس فى مثل هذا الوقت من الليل ، فاذا كان ثمة رفاق لك من اللصـوص أو من اليهـم يتربصون على مقربة ، فخير لك أن تخبريهم بأننا لسنا وحيدات فى البيت ، بل ان معنا سيدا ، ولدينا كلاب وبنادق

وهنا أوصدت الخادم الامينة ـ التى لم يلن لى قلبها ـ باب المنزل وأحكمت الرتاج . وكانت هذه هى الطامـة الكبرى ، فجاش الالم فى قلبى ومزقه بعد أن استبد بى اليأس والقنوط . **وبلغ بى الاعياء أن غدوت لا أقوى على التحرك خطـوة واحـدة فتهالكت على عتبة الباب المبتلة ، أتوجع وأعتصر يدى وأبكى فى ألم ممض .** أواه .. هذا شبح الموت ! .. أواه ، هذه ساعتى الاخيرة تدنو رهيبة مروعة ! .. واأسفاه على هذه العزلة ، وهذا البعد

عن أبناء جنسى !٠٠ ولم تزايلنى فقط (مرساة) الامل ، وانما تلاشت كذلك (قاعدة) الجلد والثبات ، لحظة على الاقل ، سارعت بعدها أحاول استعادة آخر بارقة من الرجاء وصحت : « لا معدى من الموت ! اننى أومن بالله فلأنتظر ارادته فى سكون وهدوء ! »

ولم تمر هذه الكلمات بخاطرى فحسب ، ولكننى نطقت بها، ثم كتمت شقائى فى قلبى ، وحاولت اكراهه على البقاء هنالك فى صمت وسكون ٠ وارتفع اذ ذاك صوت قريب يقول : «لابد للناس جميعا من الموت ، ولكنهم جميعا ليسوا مسوقين لان يلقوا مثل هذا المصير البطىء السابق للاوان ، والذى يمكن ان تلقيه أنت اذا هلكت هنا من الاملاق ! »

فارتجفت للصوت الذى لم آكن اتوقعه ، وسألت : « من أو ماذا يتكلم ؟ » ٠٠ وكنت عاجزة عن توقع أى أمل فى مساعدة، ولكننى رأيت شبحا اسود كظلام الليل ، وعجز نظرى ــ الذى ضعف ــ عن تبينه ، ثم طرق الوافد الجديد الباب طرقا عاليا طويلا : فصاحت حنه : « أهذا انت يامستر سانت جون ؟ »

ــ نعم ٠ نعم ٠ افتحى بسرعة !

ــ لاشك آنك تقاسى البلل والبرودة فى مثل هذه الليلة الموحشة ٠ آدخل فان اختيك فى غاية من القلق عليك٠٠ وأعتقد ان فى هذه البقعة قوما من الاشرار ، فقد جاءت متسولة ٠٠ انها لم تذهب بعد فهاهى ذى ترقد هنا ! قومى ! يا للعار !٠٠ اذهبى من هنا !

ــ صه ياحنه فلدى ما أقوله لهذه المرأة ٠ لقد قمت بواجبك بطردها ، فدعينى أقوم بواجبى بادخالها ، فقد كنت على مقربة وسمعت كل ماداز بينكما من حديث ، وأعتقد أن هذه حادثة غير عادية تحتاج الى أن أدرسها ٠ انهضى ياشابة وتقدمينى الى المنزل !

فأطعته فى عناء ، وما لبثت أن وجدتنى داخل المطبخ النظيف

المشرق أرتجف ، وقد أخذ رأسى يدور ، ومن حولى مشهد فى الخارج غاية فى الوحشة وقد عصفت به الطبيعة ، بينما كانت السيدتان وأخوهما يحملقون فى . ثم سمعت من يسأله : «من هذه الفتاة ياسانت جون ؟ »

– لا أدرى . لقد وجدتها عند الباب !

وقالت حنة : « انها تبدو شاحبة »

– شاحبة كالصلصال أو كالموت ، وتكاد تهوى من الاعياء فدعيها تجلس

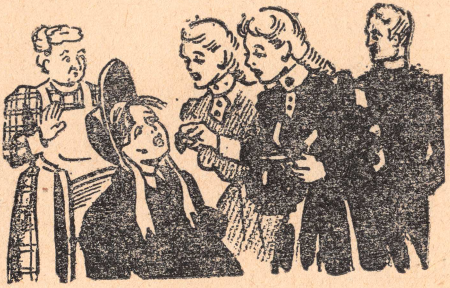
★ ★ ★

◆ **والواقع** ان رأسى كان يسبح ، وسقطت ليتلقفنى أحد المقاعد . وكنت لا ازال مستجمعة حواسى ، وأن عجزت عن الكلام اذ ذاك فقال الشاب : « لعل جرعة من الماء تعيد اليها قواها ياحنه ، فائتيها ببعض المياه . ولكنها منهوكة غاية الانهاك ، وغاية فى الهزال والامتقاع ! »

– انها مجرد شبح !

– هل هى مريضة أو هو الجوع برح بها فحسب !

– أظنها تتضور جوعا . هل هذا لبن ياحنه؟ .. هاتيه وهاتى كسرة من الخبز



أما ديانا – التى عرفتها بجدائلها الطويلة آنتى حجبت عنى المدفأة –عندما انحنت على– فقد قطعت شريحة من الخبز غمستها فى اللبن ووضعتها فى فمى • وكان وجهها قريبا منى فشاهدت عليه آيات الرثاء كما لمست حنانها فى أنفاسها الراكضة • وقالت لى بكلمات بسيطة تشف عن نفس العواطف : « حاولى ان تأكلى ! » •• ورددت مارى الرجاء فى رفق قائلة : « أجل ، حاولى ! » •• ثم رفعت قلنسوتى المبللة كما رفعت رأسى ، فتناولت ماقدم الى فى ضعف ثم فى لهفة • وقال أخوها : « لاتعطيها كثيرا فى البداية ، فقد تناولت مافيه الكفاية ! » •• ثم سحب فنجان اللبن وطبق الخبز ، ولكنها قالت : « بل اعطها مزيدا ياسانت جون • انظر الى الشراهة المتجلية فى عينيها ! » •• فقال : « يكفى الآن ماتناولته يا أختاه • جربى ما اذا كانت تقوى على الكلام ، اسأليها عن اسمها » ••

وشعرت بأننى أستطيع الكلام فقلت : « ان اسمى : جين اليوت ! » • فقد انتحلت هذا الاسم حرصا منى على ألا يكتشف أحد حقيقتى

– وأين تقيمين ؟•• أين أصدقاؤك ؟

ولزمت الصمت ، فعاد يسألنى : « هل فى الوسع أن نرسل فى طلب واحد من معارفك ؟ » ••ولكننى هززت رأسى ، فقال: « ماذا لديك من القول عن نفسك ؟ »

وشعرت بأننى وقد عبرت عتبة هذه الدار ، وأصبحت مع أصحابها وجها لوجه ، لم أعد المنبوذة الشريدة التي تنكرت لها الدنيا • ولذلك جرؤت فخلعت عني ثوب المتسولة المستجدية، واستعدت أطوارى وأخلاقى الطبيعية ، وبدأت أعرف نفسى مرة أخرى • فلما سألنى مستر « سانت جون » أن أروى قصتى – التى كان ضعفى اذ ذاك يحول دون روايتها – أجبته بعدفترة وجيزة : « لست أقوى الليلة على ذكر التفاصيل ياسيدى » • فقال: « وما الذى تتوقعين منى أن أعمله من أجلك ؟ » •فأجبت :

« لاشيء ! »

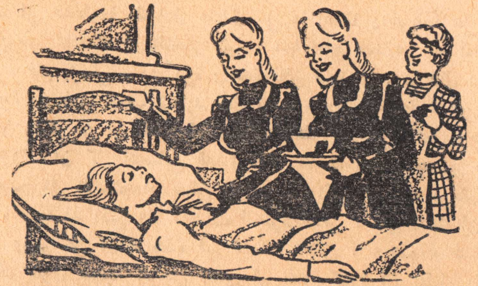
وكانت قوتى لاتكفى لغير الاجابات المقتضبة فقالت ديانا : « أتعنين اننا قدمنا لك كل ماكنت تحتاجين اليه من معونة ، وأن فى وسعنا أن نبعث بك الآن الى الآجام والليل المطير ؟ »٠٠

فتطلعت اليها ٠ واذا هى ــ كما بدت لى ــ ذات محيا عجيب يتميز بالقوة والطيبة ، فتشجعت فجأة ، وأجبت عن نظرتها الحنون بابتسامة ، شفعتها بقولى : « سأضع فيك ثقتى ٠٠ لو اننى كنت كلبة ضالة بلا صاحب ، ماطردتنى من منزلك الليلة !٠٠ لست خائفة ، فافعلى ماشئت بى ولاجلى ، ولكننى أسألك الصفح اذا عجزت عن الكلام الطويل ، اذ ان أنفاسى قصيرة وأشعر عند الحديث بتشنج يضايقنى »

وران السكون على الثلاثة ٠٠ وأخيرا قال مستر سانتجون: « دعيها ياحنة تجلس هنالك الآن ولا تلقى عليها اسئلة ٠ وبعد عشر دقائق اعطيها بقية الخبز واللبن ٠ هيا بنا ياماری وأنت ياديانا الى غرفة الجلوس لنتحدث فى الامر » ٠٠ ثم انسحبوا ، وسرعان ماعادت احدى السيدتين ــ ولم أدر أيتهما ، اذ كنت فى شبه غيبوبة لذيذة ، وأنا جالسة بجوار النار البهيجة ــ فألقت على حنه بعض تعليماتها بصوت خافت ، وما لبثت ان أرتقيت الدرج بمعاونة الخادمة الى حيث خلعت ثيابى المبللة ٠٠ وتلقفنى فراش دافىء جاف ، فشكرت الله وقد غمرنى ــ وسط الانهاك الشديد ــ ضياء الفرحة الشاكرة ، ثم نمت !

*

الفصل التاسع والعشرون



◆ ان ذكرى حوالى ثلاثة أيام وليالى ـ بعد ذلك ـ تقبع مبهمة فى ذهنى .. وبوسعى أن أذكر بعض الاحاسيس التى خامرتنى فى تلك الفتـــرة ، ولكننى لا أذكر من الافكار الواضحة المعالم الا قليلا ، كما اننى لم أقم بعمل ما !.. وكنت أدرك اننى فى حجرة صغيرة وسرير ضيق..وخيل الى اننى كنت أكبرمن ذلك السرير ، وقد رقدت عليه دون ماحراك ، وكأننى تحولت الى صخر . وكان انتزاعى منه يعنى قتلى . ولم أفطن الى مرور الزمن .. لم أكن أعى تطورالصباح الى ظهيرة ، ولا تحول الظهر الى مساء ، ولكننى كنت أشعر بأهل الدار عندما كانوا يدخلون الغرفة أو يغادرونها ، بل كان فى وسعى أن أميز شخصياتهم ، وان افهم ما كانوا يقـولون اذا وقف المتكلم على مقـربة منى ، ولـكنى لم أكن أستطيع أن أجيب .. كان انفراج شفتى أو تحريك أطرافى ضربا من المستحيل. وكانت « حنه » ـ الخادم ـ أكثر أهل البيت ترددا على غرفتى ، فكان مقدمهـا يزعجنى ، اذ كنت أشعر بأنها راغبة فى اقصائى ، وانها لم تفهمنى ولا قدرت ظروفى ، ومن ثم كانت متحاملة على . اما ديانا ومارى فكانتا تأتيان الى حجرتى مـرة أو اثنتـين فى كل يوم ، فتتهامســان بجـانب فراشى ، بمثـل مايلى من عبارات :

« لقد احسنا كثيرا بايوائها ! » .. « نعم والا عثر عليها فى الصباح جثـة هامدة بجوار الباب ، لو انها تركت فى الخارج طوال الليل . ترى أى عنـاء قاسته ؟ » .. « لابد انها قاست متاعب عجيبة فيما أعتقد ، فيالها من مشردة بائسـة هزيلة شاحبـة ! » .. « أغلب الظن انهـا متعلمـة كمـا يبـدو من تصرفاتها وحديثها . فان لهجتهـا جد مهذبة ، وملابسها التي خلعتهـا جميلة ،

وليست بالية تماما ، وان كانت ملوثة بالطين ومبللة » .. « ان لوجهها طابعا فذا ، رغم انه هزيل منهوك ، وبوسعى أن أتصورها ذات سحنة مقبولة بمجرد أن تسترد صحتا وتنتعش »

ولم ألمس قط فى حديثهما المتبادل مايدل على ما اغدقا واخوهما على من كرم الوفادة ، أو مايوحى بالشك أو النفور منى ، مما أثلج صدرى .. أما مستر « سانت جون » ، فلم يزرنى سوى مرة واحدة نظر فيها الى ، ثم قال ان سباتى العميق كان نتيجة رد فعل لتعب شديد طال أمده . وان لاحاجة تدعو الى دعوة طبيب ، لانه كان واثقا من أن الطبيعة سوف تتكفل بى على أكمل وجه اذا تركت لحالى ، وأكد ان كل أعصابى قد أرهقت بحيث أصبح جميع جهازى العصبى فى حاجة الى الاستجمام بعض الوقت ، وانني لست مريضة على الاطلاق . وقال انه يعتقد انني اذا مابدأت أسترد قوتى ، فلن ألبث أن أستكمل شفائى سريعا . وعبر عن آرائه هذه فى كلمات قلائل ، وبصوت خافت ، ثم توقف لحظة وعاد يقول بلهجة الرجل الذى لم يعتد كثيرا أن يطيل التعليق : « ان لوجهها سحنة لاتكاد تكون عادية ، ولكنها ليست بكل تأكيد على شيء من الابتذال أو الخسة »

فأجابته ديانا : « حقا .. ولا أكتمك أن قلبى يحنو على هذه الصغيرة البائسة ، وبودى لو نقوى على مساعدتها مساعدة دائمة » .. وكان رده : « ليس ذلك محتملا ، وسوف تجدين انها سيدة شابة وقع بينها وبين أهلها سوء تفاهم ، فغادرتهم فى تهور ، وقد نوفق فى أن نعيدها اليهم مالم تكن عنيدة ، ولكنى أقرأ على وجهها سطورا تدل على القوة مما يجعلنى أوقن من دماثة أخلاقها » .. ثم استرسل يقول : « انها تبدو عاقلة ولكنها ليست جميلة ! »

– انها غاية فى المرض ياسانت جون

– مريضة أو غير مريضة فستظل امرأة غير جميلة ، اذ ينقص أساريرها الدقة والتناسق

★ ★ ★

وفى اليوم الثالث تحسنت حالتى ، وفى الرابع استطعت الكلام والتحرك فى فراشى ، والجلوس فيه ، والتقلب فى أرجائه . وجاءتنى حنه ببعض الحساء والخبز المحمص لغدائى فيما أعتقد ، فأكلت بشهية . وكان طعاما جيدا خاليا من ذلك الطعم المحموم الذى كان يسمم ماكنت ابتلعه من قبل . وعندما غادرتنى ، أحسست بقوة ونشاط نسبيين ، ثم لم ألبث بعد قليل أن شعرت بميل الى التحرك ومغادرة الفراش ، ولكن ماذا ارتدى ؟ .. لم يكن لدى سوى ملابسى المبللة القذرة ، فشعرت بالخجل من ان أظهر أمام من أحسنوا الى بهذه الثياب .

ولكنهم وفروا على هذا الشعور المهين ، اذ وجدت ثيابى كلها نظيفة وجافة على مقعد بجوار الفراش ، بينما كان فستانى الحريرى الاسود معلقا الى الجدار وقد أزيلت عنه أقذار المستنقع ، وسويت التغضنات التى كانت به فبدا لطيفا كل اللطف .. حتى حذائى وجوربى نظفت بحيث أصبحت لائقة . وكذلك أعدت فى حجرتى وسائل الاغتسال ، وزودت بمشط وفرشاة للشعر ، فما لبثت بعد عناء والتماس للراحة فى كل خمس دقائق ، أن تمكنت من ارتداء ملابسى التى تهدلت على كتفى بسبب ما أصابنى من هزال ، ولكنى سترت هذا العيب بشالى ، وهكذا استعدت مظهرى النظيف المحترم ، وتخلصت من الاقذار التى علقت بى ، ومن الفوضى التى أكرهها بطبيعتى وأشعر بأنها تحط من قدرى ، ثم هبطت الدرج الحجرى زاحفة ، وأنا أستعين بالدرابزين حتى بلغت ردهة ضيقة خفيضة السقف ، وسرعان ما وجدت طريقى الى المطبخ . فاذا به يعبق بعبير الخبز الطازج ، وقد أفعم بدفء نار مستعرة

وكانت حنة تخبز . ومن المعروف ان النفور والتحامل يصعب اقتلاعهما من القلب الذى لم يخصب التعليم تربته ، اذ ان جذورهما تتغلغل هنالك قوية كالاعشاب التى تنمو بين الاحجار . وقد كانت حنة باردة جافة معى فى أول الامر ولكنها بدأت أخيرا ترق بعض الشيء ، فلما رأتنى أدخل عليها فى ثياب نظيفة مهندمة ، ابتسمت وقالت : « ماذا ؟! .. هل نهضت من فراشك ؟.. اذن فأنت أحسن حالا ، وفى وسعك اذا أردت أن تجلسى فى مقعدى بجانب المدفأة » .. واشارت الى المقعد المتأرجح ، فجلست فيه ، بينما انهمكت هى فى عملها ، وهى ترمقنى من طرف خفى بين وقت وآخر ، ثم تناولت بعض أرغفة من الفرن واستدارت الى تسألنى فى جفوة وغلاظة : « هل كنت تتسولين قبل أن تأتى الى هنا ؟ » .. فتولانى الغيظ لحظة ، ولكنى سرعان ماتذكرت ان الغضب لايجدى ، واننى فعلا كنت أبدو كالمتسولة ، فأجبتها فى هدوء لايخلو من بعض الحزم :

ـ انك تخطئين اذا حسبتنى متسولة ، فأنا أبعد عن التسول بعدك وبعد سيدتيك عنه

فسكتت لحظة ثم قالت : « لست أفهم .. ألست بلا دار ولا نحاس ؟ »

ـ ان الحاجة الى الدار والنحاس ـ واظنك تعنين به المال ـ لاتكفى لان تجعل الانسان متسولا كما تعنى كلماتك

فسألتنى على الفور : « أمتعلمة أنت ؟ » . فأجبت : « أجل ، والى درجة كبيرة »

ـ هل دخلت مدرسة داخلية ؟

ـ نعم ، وقضيت بها ثمانى سنوات

فاتسعت عيناها وقالت : « اذن فلماذا لاتستطيعين اعالة نفسك ؟ »

ـ لقد كنت أعول نفسي وسأعولها مرة أخرى

ولما أخرجت سلة من الكرز قلت : «ماالذى تعتزمين صنعه بهذه الفاكهة؟ » ، فأجابت : « فطائر ! » .. فقلت : « هاتيها لاعنى باقصاء الثمار غير الطيبة ». واذ أجابت : « كلا .. لا أريد أن تعملى شيئا » ، قلت لها : « بل يجب أن أقوم بعمل ما . هاتى الفاكهة ! »

وقبلت ، فجاءتنى بمنشفة نظيفة نشرتها على ثوبى حتى لايتسخ ، وهى تقول: « أرى من يديك انك لم تمارسى أعمال الخدم من قبل . فهل كنت تمارسين الحياكة ؟ »

ـ كلا .. لقد أخطأت الحدس . لاتهتمى بما كنته ، ولا تشغلى بالك بى ولكن ما اسم المنزل الذى نحن به ؟

ـ بعضهم يسميه (مارش اند) والبعض الآخر يسميه (مور هاوس)

ـ والسيد الذى يقيم هنا .. أيدعى مستر سانت جون ؟

ـ لا ، انه لايقيم هنا ، ولكنه جاء لبعض الوقت . أما مقامه ففى أبرشيته بمورتون

ـ تلك القرية التى تبعد بضعة أميال عن هنا ؟

واذ قالت : « نعم » ، عدت أسألها : « وماذا يعمل ؟ » ، فاجابت : « انه قس ».. وتذكرت رد مدبرة المنزل العجوز فى بيت راعى الكنيسة ، عندما طلبت اليها أن أقابل القسيس ، فقلت : « اذن فهذا بيت أبيه ؟ »

ـ نعم كان مستر ريفرز الشيخ يقيم هنا ، ومن قبله والده وجده وجده الاكبر

ـ اذن فاسم هذا السيد هو مستر سانت جون ريفرز ؟

ـ نعم . ويبدو ان « سانت جون » اسمه عند التعميد

ـ وهل تدعى شقيقتاه ديانا ومارى ريفرز ؟

وأجابت : « هو ذلك » . فعدت أسألها : « وهل توفى أبوهم ؟ » ، فقالت: « منذ ثلاثة أسابيع » . واذ ذاك سألتها : « أو ليست لهم أم ؟ » ، فاجابت: « لقد توفيت منذ سنوات »

ـ وهل قضيت مع الاسرة طويلا ؟

ـ قضيت هنا ثلاثين عاما ربيت خلالها الاخوة الثلاثة !

ـ هذا يدل على انك خادم أمينة مخلصة ، وسأفضى اليك بالكثير وان بلغت بك السماجة أن دعوتنى متسولة !

فحملقت فى وجهى مرة أخرى وهى مشدوهة ثم قالت : « أعتقد اننى كنت مخطئة فيما خطر لى عنك ولكن المظاهر خداعة فاعذرينى! » .. ولكننى استأنفت

حديثى بشىء من الحدة والصرامة : « ومع ذلك فقد شئت أن تطرديني عن بابك فى ليلة ما كان ينبغى أن تطردى فيها كلبا من الكلاب »

ـ كانت قسوة منى ، ولكن أى حيلة للانسان فى ذلك وقد كان تفكيرى فى الفتاتين أكثر منه فى نفسى ، اذ ليس هناك من يهتم بهاتين المخلوقتين المسكينتين غيرى ، ولذلك أبدو على شىء من الحدة !

وأخلدت لحظة الى صمت متجهم فقالت : « أرجو أن لاتقسى فى الحكم على! »

ـ بل اننى أقسو ، لا لانك أبيت ايوائى ، أو ظننتنى محتالة ، وانما لانك عيرتنى منذ قليل بأننى لا أملك دارا ولا مالا ، مع ان العالم زاخر بالفقراء والمعوزين ممن هم على شاكلتى . ولو انك كنت تقية لما اعتبرت الفقر جرما !

ـ لن افعل ذلك بعد الآن . وهكذا حدثنى مستر سانت جون ، ولذلك ادركت غلطتى . وقد غيرت الآن فكرتى انى لاراك مخلوقة لطيفة مستقيمة

ـ حسنا . لقد صفحت عنك فصافحينى

فوضعت يدها الخشنة المكسوة بالدقيق فى يدى ، وأشرق وجهها الجاف بابتسامة طيبة ، وصرنا بعد ذلك صديقتين

★ ★ ★

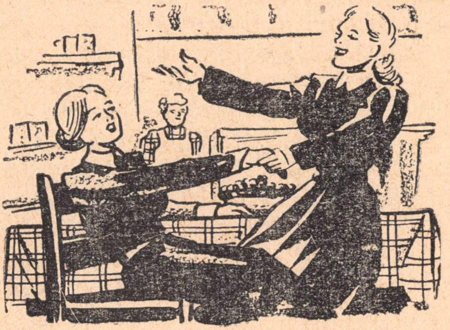
وكان من الجلى أن حنه مغرمة بالكلام والثرثرة ، فلما أخذت أفرز الثمار وانهمكت بدورها فى اعداد العجين للفطائر ، راحت تقص على بالتفصيل كل شىء عن المرحومين سيدها وسيدتها ، وعن الفتاتين .. فقالت ان مستر ريفرز الشيخ كان رجلا بسيطا ، ولكنه سليل من أعرق العائلات ، وان ضيعة (مارش اند) ملك لهم منذ كانت منزلا عتيقا شيدته العائلة منذ مائتى سنة ، ولا يقارن بالبهو الكبير فى قصر مستر « اوليفر » فى (مورتون) . ومع ذلك فقد كان والد « بيل اوليفر » صانع ابر متجول ، فى حين كان آل ريفرز من السادة ملاك الاراضى منذ عهد الملك هنرى ، كما يستطيع كل امرىء أن يرى بنفسه فى سجلات كنيسة (مورتون) . على ان السيد لم يكن يمتاز بغير ولعه الجنونى بالصيد والزراعة وما اليهما ، أما زوجته فكانت على النقيض ، تشغف بالقراءة والاطلاع ، وقد اخذ اولادها عنها ذلك الشغف ، فلم يكن فى تلك الاصقاع ـ ولن يأتى ـ من يفوق ثلاثتهم علما ، اذ كانوا يدرسون منذ نعومة أظفارهم ، وقد اختار كل منهم مستقبله . فلما كبر مستر سانت جون ، تعلم وأصبح كاهنا . أما الفتاتان ، فقد اختارتا عندما أتمتا الدراسة ، أن تصبحا مربيتين ، اذ أخبرتاها بأن أباهما فقد شطرا كبيرا من ثروته منذ سنوات ـ اثر افلاس رجل كان قد ائتمنه على ماله ـ ومن ثم لم يعد فى وسعه أن يخلف لهما ثروة ، فكان عليهما ان تكسبا عيشهما .. ولم تكونا تقيمان فى الدار الا لفترات قليلة ـ منذ زمن ـ وما جاءتا أخيرا الا لتمكثا بضعة أسابيع ، بعد

موت أبيهما ، ولكنهما كانتا تحبان (مارش اند) و (مورتون) والمستنقعات والتلال المحيطة بهما ٠٠ وقد زارتا لندن وغيرها من المدن الكبيرة وان ظلتا تؤكدان ان لاشيء يعدل عندهما مسقط رأسيهما ٠ وهما متحابتان ، فلم يقع بينهما خلاف قط ، ولا تكاد يوجد للاسرة شبيهة في التضامن !

واذ انتهيت من مهمتي في تنقية الكرز ، سألتها عن السيدتين وأخيهما فقالت : « لقد ذهبوا يتمشون الى قرية (مورتون) ، وسيعودون قبل نصف ساعة لتناول الشاى » ٠٠ والواقع انهم حضروا قبل الموعد الذى قدرته حنه ، فدخلوا المنزل من باب المطبخ ٠ ولما رآني مستر سانت جون اكتفى بأن حنى رأسه ثم واصل السير ، اما السيدتان فقد توقفتا ، وأعربت لى مارى عن ابتهاجها لرؤيتي بخير وقادرة على النزول ، بينما تناولت ديانا يدى ثم هزت رأسها وقالت: « كان ينبغي أن تنتظرى حتى اسمح لك بالنزول ، فانك ما زلت شاحبة ناحلة يامسكينة ! »

وكان لها صوت جميل الوقع في أذني ، فكأنه هديل الحمام ، ونظرة أحسست ببهجة كلما التقت بنظرتي ، ووجه ملء بالسحر في عيني ٠ وكذلك كانت أسارير مارى تنم عن نفس الذكاء والجمال ، ولكنها كانت تبدو أكثر تحفظا ، كما كان حديثها يتسم بحب السيطرة والسلطان ، ويدل على مضاء العزيمة ٠ وكنت أجد بطبيعتي راحة في الخضوع لمثل هذا النفوذ ، وفي ان أنثني للارادة الماضية ، فيما يسمح به ضميري وترضى عنه كرامتي ٠

واسترسلت ديانا تقول : « وماذا تفعلين هنا ؟ ليس هذا مكانك ٠٠ انني ومارى نجلس في المطبخ احيانا ، لاننا نحب ونحن في المنزل أن نتحرر وألا نتقيد بشيء ، ولكنك زائرة فيجب ان تذهبى الى غرفة الجلوس » ٠ فقلت :



« بل انني مغتبطة هنا » ، ولكنها قالت : « لاغبطة على الاطلاق مع صخب حنة ودقيقها الذى يتناثر عليك ! » • وتدخلت مارى فى الحديث قائلة : « ثم ان النيران هنا أشد من ان تحتمليها » ، فأردفت اختها تخاطبني : « بالتأكيد • هيا ، وكوني مطيعة ! »

وانهضتني وهى مازالت ممسكة بيدى ، فقادتنى الى الغرفة الداخلية ، حيث اجلستني على أريكة وقالت : « امكثى هنا ريثما نخلع ثيابنا ونعد الشاى فانه ليحلو لنا ونحن فى دارنا هذه ان نهيىء وجباتنا بأنفسنا عندما نحب ، أو عندما تكون حنة مشغولة بالخبز أو بصنع الجعة أو الغسيل أو الكى ! » •• ثم أغلقت الباب لتتركنى وحيدة مع مستر سانت جون الذى كان يجلس فى مواجهتى منصرفا الى كتاب أو صحيفة كانت فى يده ، فرحت فى أول الامر اتأمل الحجرة ثم أخذت أتأمل شاغلها :

كانت حجرة الجلوس صغيرة بسيطة الرياش ، ولكنها نظيفة أنيقة بمقاعدها القديمة اللامعة ، ومنضدة من خشب الجوز أشبه بالمرآة المصقولة ، وبضع صور عجيبة عتيقة لرجال ونساء من الزمن السالف ، وصوان ذى ابواب زجاجية يحتوى على بعض الكتب وطاقم قديم من الخزف • ولم أر فى الحجرة زينة لاداعى لها ، ولا شيئا من الرياش الحديث سوى صندوقين ومكتب نسوى خشب الورد ، قام بجانب منضدة بجوار الحائط • وهكذا كان كل شىء فى الغرفة - بما فى ذلك البساط والستائر - ينم لاول وهلة عن حسن التنسيق والاختيار •

وكان مستر سانت جون ساكنا فى جلسته سكون الصور المعلقة الى الجدران ، وقد تسمرت عيناه على الصفحة التى كان يطالعها ، وأطبقت شفتاه ، مما مكنى من تفحصه بسهولة • ولو انه كان تمثالا وليس انسانا لكانت مهمتى أسهل وأيسر : كان شابا بين الثامنة والعشرين والثلاثين ، طويل القامة ، نحيل الجسم يجتذب وجهه النظر لانه كان يشبه الوجه الاغريقى فى نقائه وصفائه وانفه المستقيم • كما كان له فم وذقن من أثينا • والواقع انه قل أن تجد وجها انجليزيا أقرب من وجهه الى النماذج القديمة • ومن ثم فقد كان على حق حين صدم لعدم تناسق أساريرى وهو على هذه الملاحة • اذ كانت عيناه واسعتين زرقاوين ، وكانت أهدابه سوداء ، وكان جبينه كالعاج تتدلى عليه خصلات من شعره الجميل فى اهمال •• أليس هذا رسما دقيقا لمعالمه ، أيها القارىء؟ •• ولكن ، من الذى لايؤثر - بأوصاف كهذه - فى نفس أوتيت مثل طبيعة رقيقة طيعة سهلة القياد على جانب كبير من الوداعة ؟! وبالرغم من هدوئه فى جلسته ، فقد كان ثمة شىء حول خياشيمه وفمه وجبينه يدل - فيما بدا لى - على معالم توحى بالقلق ، أوضبط النفس ، والتلهف •• ولكنه لم يوجه الى كلمة أو

نظرة واحدة ، حتى عادت شقيقتاه • وجاءتنى ديانا بكعكة صغيرة خبزت على ظهر الفرن ، وهى تقول :

- كلى هذه الآن لانك جائعة بلا شك ، فقد اخبرتنى حنة انك لم تتناولى شيئا بعد الانطار سوى بعض الثريد

ولم أرفض ، لان معدتى كانت قد تيقظت وتاقت الى الطعام • وعندئذ أغلق مستر ريفرز كتابه واقترب منى ثم راح -وهو يتخذ لنفسه مجلسا- يتفرس فى بعينيه الزرقاوين الجميلتين ، وقد ارتسمت فيهما استقامة غير متكلفة وعزم نافذ راسخ ، مما دلنى على انه لم يكن يتحاشى النظر الى الغريبة عن الدار تهيبا وانما عن قصد وعمد •• وما لبث ان قال : « انك جد جوعانة ! » • فأجبت : « نعم ياسيدى •• ان من عادتى - وكانت دائما عادتى بالسليقة - أن أقابل القلة بالاقتصاد ، والوفرة بالاقبال ! »

- كان خيرا لك أن تضطرى بسبب الحمى البسيطة الى الامتناع عن الاكل ثلاثة أيام اذ كان هناك خطر من تلبية نداءات الجوع فى بادىء الامر • أما الآن ففى وسعك ان تأكلى ، ولكن فى اعتدال !

- ثق اننى لن أتناول الطعام طويلا على نفقتك ياسيدى

وكان ردا نابيا غاية فى السماجة ، ولكنه اجابنى فى برود : « كلا فسوف نكتب الى اصدقائك متى دللتنا على مكانهم ، وستعودين الى منزلك »

- يجب أن أصارحك بأننى لا أملك هذا ، لاننى بلا صديق وبلا منزل !

* * *

وتطلع الثلاثة الى غير مصدقين •• ولم المس شكا فى نظراتهم ، وانما مجرد دهشة وعجب •• وأنا بهذا أعنى الفتاتين بصفة خاصة ، لان عينى سانت جون كانتا - برغم صفائهما - مما يصعب الغوص فيهما ، وكأنما كان لايستخدمهما الا فى سبر أغوار الآخرين وليس فى الكشف عن أفكاره هو !•• وكان فى نظراته خليط من الحدة والتحفظ ، مما يبعث على الارتباك لاالتشجيع •• وسألنى : « أتقصدين بقولك انك لاترتبطين بأية قربى على الاطلاق ؟ »

- نعم ، فلا رابطة لى بأى حى ، ولا حق لى فى الالتجاء الى أى منزل بانجلترا

- ياله من مركز شاذ بالنسبة لفتاة فى سنك !

ثم رأيت نظرة مسددة الى يدى المعقودتين أمامى على المنضدة ، وعجبت لافكاره، ولكنه مالبث أن أوضحها بلغة الكلام قائلا : « أما تزوجت قط ؟•• أعانس أنت ؟ » •• فضحكت ديانا وقالت : « كيف ، وهى لايمكن ان تكون قد تجاوزت السابعة أو الثامنة عشرة تقريبا ياسانت جون ؟ » •• فقلت : « اننى فى التاسعة عشرة تقريبا ، ولكننى لم اتزوج •• كلا ! »

وشعرت بوهج مشتعل يزحف الى وجهى ، لانه أيقظ بالالماح الى الزواج

ذكرياتي المرة المثيرة • وشاهدوا جميعا ماتولاني من ارتباك ، فحولت ديانا وشقيقتها أعينهما عني • أما القس فقد ظل يتفرسني حتى اشتد تضرج وجهي بالدماء ، واغرورقت عيناي بالدموع فسألني : « وأين كنت تقيمين آخر مرة ؟ »
•• وهنا غمغمت ماري في خفوت : « انك تكثر من الاسئلة ياسانت جون ! »
•• ولكنه اتكأ على المنضدة ، ورمقني بنظرة أخرى من نظراته الرصينة الثاقبة ، يتعجلني الرد • فقلت : « ان اسم المكان الذي كنت أقيم فيه ، والشخص الذي كنت أقيم معه ، من اسراري » • فقالت ديانا : « فمن حقك – في رأيي – ان تخفيه عن مستر سانت جون ، وعن كل سائل ، ان شئت » • واذ ذاك قال القس: « ولكني لن استطيع مساعدتك اذا لم اعرف شيئا عنك وعن تاريخ حياتك! •• انك في حاجة الى العون •• أليس كذلك ؟ » • فقلت : « بلى •• انني في حاجة اليه واطلبه ياسيدي على يد محب حقيقي للانسانية ، يريني طريق الحصول على عمل أستطيع أن أؤديه ، وأن اكتسب منه الاجر الذي أتعيش منه ، والذي يوفر لي ولو ألزم ضرورات العيش ! »

– انني لا أدري ما اذا كنت محبا صادقا للانسانية – بالمعنى الذي تقصدينه – ولكنني راغب في مساعدتك بقصارى وسعي للوصول الى عمل شريف • ولكن عليك ان تخبريني بما اعتدت أن تمارسيه ، وما تستطيعين أن تعمليه

وكنت قد شربت الشاي ، فشعرت بعد هذا الشراب بانتعاش لايدانيه الانتعاش المنبعث من النبيذ المعتق ، فقد سرت في أعصابي قوة جديدة مكنتني من مخاطبة هذا القاضي الشاب – الثاقب النظرات – بكل ثبات ، فاستدرت اليه وبادلته نظرة بنظرة في صراحة لايشوبها تهيب وقلت : « لقد اسديت الى يامستر ريفرز – أنت وشقيقتاك – خدمة كبيرة لاتدانيها خدمة أي انسان لاخيه في الانسانية ، فقد انقذتموني بكرمكم النبيل من الموت •• وهذا الجميل يمنحكم الحق في أن أشكركم وأعترف بفضلكم ، وفي أن تكونوا – الى حدما – موضع ثقتي • ولذلك سأروي لكم من تاريخ الفتاة الشاردة التي آويتموها ، القدر الذي أستطيع الافضاء به دون أن أعكر صفو بالي ، ودون أن أعرض أمني – وأمن الغير – لخطر أدبي أو مادي • فأنا يتيمة ، وابنة قسيس ، وقد مات والداي قبل أن أعرفهما ، فنشأت عالة على غيري ، وتعلمت في معهد خيري – سأخبركم باسمه – حيث قضيت ست سنوات في طلب العلم ، وسنتين كمعلمة •• انه يدعى ملجأ اليتيمات في (لو وود) ، فهل سمعت به يامستر ريفرز ؟ •• ان الاب روبرت بروكلهرست ينفق عليه »

– سمعت باسم مستر بروكلهرست ، ورأيت المدرسة

– ومنذ عام واحد تقريبا ، غادرت ملجأ (لو وود) لاعمل مربية خاصة • وهي وظيفة طيبة سعدت بها ، ولكني اضطررت الى تركها منذ اربعة أيام ،

قبل مجيئى الى هنا ٠ أما السبب الذى حملنى على الرحيل ، فلست أملك ان أفضى به ، لان الافضاء غير مجد ، وخطر ، فضلا عن أنكم لن تصدقوه ٠ على انه لا لوم على فى ذلك ولا تثريب ، بل اننى لا أقل عن أى فرد من ثلاثتكم بعدا عن الجرم ٠ اننى تعسة وسأظل كذلك زمنا ، لان الكارثة التى طوحت بى من المنزل الذى ظننته جنتى ، كانت كارثة غريبة مروعة ٠ ولم أكن معنية فى فرارى بغير نقطتين : السرعة والتكتم ٠٠ ولبلوغ هذه الغاية ، تركت خلفى كل شيء عدا حزمة صغيرة نسيتها ـ لعجلتى واضطرابى ـ فى العربة التى أقلتنى الى (هويتكروس) ٠ والى هذه المنطقة جئت بالغة الفقر والعوز ، فبت ليلتين فى العراء ، وهمت على وجهى يومين دون أن أجتاز عتبة من الاعتاب ٠ ولم أذق الطعام فى تلك الاثناء سوى مرتين ، الى أن أشرفت على الهلاك جوعا وتعبا وقنوطا ، فانتشلتنى أنت ياسيدى من الموت أمام بابك ، واخذتنى تحت سقفك ٠ وقد عرفت مافعلته شقيقتاك من أجلى ، لاننى كنت غائبة عن الوعى أثناء ماحسبتموه سباتا عميقا ، فأنا مدينة لرحمتهما الاصيلة غير المصطنعة ، بقدر ما أنا مدينة لاحسانك المنبعث من قلب يعرف الايمان

★ ★ ★

وإذ أخلدت الى الصمت ، قالت ديانا : « لاتحملها الآن على مزيد من الكلام ياسانت جون ، فانها لا تحتمل الانفعال ، تعالى واجلسى على هذه الاريكة ، يامس اليوت » ٠٠ فارتجفت مجفلة ـ على الرغم منى ـ عندما سمعت الاسم المستعار ، اذ كنت قد نسيت اسمى الجديد ، ولكن مستر ريفرز الذى لم يكن يفوته شيء ـ سرعان ما لاحظ ذلك وقال : « ألم تقولى ان اسمك جين اليوت ؟ » ٠٠ فاجبت : « قلته !٠٠ فهذا هو الاسم الذى أراه مناسبا فى الوقت الحاضر ، ولكنه ليس اسمى الحقيقى ٠ ولذلك كان له وقع غريب فى أذنى عندما سمعته ! »

ـ ألا تذكرين اسمك الحقيقى ؟

ـ كلا فان أخشى ما أخشاه ان يكشف أمرى وأحب أن أتحاشى ماقد يؤدى اليه هذا الكشف !

فقالت ديانا : « انك على حق ٠ والآن أرجو يا أخى ان تتركها قليلا فى سلام ! »

ولكن ما ان أطرق « سانت جون » بضع لحظات ، حتى عاد الى حديثه برباطة جاش وبراعة كعادته ، فقال : « انك لن تقبلى ان تركنى الى ضيافتنا طويلا ، اذ ترغبين فى التخلص ـ بأسرع ما تستطيعين ـ من حنان وعطف شقيقتى ومن احسانى (على الاخص) رغبة منك فى الاستقلال عنا »

ـ هو ذلك ، وقد قلته من قبل ، فارنى كيف أعمل ، وكيف اجد عملا ٠

هـذا كل ما ارجوه ، وبعـد ذلك دعنى أذهب ولو الى احقـر كوخ ٠ ولـكن لاتطردنى من بيتك ـ قبل أن يتم ذلك ـ وابقنى هنا لاننى أخشى أية تجـربة جديدة بين أهوال التشرد والفاقة

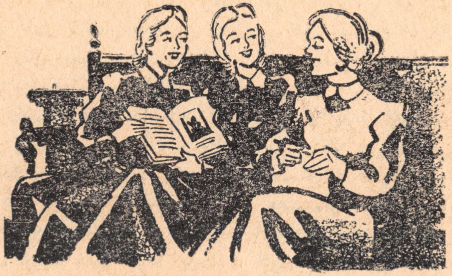
فقالت ديانا وهى تضع يدها البيضاء على رأسى : « لسوف تبقين ولا شك» ٠٠ وكررت مارى ذلك بلهجة من الاخلاص بدت طبيعية اذ قالت : « ستمكثين هنا ! » ٠ فقال مستر سانت جون : « ان شقيقتى تبتهجان ـ كمـا ترين ـ ببقائك ، ابتهاجهما بايواء واكرام طائر طوحت به الينا رياح الشتاء وهـو موشك على الموت بردا ٠ ولسوف اعينك على أن تكفلى نفسـك ، ولكنى ارجـو ان تلاحظى ان منطقتى صغيرة ، وانني لست أكثر من قسيس لابرشية صغيرة فقيرة ، ولذلك ستكون مساعدتى ضئيلة متواضعة ٠ فاذا لم ترق فى عينيك يوما من الايام وجب ان تبحثى لك عن معـاونة أكثر مما فى طاقتى » ٠

فأجابت ديانا عنى قائلة : « لقد قالت انها راغبة فى أى عمل شريف تستطيع القيام به ، وانت تعلم جيدا ياسانت جون انهـا ليست مطلقة الحرية فى اختيار من يساعدونها ، ولكنها مكرهة على أن تلجأ الى أمثالك من الانكاد ! »٠

فقلت : « بوسعى أن أكون حائكة ، أو عاملة ٠٠ بل ساعمل خادمة أو مربية اذا لم أجد خيرا من ذلك ! »

فأجاب مستر سانت جون فى برود تام : « حسن٠ اذا كانت هذه روحك فاننى أعدك بالمساعدة فى الوقت الذى أراه وبالطريقة التى اختارها » ٠ ثم عاد الى كتابه الذى كان مشغولا به قبل الشاى ، وسرعان ما انسحبت ، اذ كنت قد تحدثت كثيرا وجلست طويلا ، رغم ضعفى ووهنى

الفصل الثلاثون



✦ أخذ حبي لاهل (مور هاوس) يزداد كلما ازددت معرفة بهم ، ولم تنقض سوى أيام قلائل حتى استرددت صحتي ، فاستطعت الجلوس طوال النهار ، والتمشي في الخارج في أحيان كثيرة ، والاشتراك مع « ديانا » و « ماري » فيما كانتا تعملان ، والتحدث معهما فيما يحلو لهما ، ومعاونتهما كلما سمحتا لي .. ووجدت في معاشرتها لذة تحيي موات النفس !.. لذة من نوع لم أتذوق مثله من قبل ، لانها انبعثت عن تجانس تام في الاذواق والعواطف والمبادىء . فقد أحببت قراءة ماكان يطيب لهما مطالعته ، وكان مايروق لهما يبهجني ، وما تميلان اليه يلقى تقديرا مني .. وكانتا تحبان منزلهما المنعزل ، وكذلك أحببت أنا ذلك المبنى الصغير العتيق ، بسطحه المنخفض ، ونوافذه الموشاة بالنباتات الزاحفة ، وجدرانه المكسوة بالاعشاب المتسلقة ، وذلك الدرب الممتد بين صفين من أشجار الشربين التى كانت تنمو مائلة تحت دفع الرياح الجبلية ، والحديقة المكتظة بأشجار السدر والتى لم تكن تينع فيها الا أقوى الزهور احتمالا .. والفيت في كل ذلك سحرا قويا مستديما !

وكانت الفتاتان تهيمان بالآجام الارجوانية الممتدة خلف المنزل وحوله ، وبالوادى الخفيض ، والطريق المرصوف بالحصباء والذى كان يفضى صعدا من جوفه الى باب البيت ، ويتعرج ويتلوى بين الشطآن المكسوة بنبات السرخس، ثم بين بعض الحقول التى تحف بالآجام الموحشة ، والتى تربى عليها الاغنام الشهباء والخراف الصغيرة الاجسام ، الموفورة الصوف . بل انني لاذهب الى القول بأن الفتاتين كانتا تتعلقان بهذا المنظر في حماس صادق ، تام ، مالبثت

أن أدركت مبعثه ، فشاطرتهما اياه ، ولمست مثلهما فتنة هذا المكان ،وشعرت بقداسة هذه العزلة ، وتمتعت عيناى بتلك الآفاق ، كما نعمت بالالوان التى كان يخلعها الطحلب والنباتات والزهور البرية على القمم والوديان ٠وأصبحت تلك المعالم بالنسبة لى - كما كانت بالنسبة للفتاتين - مبعث غبطة صادقة ، عذبة ٠٠ وصارت الريح الهوجاء والنسيم العليل ، واليوم العاصف واليوم الهادىء ، وساعات الشروق وساعات الغروب ، وضوء القمر وديجور الليل الملبد بالسحب ٠٠ صارت كل هذه تفتننى بقدر ما كانت تفتن الفتاتين ،وتغمر مشاعرى بنفس السحر الذى كانت تغمر به مشاعرهما !

كذلك كان الانسجام تاما بيننا فى داخل الدار ٠ فقد كانت الفتاتان مثقفتين، وأكثر منى اطلاعا ، ولكننى رحت أقتفى آثارهما - فى توق وشغف - فى طريق المعرفة الذى سلكتاه قبلى ، وأقبلت ألتهم الكتب التى كنت استعيرها منهما ، وأجد متعة فى أن أناقشهما فى المساء فيما طالعته أثناء النهار

واذا كان لثالوثنا رئيس وزعيم ، فقد انعقدت الزعامة لديانا التى كانت تفوقنا فى الجسم ، كما كانت ظريفة ذات عزم ومضاء ٠ أما حيويتها فكانت دنيا زاخرة أثارت دهشتى وان دقت على فهمى ٠ وكنت أتحدث قليلا فى صدر المساء ، حتى اذا نفد معينى وزايلتنى طلاقتى، جلست على مقعد خفيض عند قدمى ديانا واعتمدت برأسى على ركبتيها ورحت أصغى بالتتابع اليها والى أختها مارى وهما تديران الموضوع الذى أكون قد أثرته ٠ وعرضت ديانا أن تعلمنى الالمانية فأحببت أن أتعلم على يديها ، ورأيت دور المعلمة يرضيها ويلائمها ، كما كان دور التلميذة يرضينى ويلائمنى بعد أن توافقت طباعنا وتبادلنا الحب نتيجة لذلك ٠ واكتشفت الشقيقتان اننى أستطع الرسم فسرعان ماكانت أقلامهما وعلب ألوانهما فى خدمتى ٠ وقد أدهشتهما وفتنتهما مهارتى وتفوقى عليهما فى هذه الناحية ، فأخذت مارى تجلس بجانبى وتراقبنى ساعات طويلة ، ثم تتلقى على يدى دروسا فى الرسم تظهر فى أثنائها انها تلميذة طيعة ذكية مثابرة ٠ وهكذا مرت الايام كأنها ساعات والاسابيع كأنها أيام

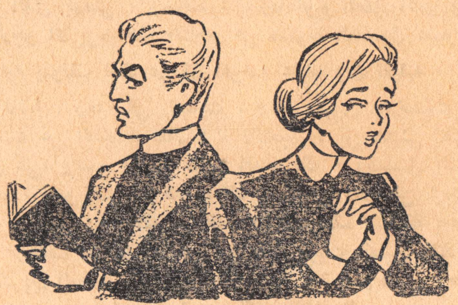
* * *

◆ أما مستر سانت جون : فان المودة التى توطدت بسرعة وبلا تصنع بينى وبين شقيقتيه لم تمتد اليه ، لانه قلما كان يمكث فى المنزل ٠٠ والظاهر ان جزءا كبيرا من وقته كان مكرسا لزيارة المرضى والفقراء من سكان أبرشيته المتناثرين ٠٠ ولم يكن أى نوع من أنواع الطقس ليصده عن القيام بهذه النزهات الخلوية ، فلم يكن يبالى - متى انتهى من ساعات درس الصباح - بمطر أو صحو ، بل كان يتناول قبعته ويخرج ليؤدى رسالة الحب والواجب، يتبعه « كارلو » ، كلب أبيه ٠٠ ولست أدرى فى أى ضوء كان ينظر الى

رسالته هذه ، فقد كانت شقيقتاه فى اليوم غير الملائم تعترضان على خروجه ولكنه كان يجيبهما بابتسامة عجيبة فيها من الرزانة أكثر مما كان فيها من الابتهاج : « اذا كانت نفحة من ريح أو نثار من المطر يمنعنى من أداء هذه الواجبات السهلة ، فأى مستقبل أرجوه لنفسى بمثل هذا الكسل والاسترخاء ؟» وكان رد ديانا ومارى على ذلك يتمثل عادة فى زفرة وبعض لحظات من التفكير الآسى !٠٠ على أنه كان ثمة حائل آخر ـ الى جانب هذا التغيب الكثير الدائب ـ يمنعه من أن يصادقنى ٠٠ ذلك انه كان متحفظا شارد الفكر ، كثير التأمل بطبيعته ٠ وبالرغم من انه كان ناصع السيرة ، غيورا على واجبه الكنسى ، الا أنه كان ـ على ما يظهر ـ ينعم بذلك الهدوء الفكرى والرضى الداخلى الذى ينعم به كل رجل دينى محب للانسانية ، فلقد طالما شاهدته ـ وهو جالس الى مكتبه يطالع أو يكتب ـ يلقى بالكتاب أو القلم ويعتمد بذقنه على يده ، ثم يسلم نفسه الى أفكار لم أكن أدرى فى أى طريق تتجه ، ولكنها كانت ولا شك مزعجة مثيرة ، كما كان يوحى تباين وميض عينيه واتساع حدقته ٠٠ وأحسب كذلك ان الطبيعة لم تكن له ـ كما كانت لشقيقتيه ـ مصدر بهجة وغبطة ٠٠ ولقد عبر مرة ـ ولكنه لم يفعل على مسمع منى سوى مرة واحدة ـ عن اعجاب قوى بما كان للتلال من سحر عابس ، وعن حب غريزى للجدران القاتمة العتيقة التى كان يدعوها منزله ! ٠٠ بيد ان اللهجة والكلمات التى عبر بها عن احساسه هذا ، كانت تنم عن اكتئاب أكثر مما أوحت بابتهاج ٠ كما أنه لم يكن يتجول فى أنحاء المروج والآجام حبا فى سكونها الذى يهدىء الاعصاب٠ ولم يكن يبحث أو يعنى بالآلاف من مباهجها الصامتة !

ونظرا لزهده فى العشرة والاختلاط بالغير ، فقد انقضت فترة طويلة قبل أن تسنح لى الفرصة لسبر غور أفكاره ٠ وقد أدركت مداها لاول مرة عندما سمعته يعظ فى كنيسته فى (مورتون) ٠ وبودى لو أقوى على وصف تلك الموعظة ، ولكن هذا فوق مقدورى ، بل اننى لا أستطيع حتى بيان التأثير الذى تركته فى نفسى٠ فقد بدأت الموعظة هادئة ، والواقع انها ـ من حيث ارتفاع الصوت والالقاء ـ ظلت هادئة حتى النهاية ٠٠ ولكن سرعان ما سرى حماس مكبوح فى نبراته الواضحة ، فراح يستحث الكلمات العصبية ، فاذا بها تزداد قوة٠٠ ولكنها كانت قوة مضغوطة ، مكبوحة العنان ٠٠ واهتز القلب ، وذهل العقل، لقوة الواعظ ٠ وكانت تشيع فى العظة مرارة عجيبة ٠٠ كانت تعوزها الرقة المسرية ، وتعددت فيها الالماعات القاسية الى عقائد « كالفن » الاصلاحية ـ كالانتخاب والرذل ، وكالقضاء والقدر ، والاستنكار ـ وكان لكل الماعة من هذه ، وقع الحكم بالاعدام ٠ فلما انتهى من خطابه ، لم أشعر باننى غدوت بحديثه أحسن حالا أو أهدأ بالا أو أكثر انشراحا ، وانما غشينى شعور

بالحزن والاسى ، اذ ادركت - أكثر من غيرى - ان هذا البيان الفصيح الذى كنت أصغى اليه انما ينبعث من أعماق يشوبها عكر اليأس ورواسب القنوط، وتضطرب فيها بواعث مطامح لاتهن وآمال لاتشبع ٠٠ ووجدتنى أوقن من ان سانت جون ريفرز وان كان نقى السيرة ، حى الضمير ، شديد الغيرة ، الا انه لم يجد هدوء الروح والنفس ، الذى يجل عن الفهم ٠٠ وطاف بخاطرى انه - فى ذلك - لم يكن أسعد حظا منى وسط أحزانى المكتومة ، المتاججة ٠٠أحزانى على معبودى الذى تحطم وفردوسى الذى ضاع ٠٠ أحزانى التى تجنبت أخيرا أن أشير اليها ، وان ظلت تستبد بى وتعذبنى بلا رحمة أو هوادة



★ ★ ★

◆ وانقضى فى تلك الاثناء شهر ، فاقترب موعد رحيل مارى وديانا عن (مور هاوس) لتعودا الى الحياة البعيدة المختلفة التى كانت تنتظرهما كمربيتين ، فى احدى المدن الكبيرة الحديثة بجنوب انجلترا ، حيث تعمل كل منهما فى أسرة غنية متعالية تعتبرها تابعة وضيعة ، ولا تقدر مزاياها الا بالمقياس الذى تقدر به مهارة الطاهية أو ذوق خادمة المائدة !٠٠ ولم يكن مستر سانت جون قد حدثنى بشىء عن العمل الذى وعد بالحصول عليه من أجلى ٠ فلما وجدتنى وحيدة معه ذات صباح فى حجرة الجلوس ، لبضع دقائق ،تجرأت واقتربت من فجوة النافذة القريبة من مكتبه ، وهممت بأن أتحدث ، وان لم أدر كيف أصوغ سؤالى أمام جليد التحفظ الذى كان يكسو طباعه ولكنه كفانى تلك المشقة بأن بدأ الحديث ، اذ سألنى عندما اقتربت : « هل لديك ماتسألينني عنه ؟ »

- نعم أود أن أعرف عما اذا كنت قد سمعت بعمل أستطيع ان أتقدم للقيام به؟

- لقد وجدت ، او بالاحرى ابتكرت عملا لك منذ ثلاثة اسـابيع ، ولكنى عندما وجدتك تقضين وقتك فى سرور واغتباط مع شقيقتى هنا ، رايت من عدم اللياقة ان أعكر صفو سعادتكن الى أن يحين وقت سفرهما •

- لسوف تسافران فى مدى ثلاثة ايام

- نعم ، وساعود الى منزلى فى (مورتون) بعد سفرهما ، وستذهب حنـه معى ويغلق هذا المنزل العتيق

ثم سكت ، فانتظرت أن يعاود حديثه فى الموضوع ، ولكنى رايت افكاره قد شغلت بتأملات أخرى ، وشردت عنى وعن عملى ، فاضطررت الى ان أنبهه الى الامر الحيوى الذى يهمنى • وسألته : « وما نوع العمل الذى وجدته يامستر ريفرز ؟•• أرجو ألا يزيد هذا التأخير فى صعوبة الحصول عليه »

- كلا • انه يتوقف فقط على أن أعرضه عليك وان تقبليه

ثم سكت ثانية ، زهدا فى الحديث ، فنفد صبرى وارتسمت عـلى وجهى نظرة قلقة أغنت عن الكلمات فقال : « لاتتعجلى ، بل دعينى أخبرك بصراحة أن ليس لدى شىء واضح أو ذو فائدة أقدمه لك • وقبـل الشرح أرجو أن تتذكرى ماقلته ، وهو اننى اذا قدمت لك مساعدتى فانها لن تزيد على مساعدة الاعمى للمقعد • اننى رجل فقير ، وقد اكتشفت هذه الحقيقة بعد أن سددت ديون أبى ، فوجدت أن كل ماتبقى هو هذا البيت العتيق المتداعى ، وصف من أشجار الشربين العقيمة ، والارض الحماة الممتدة أمام الدار •• وانا لا أزال نكرة •• ان اسم « ريفرز » عريق ، ولكن الثلاثة الوحيدين من سلالته كما ترينهم : اثنتان تكسبان عيشهما بخدمة الاغراب ، والثالث يعتبر نفسه غريبا عن بلده ، لا فى الحياة فحسب ، بل وحتى فى الموت •• أجل ، وانه ليظن - ويجد نفسه مسوقا الى الظن - بأنه لن يلقى التكريم من قومه ، ولن يتاح له أن يلهمهم الا بعد أن يحمل على كتفيه صليب التحرر من روابط الجسد ،وعندما يهتف به قائد المجاهدين من رجال الكنيسة - الذين يعتبر نفسه أقلهم شأنا - أن : « قم واتبعنى ! »

نطق سانت جون بهذه الكلمات بنفس الصوت الهادىء العميق الذى يلقى به مواعظه ، وقد غارت وجنتاه ، وانبعث من عينيه بريق وهاج • ثم استطرد : « ولما كنت فقيرا ، نكرة ، فلست املك ان أقدم لك سوى عمل فقير ،متواضع • وقد ترين فى ذلك حطة ، اذ اننى تبينت ان عاداتك ممـا يسميه الناس : « راقية مهذبة » ، ولان أذواقك تنحو الى السمو ، ولان مقامك كان بين المثقفين •• على الاقل • على اننى لا أرى حطة فى أى عمل يؤدى الى تحسين عنصرنا• اننى أعتقد انه كلما اشتد جدب الارض التى يقدر على المسيحى العـامل ان يجتهد فى حرثهـا ، ومهما تضـاءل ما يستنبته منها ، كان نصيبه من التكريم

أسمى !٠٠ ان حظه اذ ذاك حظ المجاهد فى الطليعة ، والرائد ٠٠ وقد كان أول الرواد فى الانجيل هم الحواريون ٠٠ الرسل !٠٠ وكان قائدهم هو المسيح ، المنقذ والمخلص ! »

واذ عاد الى السكوت ، قلت : « حسنا ٠٠ استمر ! » ٠ فتطلع الى وكانه يقرأ وجهى ، كما لو كانت أساريرى حروفا مخطوطة !٠٠ وعبر عما استخلصه من هذا الفحص بالعبارات التالية : « أعتقد انك ستقبلين المهمةالتى ساعرضها عليك ، وستؤدينها ٠٠ لا بصفة دائمة ، وانما الى أجل ، فان فى طبيعتك مافى طبيعتى من عوامل تتأذى من الراحة ٠٠ وان كانت عواملك من نوع غير نوع ما لدى ! »

وأخلد للصمت مرة أخرى ، فقلت : « أرجو ان تزيدنى ايضاحا ! »

ـ سأفعل ، وسترين كم هو فقير ، تافه هذا الاقتراح ٠٠ اننى لن أقيم طويلا فى (مورتون) بعد أن توفى والدى وأصبحت أملك زمام نفسى ٠ ومن ثم فربما غادرت هذا المكان فى غضون اثنى عشر شهرا ٠ ولكنى لن أكف ـ مادمت مقيما فى المنطقة ـ عن بذل قصارى الجهد فى سبيل تحسين حالها ٠ فعندما قدمت الى (مورتون) ـ منذ عامين ـ لم تكن فيها مدرسة واحدة ، بل كان أطفال الفقراء محرومين من كل أمل فى التقدم ٠ ومن ثم فقد شيدت مدرسة للبنين ، وقد قررت أخيرا أن أنشىء مدرسة أخرى للبنات ، فاستأجرت مبنى لهذا الغرض ، وكوخا يتصل به ويضم غرفتين لمعلمة المدرسة التى سيكون مرتبها ثلاثين جنيها فى العام ٠ وقد أتممت تأثيث مسكن المعلمة هذا، بأثاث بسيط ولكنه كاف ، وذلك بمعونة « مس أوليفر » ، الابنة الوحيدة للثرى الوحيد فى أبراشيتى ، وأعنى به مستر أوليفر ، صاحب مصنع الابر والمسبك القائمين فى الوادى ٠ وستتكفل هذه السيدة ـ مس اوليفر ـ بنفقات تعليم وكساء فتاة يتيمة تجتلبها من الملجأ لتعاون معلمة المدرسة فى الاعمال المنزلية والمدرسية البسيطة ، التى تحول واجبات المعلمة دون أن تباشرها بنفسها ٠ فهل تقبلين أن تكونى هذه المعلمة ؟ »

★ ★ ★

◆ ألقى سؤاله هذا فى شىء من العجلة ، وكانه يخشى ان ارفضه فى شمم واباء ، غير مدرك حقيقة أفكارى ومشاعرى ٠ بل انه كان يدرك بعضها ، الا انه لم يكن يدرى على أى ضوء سيبدو لى الامر ٠ والواقع انالعمل كان متواضعا، ولكنه كان يكفل لى المأوى ٠٠ وكنت بحاجة الى مثل هذا المأوى الآمن !٠٠كان عملا شاقا ، ولكنه اذا قورن بعمل المربية فى منزل من منازل الاثرياء ، امتاز عنه بالاستقلال ٠ ثم ان الخوف من ربقة الاغراب كان يثقل على نفسى ، فى حين أن هذا المقترح لم يكن ينطوى على هوان أو ضعة او أى امتهان أدبى ٠

ومن ثم حزمت أمرى وقلت : « أشكر لك اقتراحك يامستر ريفرز ، وأقبله راضية ! »

– يجب أن تفهمى انها ستكون مدرسة قروية ، وان تلميذاتك سيكن من البنات الفقيرات ·· وبنات الفلاحين والمزارعين على أقصى تقدير · وسيكون التطريز والخياطة والقراءة والكتابة والحساب هو كل ماتعلمينه لهن ، فماذا تصنعين بثقافتك وبعقلك الكبير واحساساتك وذوقك ؟

– سأدخرها الى وقت الحاجة ، ولن تتبدد !

فسألنى : « اذن فهل عرفت مهمتك ؟ » · وكان جوابى : « عرفتها ! » · واذ ذاك ابتسم ·· ولم تكن ابتسامة مريرة أو حزينة ، وانما كانت ابتسامة الارتياح والشكر العميق · ثم قال : « ومتى تبدئين عملك ؟ » · فقلت : « لسوف أذهب الى مسكنى هناك فى غد ، ثم أفتح المدرسة فى الاسبوع القادم اذا شئت » · فقال : « حسنا ·· ليكن ذلك ! » ·· ثم نهض وراح يذرع الغرفة وما لبث أن توقف عن السير ليتأملنى ·· وهز رأسه فسألته : « ترى ما الذى لا يروقك يامستر ريفرز ؟ »

– لن تمكثى طويلا فى (موردتون) ·· كلا ، كلا !

– لماذا ، وماذا يحملك على هذا القول ؟

– قرأته فى عينيك ·· ان وميضهما لايوحى بالتشبث بحياة تسير على وتيرة واحدة

– أنا لست طموحة

فاجفل اذ سمع كلمة « طموحة » وعاد يقول : « لا ! ·· وما الذى دعاك الى التفكير فى الطموح ؟ من هو الطموح ؟ اعرف اننى كذلك ، ولكن كيف اهتديت الى ذلك ؟ » · فقلت : « انما كنت أتحدث عن نفسى » ، فقال : « حسنا ·· اذا لم تكونى طموحة فأنت ·· » · وأمسك ، فقلت أستحثه : « ماذا ؟ »

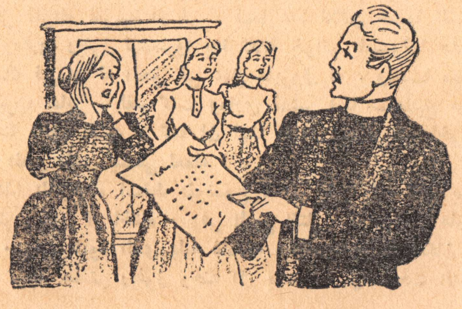
– كنت أهم بأن أقول « عاطفية » ، ولكنى خشيت الاتفهمى الكلمة فتمتعضى · أعنى ان الحب الانسانى والوجدانيات تستبد بك · وأنا واثق من انك لن تقنعى طويلا بقضاء وقت الفراغ فى عزلة وانفراد ، وبتكريس ساعات العمل لجهد رتيب خال تماما من المثيرات · وأنا لست أكثر منك قناعة بان أعيش مدفونا فى هذه البطاح التى تكتنفها الجبال من كل ناحية · ان مواهبى التى منحتنى اياها السماء قد شلت · وها قد سمعتنى الآن أناقض نفسى ، لان هذه هى طبيعتى التى وهبنى الله اياها ·· أنا الذى يوصى الناس بالقناعة ·· أنا الذى يبرر للناس – حتى الحطابين منهم والسقائين – مهنهم الوضيعة ·· أنا قسيس الله ، أهرف متململا فى نوبات القلق ،مع أن النزعات يجب أن تتمشى مع المبادىء بطريقة ما !!

★ ★ ★

◆ وغادر الحجرة .. وهكذا عرفت عنه خلال هذه الساعة الوجيزة ما لم أعرفه خلال شهر كامل مضى ، ومع ذلك فقد ظللت فى حيرة من أمره .. وكان وجوم ديانا ومارى وصمتهما يزدادان كلما اقترب يوم فراقهما لاخيهما ومنزلهما . وحاولت الاثنتان ان تبدوا عاديتين ولكن الاسى الذى كان عليهما أن تناضلاه ، كان أقوى من أن تستطيعا مغالبته أو اخفاءه . وقد أشارت ديانا الى أنه سيكون فراقا مختلفا كل الاختلاف عما عهدتاه ، بل انه كان من المحتمل - بالنسبة لسانت جون - أن يكون فراقا لسنوات ، أو ربما كان فراقا الى الابد . وقالت : « لسوف يضحى أخى بكل شىء على مذبح أغراضه البعيدة ، وهى : الحب الطبيعى والمشاعر الطبيعية التى لاتزال تزداد قوة فى نفسه . ان سانت جون يبدو هادئا ياجين ، ولكنه يخفى فى حنايا صدره حمى . ولقد تحسبينه رقيقا ولكنه فى بعض الامور كالموت ، لا يرحم ولا يلين !.. وأسوأ ما فى الامر أن ضميرى لا يطاوعنى على رده عن قراره القاسى. والواقع اننى لا أستطيع ان ألومه عليه بحال من الاحوال ، لانه قرار سليم نبيل دينى ولكنه يحطم قلبى ! »

واغرورقت عيناها بالدموع ، بينما حنت مارى رأسها متظاهرة بالانكباب على عملها وغمغمت قائلة : « اننا الآن بلا أب ولن نلبث ان نغدو - عما قريب - بلا دار أو أخ ! »

ووقع فى تلك اللحظة حادث كأنما بعثت به الاقدار عمدا لتؤيد المثل القائل بان المصائب لا تأتى فرادى ، ولتضيف الى كروبهم ونكوبهم هما جديدا ، فقد مر « سانت جون » بالنافذة وهو يتلو خطابا ، ثم دخل يقول : « لقد توفى



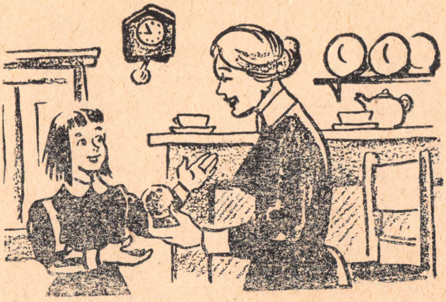
خالنا جون » • فبدا الذهول على كلتا الشقيقتين ، وان لم تروعهما المفاجاة أو تفزعهما ، اذ خيل اليهما ان النبأ خطير أكثر منه محزنا • وكررت ديانا : « توفى ؟ » • فقال أخوها : « نعم » • واذ ذاك رمقته بنظرة متسائلة ، وقالت بصوت خافت : « وماذا بعد ؟ » • فأجابها وقد اتخذت أساريره صورة جامدة أشبه بالرخام : « وماذا بعد ؟•• لاشيء •• اقرئى ! »

وألقى بالخطاب فى حجرها فالقت عليه نظرة ، ثم سلمته الى مارى التى راحت تطالعه فى صمت ، ثم أعادته الى أخيها • وراح الثلاثة يتبادلون النظرات ويبتسمون ابتسامة موحشة كئيبة !•• وأخيرا قالت ديانا : « الامر لله ••فى وسعنا مع ذلك أن نعيش ! » • فقالت مارى : « ان حالنا – على أية حال – لم تزدد سوءا على ماكانت عليه » • وقال مستر ريفرز : « كل ما هنالك انها تضطرنا الى أن نقارن مانحن فيه بما كان فى الامكان ان نكون عليه ، بصورة واضحة » • ثم طوى الخطاب واغلق عليه درجه ، وخرج مرة اخرى

وانقضت دقائق لم تنبس واحدة منا ببنت شفة فى أثنائها •• وأخيرا ، التفتت ديانا الى وقالت تحدثنى : « انكستعجبين ياجين من أمرنا ومنأسرارنا• وقد تعتبريننا مخلوقات غليظة القلب ، ، لانتأثر لموت أقرب الناس الينا ، كخالنا • ولكننا لم نره ولم نعرفه !•• لقد كان شقيق أمى ولكنه تنازع مع أبى منذ زمن بعيد ، لان أبى جازف بمعظم ممتلكاته فى المضاربات عملا بنصيحة خالى هذا ، فافلس •• وتبادل الاثنان السباب وافترقا متخاصمين ، دون أن يصطلحا بعد ذلك • ثم اشتغل خالى فى مشروعات ناجحة أصاب من ورائها – فيما أعتقد – عشرين ألف جنيه ، ولكنه لم يتزوج قط ولم يكن له أقارب اقرب منا ، سوى شخص آخر لايبزنا فى القربى • وقد ظل أبى يعتقد ان خالى سيكفر عن غلطته بأن يترك لنا ممتلكاته ، ولكن هذا الخطاب يخبرنا بأنه وهب كل امواله لقريبه الآخر ، فيما عدا ثلاثين جنيها تقسم بين سانت جون وديانا ومارى ريفرز ليشتروا بها ثلاثة خواتم يلبسونها حدادا عليه !•• وليس من شك فى ان له الحق فى عمل مايروق له ، ولكننا مع ذلك تلقينا خبر موته ببرود عابر ، لقد كنت ومارى نعتبر اننا سنصبح من الاغنياء اذا ظفرت كل منا بألف جنيه ، كما أن لهذا المبلغ قيمته عند أخى سانت جون اذ يمكنه من الخير الذى يسعى لعمله ! »

وبانتهاء هذا الشرح ، اسقط الموضوع ، ولم يشر اليه احد بعد ذلك سواء فى ذلك مستر ريفرز أو اختاه • وفى اليوم التالى ، غادرت (مارش اند) الى (مورتون) • وفى اليوم الذى يليه غادرته ديانا ومارى الى مكان بعيد • وبعد أسبوع ، توجه مستر ريفرز وحنه الى بيته •• وأصبحت الدار القديمة مهجورة !

الفصل الحادي والثلاثون



• **كان** منزلى – عندما وجدت فى النهاية منزلا – عبارة عن كوخ مؤلف من غرفة صغيرة طليت جدرانهـــا بالجير الابيض وغطيت أرضها بالرمال ، واحتوت على أربعة مقاعد ومنضـدة وساعة وصوان به طبقان أو ثلاثة وطاقم شاى خزفى ٠ وفوق هذه الغرفة حجرة مماثلة فى المساحة للمطبخ ، وبها فراش من خشب الموسكى وصوان ذو أدراج ، كان صـــغيرا ولكنه كان يتسع لملابسى القليلة ، التى زادت بعطف أصـــدقائى اللطاف الكرام بعض أشياء متواضعة ولكنها ضرورية

وجاء المساء فصرفت اليتيمة الصغيرة التى تتولى خدمتى ، بعد ان منحتها برتقالة كأجر لها ، ثم جلست وحدى عندحافة المدفأة ٠ وكانت مدرسة القرية قد فتحت فى هذا الصباح ، فجاءتنى عشرون فتاة لم تكن تعرف القراءة منهن سوى ثلاث، ولا يعرفن جميعا الكتابة أو الحساب ٠ بينما كان أكثرهن على المام بأشغال الابرة ، وقليلات جداً من عرفن الحياكة !٠ وكن جميعا يتحدثن بلهجة المقاطعة على أوسع صورة ، فوجدت عناء فى فهم لغتهن ٠ وكانت بعضهن بلا خلاق ، وخشنات جموحات

جاهلات ، ولكن الاخريات كن دمثات سلسات القياد بهن رغبة في التعلم ولديهن ميل لارضائي ٠٠ ولا يفوتني ان أذكر ان هؤلاء الفلاحات الصغيرات الخشنات الثياب كن من لحم ودم كبنات أنبل الاسرات !٠٠ وان بذور التفوق والرقة والذكاء والرحمة يمكن ان تكمن في قلوبهن بمثل ماتكمن في قلوب خير الفتيات تنشئة وتربية ٠٠ ومن ثم فقد كان واجبي أن أتعهد هذه البذور ، ولم أشك في انني سألقى سعادة في القيام بهذه المهمة ، وأن أتوقع متعة كبيرة في الحياة المتفتحة أمامي ، وما كان هذا ليتحقق بلا ريب ، الا اذا نظمت خواطري وعملت ما وسعني على أن أقنع بالحياة من يوم الى آخر

ترى هل كنت غاية في الابتهاج والاستقرار والرضى في أثناء الساعات التي قضيتها في حجرة الدراسة العارية المتواضعة أثناء الصباح وبعد الظهر ؟٠٠ ولكي لا أخدع نفسي، رأيت ان أجيب بصراحة : **كلا ٠٠ كنت أشعر بالاكتئاب الى حد ما ، وكنت أحس ــ لغبائي ــ بأنني قد انحدرت ، وانني خطوت خطوة هبطت بي ، بدل ان ترتفع بي الى مستوى الوجود الاجتماعي ٠ كما استاءت نفسي للجهل والفقر وخشونة ماسمعته ورأيته حولي ٠** ولكنني لا أريد ان أحتقر نفسي كثيرا من أجل هذه الاحساسات ، فاني أدرك انها خاطئة ، وانني انما خطوت خطوة عظيمة وسأحاول التغلب على هذه الاحساسات، وأنا واثقة من انني سأتمكن في الغد من تغليب خير مافيها على أسوأها ، عسى ان أستطيع بعد بضعة أسابيع ان أقضي عليها ٠٠ ومن المحتمل ان أرى في تقدم بعض تلميذاتي ــ بعد شهور قلائل ــ مايحيل تقززي سرورا وهناء !

وفي الوقت نفسه ، دعني ألقي على نفسي سؤالا واحدا : **أيهما أفضل ؟ ٠٠ ان أخضع للاغراء وأصغي للهوى ، فلا أبذل أي مجهود مضني ، الا أناضل وأكافح ، وانما أتردى في الشرك الحريري ، وأغرق في النوم فوق الزهور التي تغطيه ،لاستيقظ**

فى طقس الجنوب الجميل بين ترف احــدى الفيللات ، وأن أعيش فى فرنسا خليلة لمستر روشستر منتشية بحبه نصف عمرى .. فمــا كنت لاشك فى أنه سيحبنى زمنا .. بل انه أحبنى فعلا ، ولن يولينى غيره كل هذا الحب مرة أخرى ، بل اننى لن أعرف ـ ثانية ـ الاكرام الذى يمنح للجمال والشباب والبهاء ، لان سواه لن يرى فى هذه المفاتن !.. لقد كان مغرما وفخورا بى الى حد لا يشببه فيه أحد ، ولكن .. أين سرح بى الخاطر ، وما هذا الذى أقول .. بل ماهذا الذى أشعر به ؟.. لقد كنت أتساءل : أيهما أفضــل : أن أكون جارية وأمة فى جنة محمومة ، أعيش فى مرسيليا سكرانة بالوهم ســاعة ، ثم اختنق بدموع الندم والخزى فى الساعة التالية ، أو ان أكون معلمة حرة شريفة ، بمدرسة فى ركن جبلى صحى هفهاف بقلب انجلترا ؟

نعم .. لقد بدأت أشعر بأننى أصبت فى تمسكى بالمبادىء والقوانين ، وفى احتقارى وسحقى للفورات الملتاثة التى انبعثت فى لحظة هوس وجنون . لقد هدانى الله الى الصواب فحمدا للعناية الالهية على أن هدتنى !

وعندما بلغت بى تأملات المساء هذا الحد ، قمت فمضيت الى باب كوخى ورحت أتطلع الى غروب الشمس فى ذلك اليــوم من أيام الحصاد ، والى الحقول الممتــدة أمام كوخى الذى كان يبعد ـ والمدرسة ـ عن القرية بنصف ميل . وكانت الاطيار تغرد ألحانها الاخيرة .. وكما قال الشاعر : « كان الهوآء عليلا والندى بلسما » !

* * *

◆ **وفيما** كنت أسرح البصر وأحسبنى ســعيدة ، فوجئت بأن وجدتنى بعد قليل أبكى ، فلماذا ؟.. للمصير الذى قضيت به على سيدى ـ الذى لن يقدر لى ان أراه ـ اذ انتزعت نفسى بعيدا عنه .. **للاحزان والحنق القاتل اللذين سيعصفان بنفسه**

ـ نتيجة رحيل ـ وربما حادا به عن جادة الحق وطريق الرشاد، اذا ما استبد به القنوط بحيث لايدع سبيلا لامل يعاوده !

وعند هذه الفكرة ، حولت وجهى عن السماء الجميلة فى المساء وعن وادى (مورتون) المنعزل ٠٠ وأقول المنعزل لان الجزء الذى كان يبدو لعينى ، لم تظهر فيه من المبانى سوى الكنيسة وبيت الراعى ، يكادان يغيبان وسط الاشجار ٠٠وفى المؤخرة تماما بدا سقف قصر (فيل هول) حيث كان يقيم مستر « أوليفر » الغنى وابنته ٠ فأغمضت عينى واعتمدت برأسى على حافة الباب الحجرية ، ولكن سرعان ما انبعث بالقرب من الباب الذى يفصل بين حديقتى الصغيرة والمرعى ، صوت جعلنى أرفع رأسى وأرى على التو « الشيخ كارلو » ـ كلب مستر ريفرز ـ وهو يدفع البوابة بأنفه ، بينما استند على حافتها سانت جون ، وقد عقد ذراعيه وتطلع الى بجبين عابس ونظرة توحى بالامتعاض ٠ فطلبت اليه أن يدخل ، ولكنه قال: « كلا ٠ لا أستطيع البقاء ٠ فقط جئتك بطرد صغير تركته لك شقيقتاى ٠ وأظنه يحوى علبة ألوان وأقلاما وورقا »

واقتربت لاتناول الطرد ـ الهدية السارة ـ فتأمل وجهى متفحصا بنظرات بدت لى كالحة عندما دنوت ٠ وكانت آثار الدموع بلا شك جد ظاهرة على محياى فسألنى : « هل وجدت عملك فى اليوم الاول أشق مما توقعت ؟ » ٠ فأجبته : « آه ، لا ٠٠ على العكس ، سأسير مع تلميذاتى على مايرام مع مرور الوقت »

ـ ولكن ربما وجدت فى لوازم العيش والكوخ والاثاث ماخيب آمالك ؟ انها فى الواقع قليلة ضئيلة ولكن ٠٠٠

فقاطعته قائلة : « **ان كوخى نظيف لايؤثر فيه الطقس ، وأثاثى كاف ومريح ، وكل ما أراه يحملنى على الشكر ، لا على الاستياء ٠ ولست من الحماقة وحب الراحة الجسدية بحيث آسف لعدم وجود بساط أو أريكة أو طبق من الفضة ٠ هذا**

الى أننى منذ خمسة أسابيع لم أكن أملك شـيئا ، بل كنت منبوذة متسولة شاردة ٠ أما الآن فلى معارف ومنزل وعمـل حتى اننى لاعجب لفضل الله وكرم أصدقائى ووفرة نصيبى٠ اننى لا أتبرم ولا أتذمر »

ــ ولكنك تجدين فى العزلة مايضايقك ٠ ان المنزل الصغير القائم خلفك مظلم وخاو

ــ اننى لم أقض بعد زمنا يكفى لان أنعم بالهدوء ، حتى ينفد صبرى بسبب العزلة

ــ حسن جدا ٠٠ أرجو ان تحسى بالرضى الذى تعربين عنه٠ وعلى أية حال ، فسوف يحدثك رأيك السـديد بأنه لم يحن الوقت بعد للاذعان لمخاوف امرأة لوط ، حين عز عليها ان تتبعه وتخلف وراءها ماكانت تعيش فيه ٠٠ إننى لا أعرف شـيئا عما خلفته وراءك قبل ان تقع عليك عيناى ، ولكنى أنصحك بأن تستبسلى فى مقاومة كل مايغريك بالنظر الى الوراء ، بل سيرى فى طريقك الراهن بقدم ثابتة لبضـعة شهور على الاقل !

قلت : « هذا ما استقر عليه عزمى » ٠ فعاد يقول : « **ان السيطرة على اغراء النزوات ، وكبح اندفاع الطبيعة ، مهمـة شاقة ٠٠ ولكنها ممكنة ، على ماعرفت من تجـاريبى ٠ فلقد منحنا الله القوة ــ الى حد ما ــ على صنع مصائرنا والتحكم فى أقدارنا وعندما تتطلب طاقتنا المحدودة عونا تعجز عن الحصول عليه ، وعندما تحاول الارادة جاهدة أن تختط طريقا ثم لانملك السير فيه ، فلا حاجة بنا الى أن نعانى جوع العقل أو يستبد بنا اليأس ، بل علينا ان نبحث للعقل عن غذاء آخر ، لا يقل قوة عن الثمرة المحرمة التى طالما اشتهى تذوقها ، ان لم يكن أطهر منها وأنقى ٠٠ كما يجب ان نشق للقدم الجموح طريقا فى استقامة واتساع تلك التى حجبها عنها الحظ ، ان لم تكن أشق وأوعر !**٠٠ اننى شخصيا كنت غاية فى التعس والشقاء

– منذ عام – لاننى ظننت اننى أخطـــأت بانخراطى فى سلك الكهنوت . وكانت التبعات الرسمية ترهقنى كل الارهـــاق فتحرقت نفسى الى الحياة الدنيوية الاكثر حركة ونشاطا ، والى الاعمال الادبية المثيرة ، والى أن أكون فنانا أو مؤلفا أو خطيبا أو أى شىء غير ان أكون قسيسا .. نعم كان قلب السياسى ، والجندى ، وطالب المجد ، ومحب الشهرة ، والمتحرق الى القوة .. هذا القلب كان ينبض تحت الزى الكهنوتى الذى أرتديه. واعتبرت حياتى شقية يجب تغييرها والا وجب ان أموت .ولكن موسم الظلام والنضال انتهى ، فأشرق الضياء وحان الخلاص واتسع أفق وجودى الضيق الى غير ما حدود ، وسمعت روحى نداء من السماء ان انهضى واستجمعى قوتك وانشرى جناحيك واصعدى الى مافوق مدى البصر ، فقد اختارك الله لمهمة يحتاج أداؤها الى مهارة وقوة وشجاعه وفصاحة وسائر خير الخصال والمواهب لدى الجندى والسياسى والخطيب .. فان كل هذه المواهب يجب أن تتركز فى المبشر الصالح . اذ عولت على أن أكون مبشرا ، فتغيرت حالتى العقلية منذ تلك اللحظة ،وتحطمت القيود عن مواهبى فلم يبق سوى آثار مريرة لايشفيها غـــير الزمن . والواقع ان أبى عارض فيما عولت عليه . **أما وهو قد مات ، فلم يعد فى طريقى شىء من العقبات التى يســـتدعى التغلب عليها نضالا . فقد سويت بعض المشكلات ، وعثرت على من يخلفنى فى (مورتون) ، وقطعت خيطا أو خيطين تبقيا من نسيج المشـــاعر .. وبقى الصراع الاخـــير مـع الضعف الانسانى ، وانى لواثق من ان الغلبة ستكون لى ، لاننى أقسمت أن أنتصر .. ثم أغادر أوربا الى الشرق »**

قال ذلك بصوت بادى الاعياء ، ولكنه كان حازما حاسما ، ثم أخلد الى الصمت ، وتطلع – لا الى – ولكن الى الشمس الغاربة التى كنت أرنو اليها بدورى . وكان كلانا يولى ظهره شـــطر الطريق المفضى الى كوة الباب ، فلم نسمع صـــوتا غير خرير

المياه الجاريه فى الوادى ، ولذلك أجفلنا عندما فوجئنا بصوت مرح عذب كرنين جرس فضى يهتف : « سعدت مساء يامستر ريفرز ، وطاب مساؤك يا كارلو (العجوز) ٠ آن كلبك أسرع منك فى التعرف على الاصدقاء ياسيدى ، فقد رفع أذنيه وبصبص بذيله عندما توسطت الحقل ، أما أنت فما زلت تولينى ظهرك الى الآن ! »

* * *

◆ **وكان** ذلك صحيحا ٠٠ وعلى الرغم من أن مستر ريفرز قد أجفل لدى سماع هذه الكلمات الموسيقية وكأنما هبطت على رأسه صاعقة ، الا أنه ظل واقفا حتى نهاية الحديث فى نفس الوضع معتمدا بذراعيه على البوابة ومتجها نحو الغرب ، ثم استدار أخيرا – بعد أن قدح فكره بمعيار وقدر – واذا بى أرى الى جانبه شكل انسان تصغر قامته عن مستر ريفرز بثلاثة أقدام ، وقد اتشح بثوب ناصع البياض ٠٠ **وكانت شابة بديعة القد ، مليئة فى رشاقة ٠ وبعد أن انحنت تداعب « كارلو » ، رفعت رأسها فأزاحت خمارا طويلا كشف عن وجه كامل ٠٠ و « الجمال الكامل » تعبير قوى ، ولكنى لن أتراجع عنه ولن أحاول وصفه ، لان حلاوة الاسارير وفتنة القوام كانتا تبرران هذا التعبير** ٠ أجل ، لم يكن ينقص الفتاة سحر ، ولم يكن بها أى عيب أو نقص على الاطلاق ، بل كانت قسماتها منتظمة رقيقة ، وكانت عيناها نجلاوين أشبه بالعيون التى نشاهدها فى الصور : واسعتين سوداوين داكنتين تحيط بهما أهداب طويلة وارفة ، وحاجبان كقوسين رسما بالقلم ليضفيا الصفاء على تلكما العينين ٠ وكان جبينها ناعما ، ووجنتاها بيضاوين بضتين ، وشفتاها جميلتين تفيضان بالصحة والحيوية ٠٠ حتى أسنانها كانت متساوية ناصعة خالية من كل هناة ، وكان ذقنها صغيراً تتوسطه نقطة غائرة (نونة) فاتنة ، وجدائل شعرها غزيرة ٠٠ وقصارى القول ، كان ذلك كله مجتمعا ،

يمثل المثل الاعلى للجمال ٠٠ الجمال الكامل !٠٠ ولقد عجبت عندما رأيت هذه المخلوقة الحسناء ، وأعجبت بهـــا من كل قلبى ٠ ولا شك فى أن الطبيعة قد حابتها عندما خلقتهافأغدقت الحسن عليها بهذا البذخ والاسراف ٠

ترى ماذا كان رأىسانت جون ريفرز فى هذا الملاك الدنيوى؟
٠٠ كان من الطبيعى أن أطرح على نفسى هذا السؤال، فتوقعت ان أقرأ الجواب على أسارير الشاب عنـــدما التفت ونظر الى الملاك ، ولكنه سرعان ما حول عنها بصره وتطلع الى مجموعـة من الاقحوان المتواضع ، كانت تنمو على مقربة من البـوابة ٠ وقال وهو يسحق بقدمه رؤوس الازهار الشتوية غير المتفتحة: « أمسية بديعة ، ولكن الوقت متأخر فما كان لك ان تخرجى وحدك ! » ، فهتفت الفتاة : « أوه !٠٠انما وصلت من (٠٠٠) ــ وذكرت اسم مدينة كبيرة تبعد عشرين ميلا ــ بعد ظهراليوم، فأخبرنى (بابا) بأنك فتحت مدرستك وان الناظرة الجديدة قد حضرت ٠ لذلك ما ان انتهيت من تناول الشاى حتى وضعت قلنسوتى على رأسى ، وجريت الى الوادى لاراها ٠ أليست هى هذه ؟ »

وأشارت الى فقال سانت جون : « أجل ، هى » ٠ فسألتنى فى سذاجة وبصوت طروب : « أتعتقدين انك سوف تحبين مورتون ! » ٠ قلت : « هذا ما أرجوه ، فما اكثر المغريات التى تدعـــو الى ذلك ! » ٠ فعـادت تسـألنى : « وهــل أحببت منزلك ؟ » ، فأجبت : « كثيرا جدا ! » ٠٠ فتساءلت فى لطف: « هل ترينني أحسنت تأثيثه ؟ » ٠ وكان جوابى : « جدا ! » ٠٠ ولكنها سألتنى مرة أخرى : « وهل أحسنت اختيـــار تابعتك اليس وود ؟ » ٠ فأجبتها قائلة : « فعلا ، فهى قابلة للتعلم ، طيعة »

وأدركت عنـــدئذ ان الزائرة هي مس أوليفر الوارثة التي وهبت من الثراء قدر ما وهبت من الجمال فتساءلت فى نفسى:

أى نجمين سعيدين اجتمعا يوممولدها ؟٠٠ واسترسلت الفتاة تقول : « لسوف آتى وأساعدك فى التعليم أحيانا ، وسأجد متعة فى زيارتك من حين الى آخر ٠ لقد قضيت وقتا طيبا فى زيارتى الآخيرة لمدينة (س) وقضيت ليلة الامس فى الرقص حتى الثانية صباحا ، اذ التقيت بضباط الكتيبة (٠٠٠) ، وهم أظرف رجال فى العالم »

وخيل الى ان مستر سانت جون لوى شفته السفلى وزوى العليا لحظة ، فبدا فمه مضغوطا متجهما الى حد كبير ، وظهر الجزء الاسفل من وجهه عابسا على غير عادته ، عندما نطقت تلك الفتاة الضاحكة بذلك الحديث ٠ ثم رفع عينيه عن زهرات الاقحوان ، واستدار اليها وعلى أساريره نظرة جامدة متفحصة ذات معنى ، فأجابت الفتاة بضحكة ثانية تلائم شبابها وتورد خديها وغمازتها وعينيها المؤتلقتين ٠

وفيما كان فى وقفته مخلدا الى الصمت والوقار ، عادت هى تداعب كارلو قائلة : « مسكين كارلو ، لكم يحبنى !٠٠ انه ليس فظا ينفر من أصدقائه ولو استطاع أن يتكلم ما التزم الصمت » ٠٠ وأخذت تربت على رأس الكلب وهى منحنية بجمالها الطبيعى أمام السيد الشاب الصارم ، واذ ذاك رأيت وجه السيد يتوهج كاللهب ، وشاهدت عينيه الهادئتين تتحولان فجأة الى نار وتخفقان بانفعال جارف ٠ فكان بهذا الحياء والاشتعال لايقل جمالا بين الرجال عن الفتاة بين النساء ٠ وارتفع صدره مرة كأنما ضاق قلبه الكبير بقيود الاستبداد ، فتضخم برغمه ووثب وثبة قوية للتمتع بالحرية والانطلاق ٠ ولكنه كبح جماحه كما يكبح الراكب جماح جواده ، ولم يرد على كلمات الفتاة وهى تحاول استدراجه

فرفعت الفتاة رأسها واستطردت تقول : « ان بابا يقول انك لم تعد تأتى لزيارتنا الآن ٠ انك غريب عن (فيل هول) وأبى الليلة وحيد ، متوعك ٠٠ فهل تعود معى وتزوره ؟ » ٠ فأجاب سانت جون : « ان الساعة ليست ملائمة للتطفل على مستر

اوليفر »

- ليست ساعة ملائمة ! انها كذلك لانها الساعة التى يكون فيها (بابا) أشد حاجة الى من يسليه بعد فراغه من عمله ٠ تعال الآن يامستر ريفرز ٠ لماذا كل هذا الحياء وكل هذا الاكتئاب ؟

وصمت فملأت الفجوة التى خلفها صمته ، بأن صاحت هى تهز رأسها : « آه ، لقد نسيت ! كم أنا حمقاء ! ٠٠ معذرة اذا كنت قد نسيت ان لك الحق فى عدم الميل الى ثرثرتى بعد ان غادرتك ديانا ومارى ، وأغلق (مورهاوس) ، وبقيت هكذا وحيدا ٠ اننى ارثى لك فتعال وزر بابا ! » ٠ ولكنه قال فى اصرار : « ليس الليلة يامس روزاموند ٠ ليس الليلة »

كان سانت جون يتكلم كما لو كان آلة ٠ فلم يكن فى وسع أحد غيره أن يدرك مدى مايكلفه ذلك الرفض من ثمن غال ٠ وقالت الفتاة : « خليق بى أن أغادرك الآن مادمت عنيدا بهذا الشكل ، فلست اجرؤ على البقاء أكثر من هذا ، اذ بدأ الندى يتساقط ٠ طاب مساؤك ! »

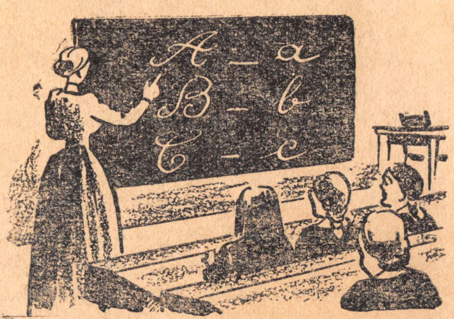
- طاب مساؤك

وتحولت الفتاة ولكنها عادت بعد لحظة لتسأله : « أتراك بخير ؟ » ٠٠ وكانت محقة فى سؤالها لان وجهه كان فى شحوب ردائها الناصع ولكنه أجاب : « اننى فى خير حال » ٠ ثم حنى رأسه وانصرف خلفها ، فسارت فى سبيلها وسار هو فى سبيل آخر ٠

والتفتت الفتاة مرتين لتلقى عليه نظرة ، وهى تخطر فى الحقل ، كأنها حورية جميلة ٠ أما هو ، فسار فى طريقه بخطوات ثابتة دون أن يلتفت خلفه على الاطلاق

كان منظرا آخر للعذاب والتضحية شغل أفكارى وأقصاها عن التأمل فى حالتى ٠٠ وأيقنت بأن ديانا ريفرز لم تبالغ حين لقبت أخاها بانه كالموت لاتلين له قناة !

الفصل الثانى والثلاثون



◆ مضيت فى أعمالى فى مدرسة القرية بكل ما وسعنى من نشاط وأمانة . وكانت مهمتى شاقة فى البداية ، فقد انقضت فترة طويلة ـ مع كل ماكنت أبذله من جهود ـ قبل أن استطيع فهم تلميذاتى وطبائعهن .. كن غاية فى الجهل ، هامدات المواهب ، غبيات لايرجى منهن أمل . وكن يظهرن ـ لاول وهلة ـ متساويات فى الغباء ، ولكنى سرعان ما ادركت غلطتى ، اذ لمست بينهن فروقا كتلك التى بين المتعلمات . وما ان فهمتهن وفهمننى حتى تبددت تلك الفروق . وما ان هدأت دهشتهن منى ومن لغتى ونظامى وطريقتى ، حتى وجدت بعض الخاملات الباديات الغباء قد تحولن الى فتيات متقدات الذكاء ، وابدت الكثيرات شكرا وامتنانا .. وظرفا كذلك ! واكتشفت بينهن نماذج غير قليلة للادب الطبيعى والاعتزاز الاصيل بالنفس ، كما اكتشفت بينهن مقدرة فائقة نالت تقديرى واعجابى . وسرعان ماشعرن بلذة فى أداء واجباتهن على الوجه الاكمل ، وفى الاحتفاظ بنظافتهن الشخصية وفى استذكار دروسهن بانتظام ، وفى التحلى بالعادات الهادئة المنظمة . وكثيرا ما دهشت لهذه السرعة فى تقدمهن ، واستشعرت لذلك زهوا صادقا سعيدا ، كما بدأت بدورى أحب بعض المتفوقات ويحببننى . وكان بين تلميذاتى عدد كبير من بنات الفلاحين الناضجات ـ اللاتى بلغن سن الرشد تقريبا ـ فاستطعن القراءة والكتابة ، وتعلمن الخياطة وشغل الابرة ، ووجدت فيهن أخلاقا تستحق التقدير ، ورغبة قوية فى التعلم والترقى . وكثيرا ماكنت أقضى ساعات طيبة فى المساء ببيوت هؤلاء التلميذات ، أحظى خلالها من أهلهن ـ الآباء المزارعين والامهات الفلاحات ـ بالرعاية . وكنت أجد

متعة فى تقبل هذا العطف الساذج ، وأقدم لهم فى مقابله تقديرا كان يفتن الفتيات ويفيدهن ، لانه كان يرفعهن فى أنظار أنفسهن ، ويحملهن على الجهد ليصبحن أهلا للمعاملة الكريمة التى كن يقلينها منى !

وشعرت بأننى غدوت محبوبة فى تلك المنطقة . فأينما ذهبت كنت أسمع تحيات قلبية من كل ناحية ، وألقى ابتسامات المودة والاخلاص . ان الحياة بين الاعتبار العام — ولو كان هذا الاعتبار من الطبقة العاملة — أشبه بالجلوس فى ضياء الشمس : يتسم بالهدوء والصفاء . وكثيرا ما كان قلبى — فى تلك الفترة من حياتى — يفيض بالشكر ، وقل أن أثقله الاكتئاب . ومع ذلك فلست أكتمك أيها القارىء اننى فى غمرة هذه الحياة الوادعة النافعة ، كنت — بعد أن أقضى سحابة النهار فى الجهد والعناء مع تلميذاتى ، وأقضى الامسيات فى الرسم او القراءة وحيدة ، راضية النفس — لا ألبث بالليل أن أندفع فى أحلام عجيبة .. أحلام متعددة الالوان ، مضطربة ، مليئة بالمثل الاعلى والمثيرات العاصفة .. أحلام كانت تتجلى وسط مناظر غير عادية مشحونة بالمغامرات والمخاطرات والمصادفات الخيالية ، فاذا بى أتصورنى أقابل مستر روشستر — بين وقت وآخر — فأراه دائما فى ضيق شديد ، فتتجدد ذكرى وجودى بين أحضانه ، وسماع صوته ، ولقاء نظرته ، ولمس يده ووجنته ، وحبى له وحبه لى ، وأملى فى قضاء الحياة الى جانبه ... كل هذه كانت تتجدد بكل قوتها وحرارتها الاولى !.. وكنت استيقظ بعد ذلك فأتذكر أين أنا وحقيقة مركزى ، فأجلس فى فراشى — الخالى من الستائر — وأنا أهتز وارتجف . وعند ذاك ، كان الليل الداجى يشهد انتفاض يأسى ، ويسمع انفجار وجدى . ومع ذلك ، فما كانت تحين الساعة التاسعة من الصباح التالى ، حتى أبادر الى فتح أبواب المدرسة وقد استعدت هدوئى ورزانتى ، وتأهبت لاعبائى المدرسية اليومية !

وحافظت « روزاموند » على وعدها أن تأتى لزيارتى ، فكانت تجىء عادة أثناء ركوبها فى الصباح ، فتركض بفرسها الصغيرة الى الباب ، ومن خلفها خادم يمتطى جوادا ويرتدى بزة خاصة .. كانت الفتاة تبدو رائعة المظهر فى زى الركوب القرمزى وقبعتها المخملية السوداء التى كانت تستوى برشاقة فوق جدائل طويلة تلثم خديها وتتدلى على كتفيها بصورة فاتنة تجل عن الوصف .. وهكذا كانت تدخل البناء الريفى وتسير وسط التلميذات القرويات المبهورات بمنظرها !.. وكان مقدمها يصادف عادة الساعة التى يلقى فيها مستر ريفرز درسه الدينى اليومى . ولاحظت ان عين الزائرة كانت تخترق قلب الكاهن الشاب . ويبدو انه كان يشعر بقوة غريزية تنذره بدخولها غرفة الدرس ، وان لم يرها . فاذا ما ظهرت فى مدخل الباب ، تألقت عيناه وتوردت وجنتاه وتبدلت أساريره الجامدة كالرخام ، والتى كانت رغم جمودها تعبر اذ ذاك

- بسكونها وثباتها - عن عاطفته المكبوتة بأقوى مما تعبر العضلات النافرة والنظرات المارقة

وكانت - بطبيعة الحال - تعرف مبلغ قوتها . أما هو فلم يكن يدرى ، والا لما أخفى عنها معرفته . وعلى الرغم من « رواقيته » الدينية - أى عدم مبالاته بالمؤثرات الجسدية - فانه لم يكن يتمالك نفسه اذا ما تقدمت اليه وخاطبته مبتسمة فى وجهه مشجعة فى مرح - يكاد يكون تغزلا - فكانت يداه تضطربان، وعيناه تتقدان ، ويلوح وكأن نظرته الساجية المتورعة تقول دون أن تتحرك شفتاه : « أحبك ، وأعرف انك تؤثريننى ، وليس اليأس من التوفيق هو الذى يعقد لسانى ، لاننى أعتقد أنك ستتقبلين قلبى لو اننى قدمته لك . ولكن هذا القلب قد وضع على مذبح مقدس ، وأعدت حوله النار ، ولن يلبث ان يصبح مجرد قربان فان ! »

وكانت اذ ذاك تتجهم كطفلة خاب رجاؤها ، وتنعقد فى سماء مرحها غمامة ، فتبادر بسحب يدها من يده بسرعة ، وتتحول عن وجهه غاضبة على الفور فى بطولة الشهداء . ولا شك فى ان مستر سانت جون ما كان ليحجم عن تضحية كل شىء فى العالم ليتبعها ويناديها ويستبقيها معه - عندما كانت تتركه هكذا - لولا انه لم يكن يقوى على ان ينزل - فى سبيل فردوس حبها - عن مجرد أمل واحد فى جنة الخلد. اضف الى ذلك انه ما كان فى وسعه ان يربط كل مافطر عليه من حب للتجوال والطموح والشعر والكهنوت ، الى عاطفة واحدة محدودة.. اجل ، لم يكن يستطيع - ولا كان راغبا - فى التخلى عن ميدان رسالته الواسع مقابل ماكان يرجوه من رغد وسلام فى (فيل هول) ، فقد عرفت منه الكثير عن نفسه رغم تحفظه ، وذلك فى أثناء (غارة) تجرأت ذات مرة على القيام بها لاقتحام سره

★ ★ ★

ولقد شرفتنى مس اوليفر بزيارات عديدة لكوخى ، فاستطعت أن اقف على كل أخلاقها سافرة فى غير تحفظ أو تنكر : كانت غندورة ولكنها لم تكن بلا قلب ، دقيقة فى غير أنانية ، مدللة منذ مولدها ولكنها لم تكن فاسدة بمعنى الكلمة ، متهورة ولكنها كانت طيبة القلب ، معتزة مزهوة - دون أن تكون لها حيلة فى ذلك وهى ترى فى كل نظرة تلقيها على المرآة مبلغ ملاحتها - ولكنها لم تكن متعجرفة . وكانت مبسوطة الكف فى غير غرور ، صريحة ، ذكية ، مرحة ، طروبا ، لاتطيل التفكير فى شىء . وقصارى القول : كانت فاتنة حتى فى عين فتاة من جنسها باردة الطبع مثلى ، ولكنها لم تبلغ الكمال من حيث التأثير فى النفس أو كانت - على سبيل المثال - تختلف فى عقليتها عن شقيقتى سانت جون .. على أننى - مع ذلك - احببتها كما احببت تلميذتى « اديل » ،

فيما عدا اننا نكن فى العادة للطفلة التى ربيناها وعلمناها حبا يفوق بالطبع مايمكن أن نكنه لواحدة من المعارف بالغة الرشد ، وان تساوت معها فى الجاذبية .. ولقد مالت هى الاخرى الى ، وقالت اننى اشبه مستر ريفرز فيما عدا اننى لا ابلغ عشر جماله . فمع اننى كنت ظريفة نقيـة الروح ، الا انه كان ملكا كريما..ومع ذلك فاننى كنت - فى رأيها - طيبة ماهرة هادئة النفس رزينة.. مثله ! وكانت تقول ان تاريخ حياتى السابقة - اذا ماتكشف لها - فانه سيكون ولا بد قصة رائعة ممتعة !

وحدث ذات مساء ان كانت بنزقها وخفتها تنقب - دون فضول مستهجن - فى ارجاء الصوان ودرج المائدة فى مطبخى الصغير ، عندما اكتشفت وجود كتابين فرنسيين ومجلد عن شيللر وكتاب فى النحـو الالمانى وقاموس . كما عثرت على أدوات الرسم وبعض الصور التخطيطية ، بينها صورة فتاة صغيرة - هى احدى تلميذاتى - وبعض المناظر الطبيعية المتنوعة التى التقطتها فى وادى (مورتون) والآجام المحيطة به ، فجمدت فى أول الامر دهشة وعجبـا ، ثم جنت سرورا وابتهاجا ، وقالت تسـألنى هل انا التى رسمت هـذه الصـور ؟ وهل اعرف الفرنسية والالمانيـة ؟ ما اجملنى وما اروعنى ! اننى أرسم خيرا من أستـاذها فى المدرسة الاولى فى (س) ، فهل لهـا ان تطمع أن ارسم لها صورة تريهـا لابيها ؟ فأجبتها : « بكل سرور »

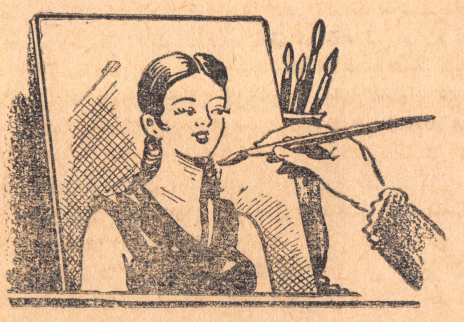
وتملكتنى رجفة الفنان المغتبط لفكرة رسم مثل هذا النموذج الكامل المشرق، وكانت ترتدى اذ ذاك ثوبا كحليا من الحرير يكشف عن ذراعيها ونحرها ، ولا تتزين بغير جدائل شعرها الكستنائى وقد تموجت على كتفيها بكل روعة الجدائل الطبيعية ، فتناولت قطعة من الورق المقوى ورسمت صورة تخطيطية لها بعناية واهتمام ، الى أن أخذت الظلمة ترين ، فطلبت اليها أن تأتى وتجلس أمامى فى يوم آخر .. وكان ان حدثت أباها عن ذلك ، فاصطحبها مستر اوليفر بنفسه فى المساء التالى . ووجدته طويل القامة ، ضـخم التقاطيع ، متوسط العمـر ، أشيب الرأس ، وقد بدت ابنته الحسناء بجانبه أشبه بزهرة مشرقة الى جوار برج مغبر عتيق .. وكان - فيما لاح لى - رجلا محبا للصمت متعجرفا ولكنـه عاملنى برفق ، وسر سرورا عظيمـا بالرسم التخطيطى لروزاموند فطلب منى ان أتم اللوحة كما أصر أن اذهب الى (فيل هول) فى اليوم التـالى لاقضى معهمـا المسـاء .

فلما ذهبت ، وجدته قصرا كبيرا جميلا يدل على ماينعم به صاحبه من ثراء . وكانت « روزاموند » شديدة الفرح والابتهاج طوال مكثى هنالك . ولما خاض والدها معى فى الحديث بعد تناولنا الشاى ، أعرب لى عن تقدير لاعمالى والتقدم الذى نالته المدرسة على يدى ، ثم قال انه أصبح لايخشى - بعد الذى سمعـه

وراه - الا ان أغادر المدرسة الى أخرى اليق بى • وصاحت روزاموند : «الواقع انها من الحذق بحيث يصح ان تكون مربية فى أسرة كبيرة يابابا » • بيد اننى كنت اوثر البقاء حيث كنت ، على العمل لدى أية أسرة من الطبقة الراقية • وتحدث مستر أوليفر عن مستر ريفرز وعائلة ريفرز باحترام بالغ ، قائلا انها أسرة عريقة فى تلك الاصقاع ، وان أجداده كانوا اثرياء يمتلكون قرية (مورتون) كلها ، وانه يعتقد أن سليل الاسرة يملك اذا شاء أن يصاهر أحسن عائلة ، ولكنه أعرب عن أسفه على أن يكون هذا الشاب الجميل واعظا ، وان يبدد فى ذلك حياته الغالية • وتجلى من ذلك أن والد « روزاموند » لم يكن يقيم أية عقبة فى سبيل اقتران ابنته بمستر سانت جون ، وان الرجل يعتبر عراقة الكاهن الشاب واسم اسرته ومهنته المقدسة تعويضا كافيا لحاجته الى المال • •

★ ★ ★

◆ وكان اليوم الخامس من نوفمبر عطلة مدرسية ، فبعد أن عاونتنى خادمتى الصغيرة فى تنظيف منزلى ، انصرفت وهى راضية النفس بالبنس الذى أعطيتها اياه أجر معاونتها لى • وكان كل ماحولى نظيفا لامعا : من ارضية دلكت ، ومدفأة صقلت ، ومقاعد جليت جيدا•وكنت قد نظفت نفسى ، كذلك فوجدت امامى طوال بعد الظهر أقضيه كيف أشاء •• فشغلت بترجمة بضع صفحات من الالمانيـــة ساعة ، ثم جئت بلوحة الرسم والاقلام وشرعت أتم صورة روزاموند اوليفر • وكنت قد فرغت من رسم الرأس ، ولم يبق الا أن ألون الارضيــة ، وأظلل الثياب ، واضفى لمسة من اللون الارجوانى على الشفتين الناضجتين ، وأسبغ بعض تموجات على خصلات الشعر ، وازيد فى ظلال الاهداب تحت الجفون اللازوردية ! •• وفيما كنت منهمكة فى هذه التفاصيل البديعة ، سمعت طرقا



سريعا على الباب غير المغلق ، ثم شاهدت سانت جون ريفرز يدخل قائلا
ـ لقد جئت لارى كيف تقضين يوم عطلتك ، فأرجو أن لاتكونى قد قضيته فى التفكير ٠ كلا هذا حسن ، فانك لن تشعرى بالوحدة مادمت ترسمين٠هاأنتذى ترين اننى مازلت غير مطمئن ، رغم انك أظهرت جلدا وصبرا يدعو الى الاعجاب، لقد جئتك بكتاب تتسلين به فى المساء !

ووضع على المنضدة كتابا جديدا فى الشعر ، من تلك المطبوعات الدسمة القيمة التى كان الجمهور يحظى بها فى ذلك العهد ٠٠ العهد الذهبى للادب الحديث ٠ ومن أسف أن قراء زماننا لاينعمون بهذه الميزة ولكن صبرا ! لست أتوقف لاتهم أو أتذمر ، فأننى أعرف ان الشعر لم يمت ، وان العبقرية لم تضع، وان حب المال لم يسيطر على كليهما ، بل انهما سوف يؤكدان وجودهما وحريتهما وقوتهما مرة أخرى فى يوم من الايام ٠٠ أيتها الملائكة الجبارة الآمنة فى السماء ! انك لتبتسمين عندما تظفر الارواح الشريرة بالغلبة ، وتبكى الارواح الضعيفة على اطلالها ٠ فهل دمر الشعر تدميرا ونفيت العبقرية نفيا ؟ كلا ٠ ٠ فهل هما اذن فى ركود ؟ ٠٠ كلا ، انهما لايعيشان فحسب ٠ بل هما يحكمان ويسيطران ، ولو لم ينتشر نفوذهما الروحى فى كل مكان لاصبحت فى جحيم٠٠ جحيم ضعتك ومهانتك !

* * *

◆ وفيما كنت اتأمل فى لهفة صحائف من ديوان « مارميون » ـ فقد كان الكتاب يضم اشعار مارميون ـ انحنى سانت جون وجعل يتأمل الصورة التى رسمتها ، ولكنه سرعان مانصب قامته الطويلة مرة أخرى دون أن ينبس بحرف، فرفعت عينى اليه ولكنه تجنب نظرتى ٠ ولكننى عرفت أفكاره جيدا ـ رغم ذلك ـ واستطعت أن أسبر غوره ، لاننى كنت افوقه رزانة وهدوءا وشعرت برغبة فى نفعه اذا استطعت الى ذلك سبيلا ، فقلت فى نفسى : انه يذهب بنفسه بعيدا بما يبديه من الحزم وضبط النفس ، فهو يكظم عواطفه فى صدره فلا يبوح ولا يعترف بشيء ٠ ولا ريب عندى فى أن من مصلحته أنأحدثه قليلا عن «روزاموند» الفاتنة ، التى يعتقد أنه لايجدر به أن يتزوجها ٠ ولكن لاحمله على الكلام !٠٠ فقلت اولا : « ألا اجلس يامستر ريفرز » ٠ ولكنه اجاب كعادته انه لايستطيع المكث فأجبته :

ـ حسنا جدا ٠ قف لو شئت ، ولكنك لن تذهب ، فقد حزمت رأيى ! ان العزلة تشقيك كما تشقينى على الاقل ٠ ولن أتركك حتى أجد منفذا الى صدرك المغلق لاصب فيه نقطة من بلسم عطفى ٠

وسألته فى برود : « هل هذه الصورة تشبه ؟ »

ـ تشبه ! تشبه من ؟ اننى لم انعم فيها النظر

ـ بل انك فعلت يامستر ريفرز

وروع باقتضابي العجيب ، ونظر مشدوها الى فقلت لنفسي : « آه ، انك لم تسمع شيئا بعد !٠٠ لن تخدعني صلابتك ، لانني مستعدة للمضي معك الى ابعد الحدود !» ٠٠ ثم استرسلت قائلة : « انك امعنت النظر فيهـا وعن كثب ، ولكني لا أعارض في أن تتطلع اليها مرة أخرى » ٠ ونهضت فوضعتها في يده٠ واذ ذاك قال : « انها صورة بديعة الصنع !٠٠ هادئة واضحة الالوان ٠ جميلة ، ومتقنة الرسم ! »

ـ نعم ٠ نعم ٠ اعرف كل هذا ٠ ولكن الشبه ؟٠٠ من تشبه هذه الصورة ؟ فسيطر على تردده وقال : « مس اوليفر ٠٠ على ما أظن ! »

ـ بالطبع ٠٠ والآن ياسـيدي ، لكي أكافئك على حدسك الدقيق أعدك بأن أرسم لك نسخة أخرى دقيقة أمينة من هذا الرسم ، على شريطة أن تعترف بأنك ستقبل الهدية ، ولانني لا أحب أن أبعثر وقتي وجهدي في هبة لاتقدرها !

فظل يتفرس في الصورة ٠ وكان كلمـا أطال اليهـا النظر ، تشبث بهـا واشتهاها ، ثم غمغم قائلا : « انها تشبهها !٠٠ ان العين مرسـومة جيدا ٠٠ والالوان والضياء والتعبير ٠٠ كلها متقنة ٠ انها تبتسم ! »

ـ هل يرضيك أو يؤلمك ان تكون لديك صورة مماثلة لها ٠ قل لي ! هـل تجد عزاء في هذا التذكار اذا كان بحوزتك في مدغشقر أو رأس الرجاء الصالح أو الهند ، أو ان رؤيته تثير أشجانك وأحزانك ؟

فرفع عينيه خلسة ليرمقني في قلق ثم عاد يتأمل الصورة وقال : « أما انني أود الحصول على نسخة منها فهذا مالا ريب فيه ٠ وأما ان حصولي عليهـا من العدل أو الحكمة فهذا موضوع آخر ! » ٠٠ ولما كنت واثقة من ان روزاموند تفضله حقيقة ، وان والدها لن يعترض في الارجح على قرانهما ، فقد شعرت في سويدائي بميل شديد الى أن أعمل على تحقيق هذه الرابطة ٠ وخيل الى انه لو غدا المالك لثروة مستر اوليفر الضخمـة لاستغلها خير استغلال بدل ان يترك عبقريته تذوي وقواه تتبدد تحت الشمس الاستوائية المحرقة ٠ وبهذا الاغراء اجبت : « ارى من العـدالة والحكمة ان تأخذ لنفسك الصـورة الاصليـة في الحال ! »

★ ★ ★

◆ وكان في تلك الاثناء جالسا ، وقد وضع الصورة أمامه على المنضـدة ، واعتمد بجبينه على كلتا يديه ، وراح يتأملهـا في وجد واعزاز ، فلم أر على أساريره أنه غاضب أو مذهول لجرأتي ، بل انني رأيت انه بدأ يشعر بارتياح جديد وراحة ـ فوق ما كان يرجو ـ اذ وجد من يصارحه بموضوع كان يشق عليه أن يمسه ، وأن يعالجه بهذا الاسراف ٠ فالواقع ان الكتومين المتحفظين

كثيرا مايكونون أشد من سواهم حاجة الى حديث صريح يتنـاول أحاسيسهم وشجونهم · ومهما يكن فان الذين يبدون تزمتا فى الكتمان بشر رغم كل شيء ، فاذا نحن اقتحمنا عليهم بحور أرواحهم الساكنة ـ فى جرأة مستمدة من حسن النية ـ أسدينا اليهم معروفا · لذلك قلت وانا اقف خلف الصـورة : « اننى واثقة من أنها تميل اليك وان والدها يحترمك ، وهى فوق ذلك حلوة مع شيء من الخفة والنزق ، ولكن لديك مايكفيها ويكفيك من الادراك والتعقل ، فيجب أن تتزوجها »

فسألنى : « وهل هى تميل الى ؟ » ·· واذ ذاك قلت : « بكل تأكيد ، وأكثر مما تميل الى أى شخص آخر ، فهى تتحدث عنك دائمـا وباستمرار · والحديث عنك من قريب أو بعيد هو أشهى الموضوعات لديها »

ـ يسرنى أن اسمع ذلك · استمرى فى حديثك ربع ساعة آخر !

وفعلا أخرج ساعته ووضعهـا على المنضدة ليحصى الزمن ، فسألته : « ولكن ما الفائدة من الاسترسال فى الحديث اذا كنت تعد مطرقة حديدية من الاعتراض، وتسبك سلسلة جديدة تقيد بها قلبك ؟ »

ـ لاتتوهمى مثل هذه الاشياء القاسية · تصورينى خاضعا مستسلمـا : ان الحب البشرى أشبه بنافورة أو ينبوع تفجر فى رأسى وأخذت سيوله تفيض على الحقل الذى اعددته بعناية وبذلت فيه مجهودا كبيرا وزرعته ببـذور النبـات الطيبة والمشروعات المنطوية على انكار الذات ، فاذا به الآن ـ وأخيرا ـ يغرق فى فيض من الرحيق ·· ذلك السم اللذيذ !·· الآن أتصورنى مضطجعـا على متكأ فى غرفة الاستقبال فى (فيل هول) عند قدمى عروسى «روزاموند اوليفر» وهى تحدثنى بصـوتها العذب وتتطلع الى بهاتين العينين اللتين أبدعت فى تصويرهما ، وتبتسم الى بشفتين كالعقيق · انها لى وانا لها ، ولاقنع بحيـاتى الدنيوية ·· الحياة الفانيـة !·· صه ! لاتفوهى بشيء ، فان قلبى زاخر بالفرح والسرور وحواسى مسلوبة ·· دعى الوقت الذى حددته يمر فى سلام !

وأطعته ، تمشيا معه ·· وراحت الساعة تدق ·· وكان يلهث بينما وقفت صامتة الى أن انقضى ربع الساعة بسرعة وسط ذلك الصمت ، فأعاد ساعته الى جيبه ووضع الصورة فى موضعها ، ثم نهض من مكانه ووقف بجانب المدفأة ، وما لبث ان قال : « لقد خصصت هـذه الفترة الوجيزة للترهات والاوهام ، فاعتمدت برأسى على وسادة الاغراء ، ووضعت عنقى مختارا تحت نير من الزهور· وذقت كأس الاغراء فوجدت الوسادة تحترق ، وألفيت فى الاكليل حية سامة ، وفى النبيذ مرارة ·· كما وجدت وعود الاوهام جوفاء كاذبة ، وعطاياها زائفة · لقد رأيت وعرفت كل هذا ! »

وتفرست فيه مشدوهة ، بينما استرسل يقول : « من عجب أن أحب روزاموند

أوليفر حبا طاغيا بكل مافي الحب الاول من حرارة وقوة ، وأن أجد فيها جمالا رائعا وفتنة صارخة ، ومع ذلك فانا أحس في الوقت نفســه انهـا لن تكـون الزوجة الصالحة أو الشريكة التي تلائمني ، وانني لن ألبث ان اكتشف هـذه الحقيقة قبل انقضاء عام على زواجنا ، فأجدني بعد اثنى عشر شهرا من الهنـاء والسرور ، مسوقا الى أن أقضي العمر في ندم ! » •• فلم أتمالك ان هتفت : « ان هذا لعجيب في الواقع ! »

ـ بينما يفتتن شيء في كياني بسحرها ، يوجد شيء آخر في دخيلتي يقنعني بعيوبها التي لايمكن ان تلائم شيئا من آمالي ، أو تعاونني على شيء مما آخذه على عاتقي • هل تصلح روزاموند لان تقاسي وتعمل وتكون زوجة مبشر ؟•• كلا !

ـ ولكن لاحاجة تدعوك الى أن تكون مبشرا • في وسعك أن تتخلى عن المشروع

ـ أتخلى عنه ! عن رسالتي ؟ عن عملي العظيم ؟ عن الاساس الذي أرسيه على الارض ليكفل لي قصرا في السماء ؟•• عن آمالي في أن أكـون في عـداد من انغمسوا واندمجوا في أمل واحد هو السمو بجنسهم وحمل مشعل العلم الى دنيا الجهل واحلال السلام محل الحرب ، والحرية محل العبودية ، والدين محـل الخرافة ، والامل في الجنة محل الخوف من الجحيم ؟•• أتريدين أن أتخلى عن ذلك ؟ انه أغلى لدي من الدم الذي يجري في عروقي •• انه عملي الذي اتطلع اليه وأرجو أن أعيش من أجله !

★ ★ ★

◆ وقلت بعد فترة طويلة من السكوت : « ومس اوليفر ؟ •• الا تهمـك خيبة رجائها وأحزانها ؟ »

ـ ان مس اوليفر محاطة على الدوام بالخطاب والمغازلين ، فلن ينقضي شـهر واحد حتى تمحى صورتي من رأسها فتنساني ، وربما تتزوج برجل آخر يجعلها أسعد مما أستطيع أنا

ـ انك تتكلم ببرود عجيب ، ولكنك تتعذب بهـذا النضـال •• انك تذبل وتذوي !

ـ كلا • اذا كان قد أصـابني شيء من الهزال فبسبب انشـغال البـال على مشروعاتي التي لم تستقر بعد ، وأسفاري التي أسوف فيها وأماطل • • وفي هذا الصباح فقط ، تلقيت من خلفي ـ الذي كنت أتلهف على مقدمـه وأنتظره بفارغ الصبر ـ انه لن يكون متأهبا لشغل مكاني قبل ثلاثة أشهر أخرى ، وقد تمتد هذه الاشهر الى ستة

ـ ولكنك ترتجف وتتورد وجنتاك كلما دخلت مس اوليفر غرفة التدريس

ومرة أخرى تجلت على أساريره آيات الدهشة لانه لم يكن يتصور أن تتجرأ امرأة على أن تتحدث الى رجل بهذه اللهجة !•• اما أنا،فانني لم أشعر بأية كلفة

فى هذا النوع من الحديث ، لانني لم أكن استطيع أن استريح مع أصحاب العقول القوية الفطنة المثقفة - من الجنسين - مالم أتحرر من استحكامات التحفظ التقليدى ، واجتز أعتاب الثقة ، وأظفر بمكان ثابت الاركان فى القلوب . وأخيرا قال : « انك تتحدثين بفطرتك دون أن تتهيبى ، لان فى روحك ضربا من الشجاعة وفى عينيك قوة نافذة ، ولكن اسمحى لى أن أؤكد لك انك اسأت الى حد ما فهم عواطفى ، وانك تتوهمينها أعمق وأقوى مما هى فى حقيقتها ، وتخلعين على قدرا من الوجدانيات أكثر مما ادعى !.. اننى لا أرثى لنفسى عندما تتورد وجنتاى أو أرتجف امام مس أوليفر ، ولكننى احتقر هذا الضعف ، وأراه شيئا لايشرف ومجرد حمى تصيب الجسد ، وليست وليدة توقد الروح الثابتة كالصخرة وسط بحر عجاج !.. فاعرفينى على حقيقتى : رجلا باردا صلبا ! »

فابتسمت غير مصدقة ، ولذلك استطرد يقول : « لقد انتزعت ثقتى عنوة وهى الآن طوع خدمتك .. اننى فى حقيقتى - وبكل بساطة - مجرد من الثوب القانى الذى تغطى به المسيحية العيوب البشرية .. اننى رجل بارد قاس طموح ، لايسيطر على دائما سوى الحب الطبيعى - من دون العواطف الاخرى جميعا - ويقودنى العقل لا الشعور . أما طموحى فلا حدود له ، وأما رغبتى فى ان اسمو على الآخرين فهى جشعة لاتقنع . واننى أمجد الاحتمال والمثابرة والجد والمواهب لانها وسيلة الانسان الى تحقيق الغايات الكبرى والارتفاع الى الذروة الشامخة .. ومن ثم فأنا أرقب عملك بلذة واهتمام لاننى أعتبرك أنموذجا للمرأة الكدود ، المنظمة ، النشيطة ، لا لاننى أشفق على ما أصابك وما زلت تقاسينه ! »

قلت : « كأنى بك تصف نفسك بأنك مجرد فيلسوف وثنى »

- كلا . هنالك هذا الفارق بينى وبين الفلاسفة الذين ينكرون الوحى .. اننى أؤمن .. وأومن بالانجيل ! ولقد خانك التعبير فأنا لست وثنيا وانما أنا فيلسوف مسيحى من أتباع شريعة المسيح . وأنا كواحد من تلامذته ، أعتنق عقائده الصافية الرحيمة الحميدة وأدافع عنها وأقسم أن أروج لها . ولما كنت قد كرست حياتى الشابة للدين ، فقد ثقفت وهذبت مناقبى كما يلى : من البذرة الدقيقة للحب الطبيعى ، نمت شجرة حب الانسانية الوارفة الظلال . ومن جذور الاستقامة البشرية الليفية الكثيفة ، ترعرع الاحساس بالعدالة الالهية . ومن الطموح الى اكتساب القوة والشهرة لنفسى الشقية البائسة ، تكون الطموح الى بسط مملكة الهى واحراز الانتصارات للواء المسيحية ... لقد فعل بى الدين الكثير ، اذ سما بعناصرى الاصلية وشذب طبيعتى . ولكنه لم يقو على محو الطبيعة نفسها - ولن يقوى - لان الطبيعة ستظل وتبقى الى أن يقدر للانسان الفانى أن يكتسب الخلود !

وما ان قال ذلك حتى تناول قبعته - التى كانت على المنضدة بجانب لوحة

الالوان ـ ثم ألقى نظرة أخرى على الصورة وهمهم قائلا : « انها جميلة جديرة فعلا بان تسمى روزاموند .. أى وردة العالم ! »

ـ أتريد أن أرسم لك صورة مثلها ؟

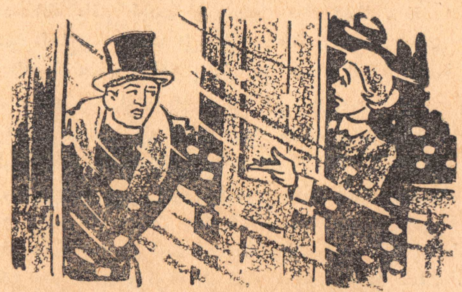
ـ وما الفائدة ؟.. كلا !

ثم غطى الصورة بغلاف من الورق الخفيف اعتدت أن أضع عليه يدى أثناء الرسم لاحول دون تلوث الورق المقوى . ولكن شيئا فى هذه الورقة البيضاء ـ لم أعرفه ـ لفت بصره فجأة ، فشدها بقوة وتأمل طرفها ، ثم رمقنى بنظرة سريعة ، غريبة ، لم أدرك معناها ، ولكن خيل الى انها قد هبطت على كل جزء من جسمى ووجهى وثوبى ، واخترقتها جميعا فى سرعة الوميض ، ثم فغر فاه وكأنه يهم بالكلام ، ولكنه حبس العبارة التى أوشك ان ينطق بها . فسألته : « ما الذى جرى ؟ » . فقال : « لاشىء » . ثم أعاد الورقة ورأيته يمزق شريطا ضيقا فى طرفها بمهارة وعناية ثم اخفاها فى قفازه ، وحنى لى رأسه على عجل قائلا : « طاب مساؤك » .. واختفى !

فصحت بلغة المقاطعة : « ان هذا يفوق كل شىء ! »

ورحت بدورى أتفرس فى تلك الورقة دون أن أرى شيئا غير آثار الالوان التى كنت أجربها بقلمى . ومضيت أفكر فى السر لبضع دقائق ، فلما استعصى على ولم أجد له حلا وأيقنت أنه ليس بالغ الاهمية ، أقصيته عن خاطرى ، وسرعان مانسيته !

الفصل الثالث والثلاثون



◆ وعندما خرج مستر سانت جوان ، كانت الثلوج قد بدأت تتساقط . وظلت الزوبعة الهوجاء تعصف طوال الليل . وفى اليوم التالى هبت رياح قارسة

تحمل أمطارا جديدة غزيرة . وفى الغسق كست الثلوج الوادي وسدت منافذه ، فأغلقت نافذتي ووضعت حصيرة عند الباب لمنع الثلوج من التسرب الى الداخل ، ثم سويت النار في موقدى . وبعد ان قضيت مايقرب من الساعة أصغى الى غضب العاصفة المكتومة الانفاس ، أضأت شمعة وتناولت ديوان « مارميون »

وسرعان مانسيت العاصفة .. على أننى ما لبثت أن سمعت جلبة ، فظننت ان الرياح تهز الباب . ولكن ، كلا .. كان ذلك سانت جون ويفرز الذى رفع مزلاج الباب ثم دخل هاربا من العاصفة الثلجية والظلام العاوى . ووقف أمامى وقد بدت العباءة التى تغطى قوامه الطويل أشبه فى بياضها بصفحة من الزجاج . وكاد الذعر أن يتولانى لاننى لم أكن أتوقع أى زائر - فى تلك الليلة - من الوادى الذى سدت الثلوج منافذه . فسألته : « هل هناك انباء سيئة ؟ هل حدث شيء ؟ »

فأجاب وهو يخلع عباءته ويعلقها بالباب : « كلا .. ما أسهل أن ترتاعى ! » .. ثم أعاد الحصير الى مكانه عند الباب ، وضرب الارض بقدميه ليزيل الثلوج عن حذائه وقال : « أخشى أن ألطخ أرض حجرتك ، ولكنى أطمع فى صفحك على الفور ! »

واقترب بعد ذلك من الموقد وقال : « لقد عانيت مشقة كبيرة فى الوصول »

وراح يدفىء يديه على اللهب . ثم قال : « لقد أغرقتنى لفحة من العاصفة الى وسطى فى الجليد » ولكن الجليد كان بعد طريا لحسن الحظ ! » .. ولم أملك سوى أن أسأله : « ولكن لماذا أتيت ؟ »

- هذا سؤال لايتفق مع كرم وفادة الزائر ، ولكن مادمت قد وجهته الى فاننى أجيبك ببساطة بأننى أردت أن أتحدث معك قليلا ، فقد مللت كتبى الصامتة ومسكنى الخاوى .. هذا الى أننى - منذ الامس - تملكنى قلق الشخص الذى سمع من القصة نصفها ، فهو يتلهف على سماع البقية المكملة ! »

ثم جلس .. وتذكرت سلوكه الشاذ فى اليوم السابق ، فخلت ان به مسا من الجنون ، وانه - اذا صح انه ملتاث العقل حقيقة - فان خبله هادىء رزين . والواقع اننى لم أر ذلك الوجه المليح القسمات أكثر شبها بالرخام المنحوت مما رأيته اذ ذاك ، حين رفع شعره المبلل بالثلوج جانبا وترك ضياء المدفأة يملأ جبينه الممتقع ووجنتيه الشاحبتين حيث اكتشفت للاسف والاسى آثار العناء والحزن غائرة فى وضوح . وترقبت فى انتظار أن يقول شيئا استطيع على الاقل أن افهمه ، ولكن يده كانت مرفوعة الى ذقنه ، وأصبعه على شفته ، وهو غارق فى التفكير !.. واذهلنى ان أرى يده مغضنة كوجهه ، ولعل موجة من الرثاء طفت آنذاك على قلبى فقلت : « ليت ديانا ومارى تأتيان وتعيشان معك ، فليس أسوأ من ان تعيش وحدك ولا تبالى صحتك ! »

ـ كلا مطلقا ٠٠ اننى أعنى بنفسى عند اللزوم ٠ وأنا الآن بخير ٠ أى نقص ترينه فى ؟

وعاد يحدق بعينيه فى الموقد ٠ واذ رأيت ضرورة التعجيل بقول شىء ما ، سألته فجأة عما اذا كان يشعر ببرد ينبعث من ناحية الباب القائم خلفه ، ولكنه أجابنى فى اقتضاب وعناد : « كلا ٠٠ كلا ! » ٠٠ فقلت فى نفسى : « حسنا ٠! مادمت تابى أن تتكلم فلأتركك لصمتك ووحدتك وأعود الى ديوانى ! »

* * *

ونظفت فتيلة الشمعة ، ثم عدت أتصفح ديوان « مارميون » ٠ وسرعان ماتحرك فانجذبت عيناى الى حركته ، فوجدته يخرج حافظة من الجلد الرقيق ، وأخذ منها خطابا جعل يقرؤه فى صمت وسكون ، ثم طواه وأعاده ، ليغرق فى بحور التفكير من جديد ٠٠ ورأيت من العبث أن أقرأ أمام هذا المتسمر فى مكانه هكذا ، ولم أقو على أن أظل خرساء وقد نفد صبرى لطول ذلك الصمت ، فلم أبال بجفائه وقلت : « هل تلقيت أنباء من ديانا ومارى أخيراً ؟ »

ـ لا شىء بعد الخطاب الذى أطلعتك عليه منذ أسبوع

ـ هل حدث أى تغيير فى مشروعاتك ؟ هل ستدعى الى مغادرة انجلترا بأسرع مما كنت تتوقع ؟

ـ لا أظن ذلك فى الحقيقة ، فان مثل هذا الحظ لايواتينى !

وحرت فى أمره فرأيت ان أغير مجرى الحديث ، وفكرت فى أن أحدثه عن المدرسة والتلميذات فقلت : « لقد تحسنت صحة أم مارى جاريت عن ذى قبل ، ومن ثم عادت مارى الى المدرسة فى هذا الصباح ٠ ولسوف تفد الينا أربع تلميذات جديدات من مسبك (كلوز) ولولا الثلج لحضرن اليوم »

ـ صحيح ؟

ـ ويتولى مستر أوليفر الانفاق على اثنتين منهما

ـ كذا ؟

ـ انه يعتزم اقامة وليمة للمدرسة كلها فى عيد راس السنة

ــ أعرف ذلك

ــ **أكان هذا اقتراحك ؟**

ــ كلا

ــ **اقتراح من اذن ؟**

ــ اقتراح ابنته فيما أعتقد

ــ **ليس هذا بمستغرب منها ، فهي طيبة القلب جدا**

ثم ران الصمت مرة أخرى ودقت الساعة الثامنة ، فصحا من تأملاته واعتدل في جلسته ليقول : « دعي كتابك لحظة واقتربي من المدفأة قليلا ! » • فعجبت ، ولكن عجبي لم يجد ما ينقع غلته فرضخت • واسترسل يقول :

ــ حدثتك منذ نصف ساعة عن لهفي لسماع تكملة القصة، ولكنني وجدت بعد التأمل والتفكير أنه من الافضل الآن أن أقوم بدور القصاص ، وأن تتحولي أنت الى دور المستمعة • ويحسن أن أنبهك ــ قبل ان أبدأ ــ الى أن القصة ستقع في أذنيك موقع الابتذال ، لكن التفاصيل المبتذلة تستعيد في الغالب شيئا من الجدة اذا نطقت بها شفاه جديدة : فمنذ عشرين عاما ، وقع قسيس صغير ــ لاتبالي اسمه الآن ــ في غرام ابنة ثري ، ووقعت هي الاخرى في غرامه ، فتزوجا رغم نصيحة جميع أهل الفتاة الذين تبرأوا منها على أثر زفافهما •• ولم ينقض عامان ، حتى توفي العاشقان ودفنا في سكون جنبا الى جنب ، **وقد رأيت قبرهما ، فهو يؤلف جزءا من حافة الساحة الهائلة المحيطة بكاتدرائية عتيقة ، سود الدخان جدرانها ، في مدينة صناعية مترامية الاطراف ، في مقاطعة** (•••) ، ولقد خلفا ابنة تلقفها الاحسان في حجره البارد ، الذي يشبه اللفحة الجليدية التي دهمتني الليلة • وحمل الاحسان الطفلة العديمة النصير الى بيت خالها الغني ، حيث ربتها زوجة الخال ، وكانت تدعي ــ وهنا أذكر الاسماء ــ مسز ريد من (جيتسهيد) •• **لماذا ارتعت ؟•• هل سمعت**

جلبة ؟! ٠٠ انما هى قطة تزحف بين ألواح سقف المدرسة المجاورة ، فقد كان المبنى يوما مخزنا للغلال ، وهذه المخازن ترتادها الفئران عادة ٠٠ وأعود لقصتى فأقول ان مسز ريد تولت تربية اليتيمة عشر سنوات ٠ أما هل كانت الفتاة سعيدة أو كانت شقية ، فلا أستطيع الجزم ، ولم يخبرنى أحد ، ولكنها نقلت فى نهاية تلك السنوات الى مكان تعرفينه أنت ، وهو مدرسة (لو وود) حيث قضيت فترة طويلة ٠ ويبدو أن سيرتها هنالك كانت ناصعة ، لانها لم تلبث أن أصبحت معلمة مثلك ٠ حقا ، يدهشنى ان ثمة تشابها بين تاريخها وتاريخك! ٠٠ ثم غادرت الفتاة المدرسة واشتغلت مربية ـ مثلك ـ لفتاة قاصرة تحت وصاية رجل يدعى مستر روشستر

وهنا قاطعته هاتفة : « مستر ريفرز ! » ٠٠ فقال : « بوسعى أن أحدس مشاعرك ، ولكن عليك أن تكبحيها قليلا ، اذ كدت أنتهى ، فاسمعينى الى النهاية ٠ اننى لا أعرف شيئا عن أخلاق مستر روشستر اللهم الا أنه أراد الزواج بتلك الفتاة الشابة ، فاكتشفت وهى أمام المذبح تماما أنه متزوج بأخرى على قيد الحياة ـ وان كانت مجنونة ـ ولا أدرى ماذا عرض عليها بعد ذلك ٠ **ولكن عندما وقع حادث استوجب البحث عن الفتاة بعد ذلك ، تبين أنها فرت ـ دون أن يدرى أحد متى وأين وكيف فرت ـ وانها غادرت (ثورنفيلد هول) ليلا ٠ وذهب سدى كل بحث عنها ٠ ومع ذلك كان لزاما أن يستأنفوا البحث ، فنقبوا فى طول الريف وعرضه دون الاهتداء الى أثر لها ، ونشرت الاعلانات فى جميع الصحف ٠ وأنا شخصيا تلقيت خطابا من محام يدعى مستر بريجز ذكر فيه البيانات التى رويتها لك الآن ٠ أليست قصة عجيبة ؟ »**

قلت : « مادمت تعرف كل هذا ، فلابد أنك تستطيع ان تنبئنى بشىء عن مستر روشستر ٠ كيف وأين هو الآن ؟ »

ـ اننى أجهل كل شىء عن مستر روشستر ، فان الخطاب

لم يذكر عنه الا المحاولة غير الشرعية التى ألمعت اليها ، ولكن يحسن أن تسألى عن اسم المربية وعن ماهية الحـادث الذى يتطلب ظهورها !

ـ ألم يذهب أحد اذن الى ثورنفيلد هول ؟٠٠ ألم ير أحـد مستر روشستر ؟

ـ لا أظن

ـ ولكنهم كتبوا اليه ؟

ـ يشير مستر بريجز فى خطابه الى أن الجواب الذى تلقاه لم يكن من مستر روشستر وانمـا من سـيدة تدعى آليس فيرفاكس

فشعرت ببرودة قارسـة وباكتئاب ، وخشيت ان تـكون مخاوفى قد تحققت ، اذ يحتمل جدا أن يكون مستر روشستر قد غادر انجلترا ، ودفعـه تهوره الى أن يهيم عـلى وجهه فى أوربا ٠ أى مسكن لآلامه المضنية وأية غاية لعواطفه المشبوبة يلتمس هنالك ؟٠٠ ولكننى لم أجرؤ على الرد عن هذا السؤال **٠٠ أواه ياسيدى المسكين ، الذى كاد أن يصبح زوجى يوما ، والذى طالما ناديته « عزيزى ادوارد » !**

وقال مستر ريفرز :« لابد أنه كان شريرا » ، فهتفت بحرارة: « انك لاتعرفه فلا تبد رأيا فيه ! » ٠ ولكنه أجابنى فى هدوء : « حسنا جدا ٠ الواقع ان رأسى مشغول بأمور أخرى غيره ٠ ولدى قصتى أريد الانتهاء منها ٠ وما دمت لا تريدين سؤالى عن اسم المربية فيجب ان أذكره من تلقاء نفسى ٠٠ انتظرى ! اننى أحتفظ به هنا ٠٠ فمن دواعى الارتياح أن يدون الانسان النقط الهامة بالمداد » ٠ ثم أخرج مرة أخرى حافظته فى أناة ، وفتحها وفتشها ثم أخرج من بعض عيونهـا قصاصة متسـخة قطعت على عجل ، فأدركت من نسيجها ومن الالوان التى كانت تلطخها ، أنها القصاصة التى قطعها بالامس من غلاف الصورة! ٠٠ ثم قام ووضع الورقة أمام عينى ، فقرأت كلمتى «جين آير»

مكتوبتين بالحبر الهندي ، وبخط يدى ، ولابد اننى كتبتهما فى لحظة شرود

* * *

◆ **وقال** القس الشاب : « لقد كتب الى مستر بريجز عن جين اير ، وطلبت الاعلانات البحث عن « جين اير » ، واذ كنت أعرف من تسمى جين اليوت ، فقد ساورنى الشك الذى لم يتأكد ويتحقق الا عصر أمس ، فهل تعترفين باسمك الحقيقى؟»

ـ نعم . نعم . ولكن أين مستر بريجز ؟ انه قد يكون أكثر منك معرفة بأنباء مستر روشستر !

ـ ان بريجز فى لندن ، و أشك فى أنه يعرف شيئا عن مستر روشستر ، لان اهتمامه ليس موجها اليه . **ولكنك تنسين النقط الهامة ولا تبتغين سوى الامور التافهة ! لماذا لا تسألينني عن السبب الذى يبحث مستر بريجز عنك من أجله وفيم يريدك ؟**

ـ حسنا . ماذا يريد ؟

ـ لا يريد سوى ان يخبرك بأن عمك مستر اير من (ماديرا) قد توفى ، وانه ترك لك كل ثروته ، وانك الآن غنية !.. هذا كل شيء ، ولا أكثر من ذلك !

ـ أنا .. غنية ؟

ـ نعم . أنت غنية .. ووارثة !

وساد السكون الى ان قطعه سانت جون فجأة بقوله : «ان عليك بطبيعة الحال آن تثبتى شخصيتك ، وهى خطوة لن تجدى فيها صعوبات ، وتستطيعين بعدها أن تستولى على ارثك فى الحال . ان ثروتك مودعة فى المصارف الانجليزية ، ولدى بريجز الوصية والمستندات اللازمة ! »

وهكذا قلبت صفحة جديدة فى سفر حياتى . انه شيء جميل ـ أيها القارىء ـ أن ترتفع فى لحظة من الفقر المدقع الى الثراء

٠٠ شىء جميـــل ، ولكنه أمر لايمكن ان نفهمه ونستوعبه مباشرة وعلى الفور !٠٠ ثم ان فى الحياة مصادفات أكثر اثارة وأبهج من هذه التى بدت جامدة ٠٠ مجرد حـدث من أحـداث الدنيا ، ليس فيه ـ أو حوله ـ شىء من المثل العليا ٠ كما ان كل ملابساته جامدة وقورة ، وكذلك كانت مظاهره ٠ فليس فيه مفاجأة تجعل الانسان يثب أو يقفز أو يتهلل من الفرح ! بل انه ما يكاد يظفر بالثروة حتى يبدأ التفكير فى المسئوليات والتبعات والعمل ٠ وما ان يستتب الشعور بالرضى حتى تنشأ ـ على أساسه ـ الشـــواغل والهموم ، فننطوى عـلى أنفسنا ونطيل التفكير فى النعمة التى حلت بنا ، بجبين مكفهر !

هذا الى أن كلمتى « ميراث ووصية » تسيران جنبا الى جنب مع كلمتى « موت وجنازة » ٠ لقد كان عمى الذى سمعت بموته هو قريبى الوحيد ، وقد عشت ـ منذ فطنت الى وجوده ـ بأمل أن أراه فى يوم من الايام ، أما الآن فقد انقطع هذا الامل ، ثم جاءتنى أمواله بدلا منه ، لا لى ـ وأنا ربة أسرة تنعم بالمفاجأة ـ وانما لى ، وأنا وحيدة ، منعزلة !٠٠ ومع ذلك فقـــد كانت المفاجأة نعمة عظيمة ٠٠ ولسوف يكون تحررى من الفاقة أمرا مجيدا ٠٠ أجل ، لقد شعرت بذلك ٠٠ ولقد امتلأ قلبى سعادة

وقال مستر ريفرز ، اذ بلغت هذا الحد من تفكيرى : « **ها قد رفعت جبينك أخيرا ، وكنت أحسبك قد تحولت الى حجر !٠٠ ولعلك تسألينني الآن كم تساوين ؟** »

ـ نعم كم أساوى الآن ؟

ـ أوه ٠ شيئا تافها ! شيئا لايستحق الذكر ! أظنهم يقولون عشرين ألف جنيه !

ـ عشرين ألف جنيه ؟

وكانت هذه مفاجأة جديدة ، اذ كنت أتوقـــع ان لا تعدو الثروة أربعة أو خمسة آلاف ، فاحتبست أنفاسى لحظة ، مما جعل سانت جون ـ الذى لم أسمعه يضحك من قبل ـ يقهقه

ويقول : « عجبا ! ·· لو انك إقترفت جريمة قتل ثم أخبرتك بأن جريمتك قد اكتشفت ما أبديت كل هذه الدهشة ! »

ـ انه مبلغ كبير · الا تعتقد ان هناك غلطة ما ؟

ـ لا غلطة هناك على الاطلاق

ـ لعلك أخطأت فى قراءة الارقام ·· ربما كانت ألفى جنيه !

ـ انها مكتوبة بالحروف لا بالارقام ·· عشرون ألفا !

ومرة أخرى ، شعرت كأننى مخلوقة ذات شـــهية معتدلة للاكل ، جلست وحيدة الى مائدة حفلت بما يكفى مائة شخص!

·· وهنا ، نهض مستر ريفرز ، فالتف بعباءته قائلا : « لو لم تكن الليلة عاصفة لارسلت حنه لتبقى فى رفقتك ، لأنك أتعس نفسا من أن تظلى وحدك ، ولكن حنه المسكينة لاتستطيع أن تخوض مثلى الثلوج ، ولذلك يجب ان أتركك »

وفيما كان يرفع المزلاج خطرت برأسى فكرة مفاجئة فصحت:

ـ ان مايحـــيرنى هو : لماذا كتب لك مستر بريجز عنى ، وكيف عـرفك أو خطر ببـــاله انك ـ وأنت تعيش فى مكان لا علاقة له بأمرى ـ تستطيع أن تعاونه فى العثور على ؟!

ـ آه ! ·· اننى قسيس ، والقساوسة يلجأ اليهم فى الملمات!

★ ★ ★

· ومرة أخرى جلجل المزلاج فصحت : « لا ·· هذا جواب لا يقنعنى ! » ·· والواقع ان شيئا فى رده العاجل ، المبهم ، أذكى فضولى بدلا من ان يهدىء جأشى ، فاسترسلت أقول : « انه لامر عجيب ، ولابد لى من أن أعرف المزيد عنه » ·فهتف: « كلا ·· ليس الليلة ! » ·· واذ استدار الى البـاب ، وقفت بينهما ، فتجلى عليه الارتباك ولكنى قلت :

ـ لن تذهب من هنا حتى تخبرنى بكل شىء

ـ أوثر أن لا أفعل ذلك الآن

ـ بل لسوف تخبرنى ! ·· يجب !

ـ من الخير أن تخبرك ديانا أو مارى

وأثارت هذه الاعتراضات ـ بطبيعة الحال ـ لهفتى ،وبلغت بها الذروة ، فكان لابد من ان أشبعها دون ابطاء ٠ وأخبرته بذلك فقال :

ـ ولكنى قلت لك اننى رجل قاس يصعب اغراؤه

ـ وأنا امرأة قاسية صلبة يصعب ارجاؤها

ـ أنا رجل بارد لا تؤثر فيه حرارة أو حماسة

ـ وأنا حارة ٠٠ نار تذيب الثلج ، كهذا الوهج الذى أذاب الجليد عن عباءتك فانهمر على أرض حجرتى وجعلها كشارع تطرقه الاقدام ٠٠ انك تريد أن أعفيك ، فهلا أخبرتنى بما أريد؟

ـ حسنا اذن ، لقد استسلمت ٠٠ ان لم يكن لضراعتك ، فلمثابرتك ٠ فان الحجر يبليه توالى سقوط القطرات ٠ هذا الى انك ستعلمين بالامر يوما ما ، عاجلا أو آجلا ٠٠ هل اسمك جين اير ؟

ـ بالطبع ٠ لقد فرغنا من هذا الامر من قبل

ـ لعلك لا تعلمين أننى أحمل لقبك ، وان اسمى سانت جون آير ريفرز ؟

ـ كلا فى الحقيقة ٠ لقد رأيت حرف (ا) على كل كتاب استعرته منك ، ولكنى لم أسألك قط عن بقية الاسم ٠ وماذا بعد ذلك ؟٠٠ لاشك ان ٠٠

ثم توقفت لاننى لم أجد من نفسى قدرة على التسليم بالفكرة التى خامرتنى فجأة ، ولا على التعبير عنها بعد آن تجسمت وبدت لى فى الحال قريبة الاحتمال ٠٠ لقد تعقدت الامور ثم انتظمت ، ثم تحولت السلسلة المكدسة الى عقد منظوم تتصل كل حبة فيه بالاخرى ٠ ولقد عرفت بغريزتى ماهية الامر قبل أن ينطق سانت جون بكلمة واحدة ، ولكنى لايمكن ان أتوقع للقارىء نفس هذه البصيرة البديهية ، ولذلك يجب أن أعيد عليه ما أوضحه سانت جون ، اذ قال :

ـ كان (آير) اسم والدتى . وكان لها شقيقان .. **أحدهما قسيس تزوج مس جين ريد من (جيتسهيد) ، والثانى جون اير التاجر بجزيرة ماديرا . ولما كان مستر بريجز محامى مستر جون اير ، فقد كتب الينا فى أغسطس يخبرنا بوفاة خالنا ، ويقول انه ترك ثروته لابنة القسيس اليتيمة ،** وانه لم يوص لنا بشىء لانه لم يستطع ان ينسى الضغائن القديمة التى خلفها ما قام بينه وبين أبى من نزاع . ثم كتب مرة أخرى منذ أسابيع يقول ان الوارثة مفقودة ، ويسألنى عما اذا كنت أعرف عنها شيئا . وقد وقعت عيناى مصادفة على اسم مكتوب على وريقة ، فاذا بى أهتدى اليها .. وأنت تعرفين الباقى !

وهم بالذهاب مرة أخرى ، ولكننى دفعت الباب بظهرى وقلت : « أرجو ان تدعنى أتكلم . اترك لى دقيقة استرد فيها أنفاسى وأفكر » .. وتوقفت ، فوقف أمامى وقبعته فى يده . وكان بادى الارتباك ، فاستطردت أقول :

ـ هل كانت والدتك شقيقة أبى ؟

ـ نعم

ـ اذن ، فهى كانت عمتى !

فحنى رأسه موافقا

ـ واذن فقد كان خالك جون هو عمى جون . وانت وديانا ومارى أبناء شقيقته كما اننى ابنة أخيه ؟

ـ بلا مراء !

ـ اذن فأنتم الثلاثة أبناء عمتى ، وينبع نصف دمنا من معين واحد ؟

ونظرت اليه ، فخيل لى اننى وجدت شقيقا أستطيع آن أفخر به وأحبه ، وشقيقتين سمت أخلاقهما ـ عندما عرفتهما وكانتا مجرد غريبتين عنى ـ بحيث أثارتا فى نفسى الحب والاعجاب . واذن فالفتاتان اللتان ركعت على الارض المبللة لانظر اليهما

خلال النافذة المغطاة بالدانتلا ، بمطبخ (مورهاوس) نظرات تفيض بالاهتمام واليأس ، كانتا من أقرب أهلي ، واذن فالسيد الشاب الذى وجدنى مشرفة على الموت على عتبة داره ، كان من ذوى رحماى !٠٠ **ياله من اكتشاف رائع لبائسة وحيدة !٠٠ لقد كانت هذه ثروة فى الحقيقة ، وأى ثروة !٠٠ ثروة للقلب ، ومنجما للحب الصافى الاصيل ، ونعمة مشرقة زاهية مبهجة ، ليست كهبة الذهب الثقيل !٠٠** وصفقت بيدى فى فرحة مفاجئة ، وقد وثب قلبى فى صدرى ، وثارت عروقى وصحت:

ـ أواه ٠٠ اننى مسرورة !٠٠ اننى مسرورة !

فابتسم سانت جون وسألنى : « ألم أقل انك أهملت النقط الهامة لتتعقبى التوافه ؟٠٠ لقد كنت رزينة عندما أخبرتك بأنك أصبت ثروة ، وها أنتذى الآن منفعلة أشد الانفعال ! »

ـ ماذا تعنى ؟ قد لا يهمك الامر ٠ لان لك شقيقتين ، أما أنا فلم يكن لى أحد ، فوجدت الآن ثلاثة أقرباء أو اثنتين اذا كنت لا ترضى أن أعدك معهما ٠ اننى أكرر أننى مسرورة !

★ ★ ★

• **ورحت** أخطو فى الغرفة بخطوات مسرعة ، ثم وقفت وقد أوشكت أن أختنق بالافكار التى تدافعت الى رأسى متزاحمة حتى عز على ادراكها أو تنسيقها ٠٠ وكانت أفكارا تدور حول ما قد يكون ، وما يمكن أن يكون ، وما يجب ان يكون !٠٠ وتطلعت الى الجدار الأملس الابيض ، فخيل الى أنه سماء تتألق بالنجوم ٠ وفاضت نفسى بالفرح اذ أدركت أن قد أصبح فى وسعى أن أنفع أولئك الذين أنقذوا حياتى ، والذين أحببتهم حتى هذه الساعة حبا خالصا ، منزها عن الغرض ٠٠ لقد كانوا يرسفون تحت نير الحياة القاسية ، وفى وسعى أن أحررهم ٠٠ لقد كانوا متفرقين، مشتتين ، فأصبح فى مقدورى أن أجمع شملهم ٠٠ لماذا لا ينعمون هم الآخرون بما أنعم به من

استقلال ؟٠٠ ألم نكن أربعة ؟٠٠ **اذن فلو قسمت الجنيهات العشرون ألفا بالتساوى بيننا ، لاصاب الواحد منا خمسة آلاف تكفيه ، بل تزيد عن حاجته !٠٠ اذن فلا بد للعدالة من أن تأخذ مجراها ، فتشملنا السعادة جميعا !٠٠ واذ ذاك لم أعد أشعر بالثروة عبئا يثقل كاهلى ، لأنها لم تعد فى نظرى مجرد ميراث نقدى ، وانما غدت وثيقة الحياة والامل والنعيم !**

ولست أدرى ما الذى ارتسم على وجهى اذ طافت هذه الخواطر برأسى وثار تحمسى لها ، ولكننى أبصرت بمستر ريفرز يحمل مقعدا فيضعه خلفى ، ويروح يغرينى بالجلوس ، وينصحنى بضبط عواطفى ٠ غير اننى سخرت مما خاله خورا أصابنى ، فدفعت يده ، وجعلت أذرع الحجرة من جديد ، ثم قلت له : « اكتب الى ديانا ومارى غدا لتعودا فى الحال ٠ لقد سمعت ديانا تقول انها تعد نفسها غنية اذا هى ظفرت بألف جنيه ، فما بالك بهما لو ان كلا منهما ظفرت بخمسة آلاف ؟» ٠ فقال سانت جون : « نبئينى ، من أين آتيك بكوب ماء ؟٠٠ »

ـ هراء !٠٠ ترى كيف كان يحتمل آن يكون تأثير الوصية عليك ، لو انها كتبت لصالحك ؟٠٠ أفكانت تستبقيك فى انجلترا ، وتغريك بالزواج من مس أوليفر ، وبالاستقرار كغيرك من بنى البشر ؟

ـ انك تهذين ٠٠ لقد اختبلت !٠٠ لقد كنت مندفعا فى ازجاء النبأ اليك ، فقد أثار انفعالك أكثر مما تحتمل قواك !

ـ انك تفقدنى صبرى يامستر ريفرز !٠٠ اننى مكتملة العقل ، ولكنك أنت الذى تسىء الفهم ، أو تتعمد اساءة الفهم!

ـ قد أغدو أكثر ادراكا ، لو آنك زدتنى ايضاحا بعض الشىء

ـ ايضاح !٠٠ ما الذى هناك للايضاح ؟٠٠ ما أظنه يعييك أن ترى ان العشرين ألف جنيه ـ وهو المبلغ الذى نحن بصدده ـ اذا قسمت بالتساوى على أبناء الخؤولة الاربعة ، فانها تتيح

لكل منهم خمسة آلاف !٠٠ والذى أبغيه هو أن تكتب لشقيقتيك وتنبئهما بالثروة التى أصابتهما

— تعنين ٠٠ أصابتك

— لقد انتهيت الى رأى فى الامر ، وليس بوسعي ان أتخذ رأيا سواه ٠ اننى لا أتصف بأنانية هوجاء ، ولا بظلم أعمى ، ولا بجحود مزر ٠ ثم اننى عقدت العزم على أن يكون لى بيت وأقارب ٠ ولما كنت أحب (مورهاوس) ، لذلك فسوف أعيش فى (مورهاوس) ٠٠ وبما اننى أحب ديانا ومارى ، لذلك فسأربط حياتى بحياة ديانا ومارى ٠٠ ولسوف يرضينى ويفيدنى ان أمتلك خمسة آلاف من الجنيهات ، ولكن ٠٠ سيعذبنى ويرهقنى ان أمتلك عشرين ألفا ، هى — فوق ذلك — ليست من حقى شرعا ، وان أمكن ان تكون حقا لى بحكم القانون ٠ ومن ثم فسأنزل لكم عما هو أكثر مما أستحق فعلا ٠٠ فدع كل معارضة وكل مناقشة فى ذلك ، ولنتفق فيما بيننا!

— هذا تصرف من وحى انفعالاتك الاولى ، فلابد من ان تتريثى أياما لتدرسى مثل هذا الامر ، حتى تكون كلمتك صائبة !

— آه !٠٠ اذا كان صدق عزمى هو كل ماترتاب فيه ، فاطمئن ٠٠ ألا تؤمن بعدالة المسألة ؟

— الحق اننى أرى فيها قسطا من العدل ، ولكنها مخالفة لكل عرف ٠ ثم ان الثروة بأكملها من حقك ، وقد اكتسبها خالى بجهوده ، ومن ثم كانت له الحرية فى أن يتركها لمن يشاء ، وقد تركها لك ٠٠ والعدالة تبيح لك — رغم كل شىء — أن تستأثرى بها ، فلك ان تعتبريها ملكك المطلق ، وأنت مرتاحة الضمير !

— ان المسألة لدى مسألة مشاعر كما هى مسألة ضمير ، اذ لابد لى من أن أقحم مشاعرى هنا ، فنادرا ماسنحت لى الفرصة لهذا ٠٠ ولو انك حاججتنى ، وعارضتنى ، وضايقتنى عاما

بأكمله ، لما أثنيتنى عن المتعة العذبة التى لاح لى قبس منها ٠٠ متعة رد جميل هائل بعرفان بسيط،واكتساب أصدقاء يحيطون بى مدى الحياة !

قال : « انك انما ترين الآن ذلك ، لانك لم تعرفى بعد متعة التملك ، ولا لذة الثراء ٠٠ ليس بوسعك أن تكونى فكرة عن قيمة العشرين الف جنيه لديك ، ولا عن المكانة التى تستطيع أن ترفعك اليها فى المجتمع ، ولا عن الفرص التى ستفتحها أمامك ٠٠ ليس بوسعك ٠٠ » ٠ فقاطعته قائلة : « وليس بوسعك انت ان تتصور الحنين الذى يتملكنى نحو حب الاخ وحب الاخت ٠٠ اننى لم أحظ يوما ببيت ، ولا كان لى أخوة ولا أخوات ، فلا بد لى الآن من كل ماحرمت منه ٠٠ أتحجم عن ان تتقبلنى أختا ؟ »

ـ بل سأكون أخاك ياجين ، وستكون شقيقتاى شقيقتيك ، دون ما داع لان تضحى بحقوقك

ـ أخ ؟٠٠ اجل ، على آلاف الفراسخ منى ٠٠ وشقيقتان ؟٠٠ نعم ، تشقيان فى خدمة الاغراب ٠٠ افأكون غنية ، متخمة بذهب لم أكتسبه و لااستحقه ، وانتم معدمون ؟٠٠ يالها من مساواة ومن اخاء !٠٠ ألا قرب البعيد ، ووثق الرابطة !

ـ ولكن آمالك فى الروابط العائلية والسعادة المنزلية يمكن أن تتحقق ياجين بطريقة غير التى تفكرين فيها ٠٠ بوسعك أن تتزوجى

ـ هراء !٠٠ أأعود مرة أخرى الى فكرة الزواج !؟٠٠ لست اريد زواجا ، ولن اتزوج

ـ هذا اسراف فى القول ، وما هذه التأكيدات الملقاة جزافا ، الا دليل على الانفعال الذى تعانينه

ـ ليس هذا اسرافا فى القول ، فاننى ادرك مايختلج فى صدرى ، وأعرف مدى نفور نفسى من مجرد التفكير فى الزواج٠ أن أحداً لن يقبلنى زوجة من أجل الحب وحده ، بل سأكون مجرد صفقة مالية ٠ ثم اننى لا أريد معاشرة غريب ، اجنبى

عنى ، لاتربطه بى عاطفة ، وانما أنا أنشد الاقارب الذين أشعر بأننى منهم وهم منى . قل مرة أخرى انك ستكون أخى .. لشد ماشعرت باغتباط وسعادة حين نطقت بهذه الكلمات .. كررها ، اذا استطعت أن ترددها صادقا !

– اعتقد أن هذا بوسعى .. اننى لاوقن من أننى كنت دائما أحب شقيقتى ، وادرك الاساس الذى قام عليه حبى لهمـــا : احترامهما ، والاعجاب بمواهبهما .. وانت الاخرى لك مبـدأ وعقل راجح ، كما أن أذواقك وعاداتك تشـبه أذواق وعـادات ديانا وماري ، ولقد ارتحت دوما الى وجودك ، ووجدت فى حديثك سلوى وتسرية ، ومن ثم فاننى أشـعر ان من السـهل على أن أفسح لك مكانا فى قلبى ، دون ماتكلف ، فتصبحى اختا ثالثة

– شكرا .. ان هذا يسعدنى فى أمسيتى . والآن ، يحسن بك ان تنصرف ، لانك تهيج شجونى ببعض الهنات التى تنم عن تردد ، اذا انت أطلت المقام

فابتسم فى تقدير ، وتصافحنا . ثم انصرف .. ولسـت بحاجة الى أن أروى ألوان الصراع التى دارت ولا الجدال الذى جرى بعد ذلك ، حتى استطعت أن أنفذ ماشئت بصدد الميراث .. كانت مهمتى شاقة ، ولكننى كنت قد عقدت العزم ، وقد لمس ابناء عمتى مدى تشبثى بتقسيم الميراث بيننا ، كما أحسوا فى قرارات قلوبهم بصدى لما كان يعتلج فى سـويدائى .. ولا بد أنهم شعروا بأنهم ماكانوا يفعلون غير مافعلت لو انهم كانوا فى مكانى ، ومن ثم فقد انتهوا – فى آخر الامر – الى أن يقيموا بينى وبينهم من يحكم فى المسألة .. وآختير مستر أوليفر ، أحـد المحامين الاكفاء للفصل ، فأقرا رأيى ، ومن ثم آنتصرت رغبتى . وسرعان ما اتخذت الاجراءات الرسمية للقسمة ، وأصبح كل من سانت جون ، وديانا ، ومارى ، وانا يملك نصيبا مساويا لنصيب كل من الآخرين !

الفصل الرابع والثلاثون



◆ كان عيد الميلاد قد اقترب ، عندما تمت التسوية ، وأشرف موسم العطلات، فأغلقت مدرسة (مورتون) ، وقد حرصت على أن لايكون فراقى لها جافا،مجدبا، فان الحظ الطيب يفتح اليد كما يفتح القلب بمهارة عجيبة ، والمرء حين يمنح قسطا ما من العواطف ، فى مقابل الكثير الذى تلقاه ، انما يخفف من جيشان الاحاسيس المضطرمة فى فؤاده . فلقد طالما شعرت باغتباط ان كثيرا من تلميذاتى الريفيات كن يحببننى ، وقد تأكد هذا الشعور حين آن لنا ان نفترق . وما كان أعمق تقديرى وعرفانى حين تبينت أن لى مكانة صادقة فى قلوبهن الساذجة غير المرائية . وقد وعدتهن بأننى لن أدع أسبوعا يمر فى المستقبل دون أن أزورهن، وأن ألقى عليهن درسا فى المدرسة !

وأقبل مستر ريفرز فى اللحظة التى صرفت فيها الفتيات الستين ، وأغلقت الباب ، ووقفت ممسكة بالمفتاح فى يدى ، أتبادل كلمات الوداع مع نفر من خيرة التلميذات ، كنت أراهن من أكثر شابات الريف البريطانى حشمة ، واحتراما، وتواضعا ، ومعرفة !.. وقال لى مستر ريفرز بعد انصرافهن : « أترين انك نلت جزاء طيبا عن الموسم الذى قضيته فى التعليم ؟ الا تجدين متعة حقا فى الشعور بأنك قد فعلت خيرا حقيقيا ليومك وجيلك ؟ » .. فهتفت : « بلا ريب » . قال: « ومع ذلك ، فأنت لم تجاهدى فى هذا السبيل سوى بضعة أشهر .. أفلا ترين ان حياة تكرس للنهوض بالجنس البشرى هى خير أنواع الحياة ؟ » . فقلت : « بلى ، ولكننى لا أستطيع ان أمضى أبد الدهر على هذا المنوال ، بل أحب أن أستمتع بما لدى من ميزات وخصال ، بمثل ما أنمى فى الغير خير الميزات والخصال !.. لابد لى من ان أستمتع بما أوتيت ، فلا تذكرنى بالمدرسة، فأنا

الآن خارج جدرانها ، وأصر على أن أحظى بأجازة كاملة ! » •• فتفرسني في قلق وقال : « ماذا هناك ؟•• ماهذا التلهف المفاجيء الذى يتولاك ؟•• ماذا تنتوين ان تفعلى ؟»

ـ أن أنشط •• وأنشط بقدر مافى طاقتى • على اننى أرجو أولا أن تسرح حنه ، وأن تبحث عن سواها لتقوم بخدمتك

ـ هل تريدينها ؟

ـ أجل •• أود أن آخذها معى الى (مورهاوس) ، فلن ينقضى أسبوع حتى تكون ديانا ومارى قد وصلتا ، وأحب أن يكون كل شيء معدا فى انتظارهما

ـ فهمت •• انما خيل الى أنك تريدين أن تفرى فى رحلة خلال العطلة • الخير فيما اخترت •• فلتذهب حنه معك !

قلت : « اذن فانبئها بأن تتأهب فى غد ، وهاك مفتاح المدرسة ، وسأعطيك مفتاح كوخى فى الصباح » • فتناول المفتاح وقال : « انك تسلمينه فى بساطة وانبساط •• الحق اننى لا أفهم سر ابتهاجك ، لاننى لا أدرى أى عمل تعتزمين أن تشغلى به نفسك عوضا عن هذا العمل الذى تنفضين منه يديك • أى هدف ، وأى غرض ، وأى مطمح لحياتك الآن ؟ »

ـ ان هدفى الاول هو « التنظيف التام » •• هل تعى المعنى الذى أحشده فى هذا التعبير •• سأنظف (مورهاوس) من أعلى حجراته الى أسـفلها • وهدفى الثانى ان أدلك أرضه بالشمع والزيت وعدد لا حصر له من الخلق البالية ، حتى تستعيد لمعانها •• أما هدفى الثالث ، فهو أن أنظم كل شيء من مقاعد ، ومناضد ، وأسرة ، وأبسطة ، فأنسقها فى دقة هندسية • وسأعمد بعد ذلك الى استنفاد كل مالديكم من فحم ووقود • لاشعل فى مدافيء الحجرات جميعـا نارا طيبة • وأخيرا ، سأكرس وحنه اليومين السابقين على وصول شقيقتيك فى خفق البيض ، وفرز الزبيب ، وطحن التوابل ، واعداد كعك عيد الميلاد وتهيئة المواد اللازمة للفطائر ، وأداء الطقوس المطبخية ، وان آثار أمثالك هذا التعبير •• أما غرضى فموجز : هو أن أرى كل شيء فى أكمل حال ، استعدادا لاستقبال ديانا ومارى فى يوم الخميس المقبل •• وأما مطمحى فهو أن أهييء لهما استقبالا مثاليا

وارتسمت على شفتى سانت جون ابتسامة خفيفة ، ولكنه لم يقنع بما قلت ، فقال : « لا بأس بهذا للفترة الراهنة ، ولكنى أعتقد جادا انك ـ اذا ماانقضت نوبة المرح العارمة هذه ـ ستتطلعين الى شيء يسمو على مافى الاعمال العائلية والتدبير المنزلى من مباهج » • فقاطعته قائلة : « ان هذه هى خير الاعمال فى الدنيا » • ولكنه استأنف الحـديث قائلا : « لا ياجين ، لا •• ان هذه الدنيا ليست مسرح راحة ونعيم مقيم ، فلا تحاولى ان تجعليها كذلك ! » •• فقلت : انما أعتزم العكس •• أن أعمل جاهدة »

ـ اننى ألتمس لك العذر ياجين فى الوقت الحاضر ، وسأسمح لك بشهرين كاملين تستمرئين فيهما الاستمتاع الكامل بمركزك الجديد ، وتبهجين نفسك بمفاتن القربى التى لم تحظى بها الا أخيرا • ولكننى آمل ـ بعد ذلك ـ أن تشرعى فى أن تتجاوزى ببصرك نطاق (مورهاوس) و (مورتون) وعشرة الشقيقتين ، والطمأنينة الانانية ، والراحة القائمة على ارضاء شهوات النفس ••

فتطلعت اليه مأخوذة ، وهتفت : « سانت جون ••أعتقد انك خبيث اذ تتكلم بهذا الشكل • اننى أحاول ان أقنع نفسى بأن تكون مغتبطة ، فاذا بك تزحزحنى الى القلق وعدم الاستقرار •• فما الغاية ؟ » •• فقال : « ان تتجهى الى النهاية التى تستغلين عندها المواهب التى أضفاها الله على كيانك ، والتى سيسألك عنها يوما ما حسابا عسيرا ولا ريب • لسوف أراقبك ياجين عن كثب ، وبعين واعية ، فاحذرى !•• حاولى أن تكبحى جماح الاندفاع الى المتع المنزلية والاقتصار عليها •• ولا تتشبثى بالروابط الدنيوية بهذه القوة • ادخرى حماسك ودأبك لقضية صالحة •• أتسمعيننى ياجين ؟ »••

★ ★ ★

◆ وما كان أسعدنى فى (مورهاوس) !•• وكم كان اقبالى على العمل !•• وكذلك كانت حنه ، فقد فتنت بما رأته من جدى وابتهاجى وسط الصخب الذى ساد بيتنا الذى قلبناه رأسا على عقب ،وأخذت ترقبنى لترى كيف أدلك الارض بالفرجون ، وكيف أنفض الغبار ، وكيف أنظف ، وكيف أطهو !•• والحق اننا شعرنا بهناءة اذ استطعنا بعد يومين من حكم الفوضى والهرج ، أن ننتزع أولى معالم النظام • وكنت قد قمت قبل ذلك برحلة الى مدينة (س) ، فابتعت بعض الاثاث الجديد ، اذ أطلق أبناء عمتى يدى فى استحداث ماراق لى من تبديلات ، وقررنا معا تخصيص مبلغ معين لهذا الغرض • ولقد تركت قاعة الجلوس العادية وغرف النوم كما كانت تقريبا ، اذ كنت أدرك ان ديانا ومارى تستشعران غبطة لمرأى المناضد والمقاعد والاسرة العتيقة ، تفوق تلك التى تداخلهما عند رؤية أكثر المستحدثات أناقة !•• على أنه كان لابد من تجديدات تشيع لونا من التبديل والحياة فى المناظر القديمة : فمن أبسطة وستائر قاتمة جديدة جميلة المنظر ، الى نخبة من التحف البرونزية والخزفية الطريفة انتقيت بعناية للزينة ، الى مفارش ومرايا ، وصوانات ومناضد للزينة جديدة ••وصح ماتوقعت ، فأضفت هذه الاشياء قبسا من الجدة وان لم تشع فى المكان بهرجة الجديد !•• وأعدت تاثيث قاعة للاستقبال ومخدع باكملهما ، مختارة لهما أثاثا من الخشب الموجنى القديم ، وأقمشة قرمزية ، وكسوت أرض الردهة بالمشمع ، كما فرشت الدرج بالابسطة • فلما تم كل هذا ، بدا لى (مورهاوس) مثالا للتالق المحتشم !

وأخيرا جاء يوم الخميس المرتقب ، وكان من المتوقع أن تصل الفتاتان حوالى الغروب ، ومن ثم أوقدت النيران فى مدافىء الطابقين منذ الاصيل ، وكان المطبخ فى أكمل مظهر ، وأنا وحنه فى أبهى ثيابنا ، وكل شيء فى أتم عدة ٠٠ وكان سانت جون أول الوافدين ، وكنت قد رجوته أن يبقى بعيدا عن البيت حتى يتم تجهيز كل شيء ٠ والواقع أن مجرد فكرة قلب نظام البيت ، على بساطته واعتداله ، كانت كافية لان تزعجه ٠ وألفانى فى المطبخ عند وصوله ، أرقب اعداد بعض الكعك للشاى ، ثم خبزه ، فتساءل وهو يقترب من المدفأة عما اذا كنت راضية عن ممارسة التدبير المنزلى ٠ وكان جوابى أن دعوته الى أن يرافقنى فى جولة يتفقد فيها أعمالى

وحملته بعد عناء على أن يجوس خلال البيت ، فكان يكتفى بالقاء نظرة خلال الابواب التى كنت أفتحها ، وبعد أن طاف بأرجاء البيت فى الطابق العلوى والطابق الاسفل ، قال اننى ولابد تجشمت قدرا كبيرا من العناء والتعب فى تحقيق كل هذه التغييرات الكبيرة فى مثل تلك الفترة القصيرة ٠ ولكنه لم ينطق بحرف واحد ينم عن اغتباط لما أصاب غرفته بالذات من تحسين ، فهبطت حدة تحمسى ، اذ خطر لى أن التعديلات ربما كانت قد أصابت بعض معالم يعتز بها ٠ وسألته فى ذلك ٠ ولابد ان لهجتى كانت موجسة ، مضطربة ، اذ بادر قائلا ان الامر على النقيض ، وانه لاحظ اننى راعيت كل المعالم فى حرص ، بل انه خشى أن أكون قد أوليت المسألة أكثر مما كان ينبغى من اهتمامى ٠ وكنا قد بلغنا قاعة الجلوس ، فاستطرد قائلا : « فكم من دقيقة – مثلا – قضيتها فى دراسة نظام هذه الغرفة بالذات ؟٠٠ وبهذه المناسبة ، هل لك أن تخبرينى أين الكتاب الذى كان هنا ؟ » ٠٠ وأريته الكتاب على رف فى الحجرة ، فتناوله من مكانه ، وحمله الى مجلسه المعهود عند حافة النافذة ، وشرع يتصفحه !

والواقع اننى لم أكن أحب هذا ، أيها القارىء ٠٠ لقد كان سانت جون رجلا طيبا ، ولكننى بدأت أشعر بأنه كان صادقا يوم قال عن نفسه أنه جاف ، بارد ٠ لم يكن لمجاملات الحياة وملابساتها الانسانية أى تأثير عليه ، ولا كان للمتع الهادئة أى سحر لديه ٠ والحق انه لم يكن يعيش الا للطموح ٠٠ وصحيح ان طموحه كان ينشد كل طيب وعظيم ، الا أنه مع ذلك جعله لا يستقر ولا يرضى عن استقرار من كانوا يعيشون حوله !٠٠ وبينما كنت أتأمل جبهته العالية – وقد بدت كحجر أبيض بجمودها وشحوبها – والى قسماته البديعة ، التى تركزت على الكتاب الذى كان بيده ، أدركت فجأة انه لايكاد يصلح لان يكون زوجا طيبا ، وان معاشرته ستكون مهمة مضنية على من تغدو زوجة له ٠٠ وكنت أفهم بغريزتى كنه حبه لمس أوليفر ٠ وأقره على أنه كان حبا ساميا ٠٠ حب حواس وليس حب جسد ٠ ولكننى اذ ذاك أدركت انه خليق بأن يحتقر

نفسه لما يفرضه هذا الحب عليه من انفعال محموم ، وحدست مدى الرغبة الخليقة بان تساوره للقضاء على هذا الحب ، ومدى عدم اطمئنانه الى مايستطيع هذا الحب أن يحققه من سعادة له أو للفتاة !

ورأيت أنه انما خلق من المعدن الذى اعتادت الطبيعة أن تصنع منه أبطالها - مسيحيين كانوا أو وثنيين - ومشرعيها ، وساستها ، وقادتها المظفرين ٠٠ مخلوقات كالكتل المتينة تعد لكى ترتكز عليها المهام الجسام ٠٠ ولكن الرجل من هذا الصنف يكون فى الحياة المنزلية مجرد مخلوق عابس ، كئيب ، لا يتناسق مع الجو المحيط به !٠٠ وجال بخاطرى : « ان قاعة الجلوس هذه ليست مجاله ، بل ان جبال الهيملايا ، أو أدغال (كافر) ، أو حتى ساحل غينيا الملىء بالمستنقعات والاوبئة ، قد يكون أكثر ملاءمة له من هذا المكان »

ودفعت حنه اذ ذاك باب حجرة الجلوس صائحة : « ها هما ذانك آتيتان ! ٠٠ لقد أقبلتا ! » ٠٠ ونبح « كارلو العجوز » اذ ذاك فى ابتهاج ، فهرعت الى الخارج ٠ وكان الظلام قد هبط ، ولكنى سمعت جلبة عجلات ٠ وسرعان ما أوقدت حنه مصباحا ، بينما أقبلت عربة وقفت لدى الباب الخارجى ، وبرز منها شكل جد مألوف ، ثم تبعه شكل آخر مثله ٠٠ وان هى الا لحظة حتى كان وجهى تحت حواف قبعتيهما ، وقد اتصل بخد مارى الناعم أولا ، ثم بجدائل ديانا المنسابة ٠٠ وأخذتا تضحكان وتقبلاننى ٠٠ ثم احتضنتا حنه ، وربتتا كارلو الذى كاد يجن فرحا ، وسألتا فى لهفة عما اذا كنت بخير ، فلما اطمأنتا ، اسرعتا الى داخل الدار

وكانت أطرافهما قد تيبست لطول جلوسهما وارتجاجات العربة التى أقلتهما من (هويتكروس) ، كما اخترقت برودة الليل الجليدية عظامهما ، ولكن أساريرهما اللطيفة سرعان ما انبسطت اذ حف بها الدفء المنبعث من المدفأة٠ وسألتا عن سانت جون بينما كانت حنه والحوذى يقلان متاعهما ٠ وأقبل القس الشاب من قاعة الجلوس فى تلك اللحظة ، فألقيتا بنفسيهما على صدره فى آن واحد ٠ وجاد على كل منهما بقبلة هادئة ، وغمغم ببضع كلمات ترحيب بصوت خفيض ، ووقف هنيهة يتحدث اليهما ، ثم قال انه يرجو ان تلحقا به فى قاعة الجلوس ، وانسحب عائدا الى مجلسه ، وكأنه يلوذ بمأوى يعتصم به !٠٠ وكنت قد أوقدت شموعا ، تأهبا للصعود الى الطابق العلوى ٠ فسرعان ما صعدتا وقد اغتبطتا للتجديدات والزينة التى أدخلت على غرفتيهما ، اذ اكتستا بستائر وأبسطة جديدة ، وأوعية للزهور من الخزف الحافل بالنقوش والالوان ، وأعربتا عن شكرهما فى اخلاص ٠ وسرنى أن تدبيراتى صادفت هوى من نفسيهما ، وأن مافعلته ضاعف من تألق ابتهاجهما بالعودة الى دارهما

* * *

وما كان أحلاها من ليلة !٠٠ فان ابنتى عمتى أفاضتا فى الحـــديث والتعليق وقد استخفهمـا الطرب ، حتى ان ثرثرتهما العذبة طفت على جمـــود سانت جون ٠٠ وكان صادق الابتهاج برؤية شقيقتيه ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يجاريهما فى تألق روحيها ، وتدفق فرحهما !٠٠ ولقد سره حادث اليوم ، وأعنى عودة ديانا ومارى ، ولكنه كان يضيق بملحقات هذا الحادث ، أعنى الصخب والمرح ، والثرثرة الطروب ٠٠ وتبينت أنه كان يتوق الى الغد ، لان الغد ولابد أهدأ من اليوم ٠٠ وفى غمرة استمتاعنا بالمساء ــ بعد تناول الشاى بساعة ــ اذا بطرقات على الباب ، ثم أقبلت حنه تقول ان « صبيا مسكينا جاء ، فى هذه الساعة غير الملائمة ، ينشد مستر ريفرز لان أمه كانت تحتضر » ٠ فسألها القس : « وأين تسكن ياحنة ؟ » ، فقالت : « على مقربة من هضبـة هويتكروس ، على أربعة أميال تقريبا ، فى طريق مليئة بالمستنقعات والطحالب!»

ــ اخبريه اننى قادم

ــ بل اعتقد ياسيدى ان من الخير أن لاتذهب ، فهذه أسوأ طريق تسير فيها بعد الغروب ، اذ أنك لايمكن ان تهتدى الى اتجاه خلال المستنقعات ٠ ثم ان الليل قر ، والريح زمهرير ، فيحسن بك ان تقول له انك ستذهب فى الصباح

ولكنه كان قد بلغ الردهة ، وهو يتدثر بعباءته ٠٠ثم رحل دون ما اعتراض أو كلمة ٠ وكانت الساعة قد بلغت التاسعة اذ ذاك ، فلم يعد الا حين انتصف الليل ، وقد أقبل جائعا ، متعبا ، ولكنه بدا أسعد مما كان قبل خروجه !٠٠ لقد أدى عملا من واجباته ، وقام بخدمة دينية ، وأحس بقدرته على العمل وعلى انكار الذات ، فرضى عن نفسه !

ويخيل الى ان الاسبوع الذى تلا ذلك كان بأسره عبئـا استنفد صبره !٠٠ كان اسبوع عيد الميلاد ، ولم تكن أمامنا مهمة معينة ، بل قضيناه فى لهـــو منزلى مرح ٠٠ وكان لهواء الآجام ، وللتحرر ، ولفجر الثراء أثر على نفسى ديانا ومارى كأثر الاكسير المجدد للحياة ، فكان الطرب يتملكهما من الصـــباح الى الظهر ، ومن الظهر حتى المســـاء ٠ وكانتا لاتكفان عن الـــكلام ، فكان لمناقشاتهما ، وحضور بديهتيهما ، وذكائهما فعل السحر فى نفسى ، حتى اننى كنت أوثر الانصات اليهما ومشاطرتهما الحديث على أى شىء آخر !٠٠ ولم يكن سانت جون يزجرنا لهذا الصخب ، ولكنه كان يفر بنفسه منه ، فنادرا ماكان يمكث بالدار ، اذ كانت أبرشيته واسعة ، وأهلها متناثرين ، فكان يجد فى زيارة المرضى والفقراء فى مختلف المناطق مايشغله يوميا !

وفى ذات صباح ، استغرقت ديانا فى التفكير بضع دقائق ــ أثناء الافطار ــ ثم سألته عما اذا كان قد بدل مشروعاته ، فاذا جوابه : « لم تتبدل ، وليست

قابلة للتبديل ! » . ثم أنبانا بأنه قد تقرر - بصفة نهائية - ان يرحل عن انجلترا خلال العام التالى . فتساءلت مارى : « وروزا موند أوليفر ؟ » . والظاهر أن الكلمات أفلتت من شفتيها على الرغم منها ، اذ لم تكد تنطق بها، حتى بدرت منها اشارة ، وكأنها تهم بأن تستردها . وكان سانت جون ممسكا بكتاب - اذ كان من عاداته المستهجنة أن يقرأ أثناء الطعام - فأغلق كتابه ، وتطلع الينا ، قائلا : « ان روزا موند أوليفر توشك أن تتزوج من مستر جرانبى ، وهو من أحسن أبناء (س) وسطا ومكانة ، كما انه حفيد ووريث سير فردريك جرانبى .. لقد سمعت النبأ من أبيها أمس »

ونظرت كل من أختيه الى الاخرى ، ثم الى ، ثم نظرنا ثلاثتنا اليه ، فاذا به جامد الاسارير كالزجاج !..

ووجدتنى مسوقة - فى أول مرة وجدت فيها سانت جون وحيدا بعد هذا النبأ - الى أن أسأل عما اذا كان الحدث قد أكربه ، ولكنه بدا أقل مايكون حاجة الى العطف ، حتى اننى شعرت بشىء من الخجل لما أبديت من اشفاق ، لاسيما واننى لم أعتد الحديث معه فى الفترة الاخيرة ، اذ عاد تحفظه وكتمانه يحيطانه بغلاف جليدى ، طمر صراحتى تحت طبقاته .. ولم يف بوعده أن يعاملنى كما يعامل شقيقتيه ، بل كان يقيم باستمرار فوارق بسيطة بينناتشيع البرودة فى علاقتنا ولا تساعد على نمو المودة . وقصارى القول اننى وقد تكشفت قرابتنا وأصبحنا نعيش تحت سقف واحد ، بدأت أشعر بالتباعد يتسع بيننا أكثر مما كان عندما كنت مجرد معلمة القرية !.. وكنت كلما تذكرت المدى الذى أباح لى مرة أن أتمادى اليه فى مصارحته ، أعجز عنادراك سر جموده البارد الراهن . ومن ثم لم تكن دهشتى بالبسيطة عندما رفعرأسه وقال : « أترين ياجين ؟.. لقد خضت المعركة ، وفزت بالنصر ! »

وأجفلت لهذه المبادرة ، فلم أجب لفورى ، بل ترددت لحظة قبل ان أقول : « ولكن ، هل تراك متأكدا من انك لست كأولئك المظفرين الذين تكبدهم انتصاراتهم ثمنا غاليا ؟.. الا يقضى عليك انتصار آخر من هذا القبيل ؟ » . فقال : « ما أظن .. وحتى لو كان الامر كذلك ، فهو لايعنينى فى كثير ، لاننى لن أضطر الى أن أكافح من أجل انتصار آخر من هذا القبيل . لقد كانت معركتى حاسمة ، وأصبحت الطريق أمامى ممهدة خالية من العقبات .. وأحمد الله على ذلك ! » . وما ان قال هذا ، حتى عاد الى أوراقه وصمته !

واذ بدأت السعادة المشتركة - التى كانت تسودنى وديانا ومارى - تستقر وتتخذ طابعا أكثر هدوءا ، وعدنا الى مألوف عاداتنا ودراساتنا المنتظمة ، أخذ سانت جون يطيل مكثه فى البيت ، ويجلس معنا فى غرفة واحدة لعدة ساعات أحيانا .. وبينما كانت مارى تنهمك فى الرسم ، وديانا تنصرف الى القراءة

فى دائرة المعارف ـ فى انتظام ومثابرة أدهشانى وأثارا اعجابى ـ وأنا اشق طريقى فى ميدان اللغة الالمانية ، كان سانت جون يعكف على درس خاص لاحدى اللغات الشرقية التى كان يرى تحصيلها ضروريا لمشروعاته .. وكان يبدو مستغرقا ، وهو فى مجلسه المنعزل الهادىء . بيد ان عينيه الزرقاوين اعتادتا أن تبارحا كتاب قواعد هذه اللغة الاجنبية ، لتحوما فى فضاء الغرفة ، أو تستقرا أحيانا علينا ـ معشر زميلاته فى الدراسة ـ فى انتباه غريب ، فاذا فوجىء فى هذه الحال ، ارتدت نظراته فى الحال ، ولكنها كانت لاتلبث دائما أن تعود الينا متفحصة !.. وكنت أتساءل فى نفسى عن معنى هذه النظرات، كما أخذت أعجب لحرصه ومثابرته على ابداء ارتياحه لمناسبة كانت تبدو لى قليلة الاهمية .. تلك هى زيارتى الاسبوعية لمدرسة (مورتون) . وكان عجبى يستحيل الى نوع من الدهشة الحائرة عندما تهيب بى شقيقتاه فى الايام غير المناسبة ـ حين تنهمر الثلوج ، أو يهطل المطر ، أو تشتد الرياح ـ ان لا اذهب ، فاذا به فى كل مرة يستخف منهما هذا القلق ، ويشجعنى على أن أؤدى مهمتى دون أن أحفل بعوامل الطبيعة . فكان يقول : « ان جين ليست بضعيفة الارادة الى الدرجة التى تظهرانها عليها ، ففى طاقتها أن تحتمل ريح الجبال ، أو رذاذ المطر ، أو بضع الكسف المتساقطة من الجليد كأى واحد منا .. ان بنيانها متين ومرن ، أعد بحيث يحتمل تقلبات الطقس الى درجة تفوق احتمال كثير ممن يفوقونها بدانة »

★ ★ ★

✦ ولم أكن أجرؤ على الشكوى ، اذا ماعدت مكدودة ، وقد أرهقنى الطقس ، لاننى كنت أعرف أن أتفه تذمر كفيل بأن يكدره .. فقد كانت قوة الاحتمال تسره فى كل الاحوال ، وكان العنف يسوؤه بوجه خاص . على أننى ـ فى أصيل ذات يوم ـ سمحت لنفسى بالبقاء فى المنزل ، لاننى كنت مصابة ببرد شديد ، ومن ثم ذهبت شقيقتاه الى (مورتون) بدلا عنى ، فجلست أقرأ أشعار شيللر ، بينما كان منهمكا فى حل طلاسم لغته الشرقية . واذ تحولت الى الترجمة ، كوسيلة للترويح ، بدرت منى نظرة فى اتجاهه ، فاذا بى اجد نفسى تحت سيطرة العينين الزرقاوين اللتين لم تكونا تكفان عن التمعن !.. وليس بوسعى أن أعرف كم ظلتا تتأملاننى وتشملاننى بنظراتهما ، ولكن الذى أعرفه هو أنهما كانتا حادتين ، وباردتين فى آن واحد . وداخلنى وهم موجس للحظة .. وكأننى كنت اجلس فى غرفة واحدة مع خطر خفى !

وسألنى : « ماذا تفعلين ياجين ؟ » ، فقلت : « ادرس الالمانية »

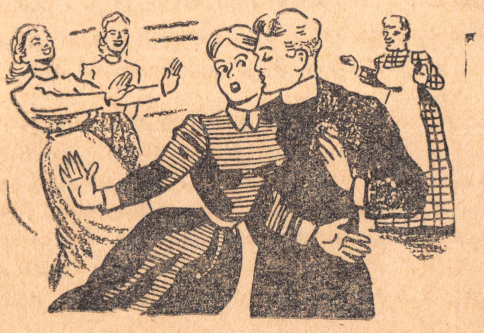
ـ اريدك على أن تتحولى عن الالمانية ، فتدرسى الهندوستانية

ـ ما أظنك جادا فى هذا الاقتراح !

ـ بل اننى جاد الى درجة تجعلنى الح فى ذلك ، وسانبئك بالسبب
ومضى يذكر لى ان الهندوستانية هى اللغة التى كان يدرسها اذ ذاك ، وانه كان مضطرا الى أن يظل مستذكرا المبادىء كلما أوغل فى اللغة ، ومن ثم فقد كان من أكبر العون له ، ان يجد تلميذا يسترجع معه المبادىء مرارا وتكرارا ، ومن ثم يتمكن من تثبيتها فى ذهنه ٠٠ وقال ان ذهنه تأرجح زمنا بينى وبين أختيه ، ثم استقر على ، لانه رأى اننى أقدر الثلاث على أن أجلس طويلا للدرس ٠ وسألنى : أأسدى اليه هذا الصنيع ؟٠٠ ثم طمأننى الى أننى قد لا أضطر الى المضى فى التضحية طويلا ، اذ لم يبق على رحيله أكثر من ثلاثة اشهر !

وألفيته صبورا ، طويل الاناة ، ولكنه كان ـ فى الوقت ذاته ـ مدرسا حازما ، فكان يطالبنى بجهد كبير ، فاذا وجدنى قد أديت ماطلب ، شهد ـ بطريقته الخاصة ـ بحسن اختياره ٠ وبالتدريج ، اكتسب لنفسه نفوذا على ، حد من حرية فكرى ، فاذا اطراؤه واهتمامه لايقلان تأثيرا على الاعصاب من عدم اكتراثه ٠٠ ولم أعد اتكلم أو أضحك متحررة أثناء وجوده ، لان حاسة خفية ، ملحاحة ، كانت لاتفتأ تذكرنى بأن خفة الروح ـ من ناحيتى على الاقل ـ كانت مكروهة لديه !٠٠ كنت أذكر دائما ـ والى درجة مزعجة ـ انه لايرضى الا عن الطباع والاعمال الجادة الرزينة ٠ وما لبثت ارادتى أن بدأت تتجمد وتبرد ، فأصبحت أذهب اذا قال : « اذهبى ! » ، وأجىء اذا قال : « تعالى ! » ، وافعل الشىء اذا قال : « افعلى هذا ! » ٠٠ على اننى لم أحب هذه العبودية ٠٠ وكم من مرة تمنيت لو انه واصل اهماله شأنى !

وحدث ذات مساء ، عندما التففت وأختاه حوله ـ فى موعد النوم ـ لنحييه ونتمنى له ليلة طيبة ، ان قبل أختيه كعادته ، ثم بسط لى يده ٠٠ كعادته



أيضا !٠٠ وكانت ديانا فى تلك الليلة فى عنفوان مرحها ، اذ كان من الشاق عليه ان يفرض عليها ارادته ، فقد كانت شخصيتها لاتقل عن شخصيته قوة٠٠ فهتفت : « لقد اعتدت ياسانت جون أن تدعو جين شقيقتك الثالثة ، ولكنك لا تعاملها معاملة الشقيقة ، فلماذا لاتقبلها هى الاخرى ؟ » ٠٠ ودفعتنى نحوه، فشعرت بأنها كانت غاية فى المضايقة ، وشعرت باستياء أمضنى ٠٠ وفيمـا كنت فى هذا الشعور ، حتى سانت جون رأسه ، وقرب وجهه ذا الجمـال اليونانى من وجهى ، وأخذت عيناه تسائلان عينى بنظرة ثاقبة ٠٠ ثم قبلنى ! ٠٠ وما أدرى بوجود قبلات رخامية ، أو قبلات جليدية ، والا لقلت ان قبلة ابن عمتى القس كانت من هذا الطراز ، ولكن هناك قبلات تجريبية ، اختبارية ٠٠ وقد كانت قبلته من هذا الصنف ! ٠٠ فقد تأملنى بعدها ليعرف النتيجة٠ ولكنها لم تكن رائعة ، وانى لواثقة من ان وجهى لم يتضرج حياء ، ولكننى ربما امتقعت قليلا ، لاننى أحسست كأنما كانت هذه القبلة خاتما يثبت اغلالى ٠ولم يتخل بعد ذلك عن هذه العادة ، وكأنما كان الوقار والرزانة اللذان اعتدت ان أتلقى بهما القبلة مبعث فتنة خاصة له !

أما من ناحيتى ، فقد كنت أزداد رغبة ـ يوما بعد يوم ـ فى ان أرضيه ، ولكننى كنت أزداد شعورا ـ يوما بعد يوم أيضا ـ بأننى مضطرة فى سـبيل ذلك الى أن أتحلل من نصف طبيعتى ، وان أختق نصف خصالى ، وان أناضل أذواقى لاحولها عن اتجاهاتها الاصلية ، وأقسر نفسى على انتهاج أشياء لم يكن لدى ميل طبيعى نحوها !٠٠ كان يحاول ان يدربنى على أن أرقى الى مستوى لا أملك قط أن أبلغه ، وكان التطلع الى المستوى الذى يريده يرهقنى ٠ كان الامر ضربا من المستحيل ٠٠ تماما كما لو أردت أن أصوغ قسمات وجهى غير المنتظمة وأصبها فى قالب الجمال اليونانى العريق كوجهه ٠٠ أو كما لو أردت ان أحول خضرة عينى ، الى الزرقة المتلألئة ، العميقة ، التى كانت تصبغ عينيه!

على أن السمو الى المستوى الذى كان يبغيه لم يكن الغل الوحيد الذى قيد حريتى اذ ذاك ٠ فلقد أصبح من السهل على فى الفترة الاخيرة ، ان أستسلم للحزن ، اذ جثم على قلبى شر نهم راح يمتص سعادتى من جـذورها ٠٠وكان ذلك الشر هو : الشك !٠٠ فلعلك أيها القارىء قد ظننت اننى نسيت مستر روشستر وسط التطورات التى ألمت بمركزى وحظى ٠ ولكننى لم أنسه لحظة واحدة ٠٠ كانت ذكراه لاتزال تلازمنى ، لانها لم تكن مجرد شـعاع شمس لا تلبث ان تافل ، ولا كانت أثرا على رمل لا تلبث العاصفة ان تذروه ، وانما كانت اسما حفر فى قلبى ليبقى مابقى ذلك القلب !٠٠ وكان الشوق لمعرفة ماصار اليه آمره يلاحقنى فى كل مكان ٠٠

ولقد سألت مستر بريجز ـ أثناء مراسلتى اياه بصدد الوصية ـ عما اذاكان

يعلم شيئا عن مقر مستر روشستر أو صحته ، ولكنه - كما حدس سانت جون - كان يجهل كل شيء عنه .. فكتبت الى مسز فيرفاكس أستجديها بيانات عن الموضوع ، وأنا موقنة من اننى سأتلقى منها جوابا فى أقرب فرصة .وكم دهشت حين انقضى أسبوعان دون أن أتلقى ردا .. فلما انصرم شهران والبريد يصل - يوما بعد يوم - دون ان يحمل لى ردا ، وقعت فريسة لاقسى أنواع القلق .. فكتبت مرة أخرى ، معللة النفس باحتمال ان يكون خطابى الاول قد فقد .. وتجدد الامل فى نفسى مرة بعد مرة ، وظل مشرقا لبضعة أسابيع ، ثم أخذ يخبو .. اذ لم يصل الى سطر ولا كلمة !.. وعندما انقضى نصف عام فى الانتظار دون طائل ، مات أملى ، فعدت أتخبط فى ظلام حقيقى!

وأقبل الربيع جميلا ، ولكننى لم أستمتع به .. واقترب الصيف .. وكانت ديانا تحاول ان تدخل السرور الى قلبى ، فقالت اننى أبدو معتلة الصحة ورغبت فى ان تصطحبنى الى شاطىء البحر . وعارض سانت جون قائلا اننى لم أكن فى حاجة الى راحة وكسل ، وانما كنت فى حاجة الى مايشغلنى ، لان حياتى الراهنة كانت بلا غرض ، فأنا محتاجة الى هدف . وأحسبه - لكى يقيم العراقيل - قد أطال أمد الدروس الهندوستانية التى كنت أتلقاها ، وزاد من الواجبات التى كان يتعجلنى اداءها ، وأنا كالبلهاء لا أفكر قط فى مقاومته .. بل ماكنت أملك أن أقاومه !.. الى أن أقبلت على الدرس ذات يوم ، بنفس مثقلة أكثر من المعتاد ، اذ زاد من أساى استياء بالغ . فقد أنبأتنى حنه فى الصباح ان ثمة خطابا وصل باسمى ، فلما هبطت لاتسلمه وكلى ثقة فى انه يحمل الانباء التى طال ارتقابى اياها ، وجدت انه مجرد مذكرة تافهة من مستر بريجز بشأن بعض الاعمال . وانتزعت الصدمة المريرة بعض دموع من عينى . فلما جلست أحملق فى الحروف الهندية - فى وقت الدرس - عادت الدموع تنبثق !.. ودعانى سانت جون الى جواره لاقرأ ، فلما حاولت القراءة عصانى صوتى ، واختنقت الكلمات فى فيض من العبرات . ولم يكن فى حجرة الجلوس سوانا ، اذ كانت ديانا تتدرب على الموسيقى ، بينما كانت مارى تفلح الحديقة ، فقد كان اليوم من أيام شهر مايو البديعة ، الصحوة ، ذات الشمس المشرقة والنسيم العليل

ولم يبد زميلى دهشة لجيشان عواطفى ، ولا سألنى سببا ، وانما قال : « سننتظر بضع دقائق ياجين ، ريثما تتمالكين جأشك ! » .. وبينما رحت أهدىء الانفعال فى عجلة ، جلس هادئا ، صابرا ، معتمدا على مكتبه ،كطبيب يرقب بعين العلم أزمة متوقعة فى داء مريضه ومعرفة الدواعى . واذ كتمت عبراتى ، وجففت عينى ، تمتمت ببضع كلمات متعللة بأننى لم أكن مكتملة الصحة فى ذلك الصباح ، ثم استأنفت الدرس ، وأفلحت فى اتمامه

وما لبث سانت جون أن نحى كتبي وكتبه ، وأغلق درجه ، وقال :
ـ الآن ياجين ، ستخرجين للنزهة .. ومعى أنا !
ـ سأدعو ديانا ومارى لمرافقتنا
ـ لا ، لست أريد سوى زميلة واحدة فى هذا الصباح ، ولابد من انتكونى أنت هذه الزميلة ، فارتدى ثياب الخروج ، وانصرفى من باب المطبخ ،واسلكى الطريق المتجهة الى (مارش جلين) وسألحق بك فورا

ولم أهتد الى مسلك وسط .. بل اننى فى حياتى لم أعتد ان أجد مسلكا وسطا ازاء الشخصيات الايجابية القوية التى تناقض شخصيتى .. أجل ،لست أعرف مسلكا وسطا بين الخضوع المطلق ، وبين التمرد العنيد . ولقد طالما ظللت أتبع باستمرار أحد المسلكين الى غايته .. الى أن يبلغ عنفوانه ثم ينفجر ويتحول الى المسلك الثانى ، فى قوة تشبه انفجار البركان أحيانا . ولماكانت ظروفى الراهنة لا تميل الى الثورة ، ولا كان مزاجى الحالى يتجه الى التمرد ، فقد ثابرت فى عناية على الرضوخ لتوجيهات سانت جون . ومن ثم فلمتنقض عشر دقائق حتى كنت أسير فى درب مهجور نحو واد صغير .. وسانت جون بجانبى !

★ ★ ★

● وكان النسيم يهب من الغرب مارا على التلال حيث يتزود بشذىالزهور البرية ، والسماء صافية الزرقية ، والجدول ينحدر على السفح مترعا بمياه الربيع المنصرم ، فيفيض وفيرا وقد انعكست على مياهه الصافية أشعة الشمس الذهبية .. واذ تحولنا فى سيرنا عن الدرب ، رحنا نطأ أرض معشوشبة ، ذات خضرة زمردية ، توشيها زهور بيضاء دقيقة الاحجام ، وترصعها ورود صفراء كالنجوم .. وقد أحاطت بنا التلال ـ فى الوقت ذاته ـ فحجبتنا عن العالم ، داخل الوادى الصغير .. وبلغنا طلائع صخور قامت كحراس للذودعن خور صغير وسط الجبال ، فقال سانت جون : « لنسترح هنا ! »

وجلسنا ، فمكثنا نصف ساعة لا نتكلم ، حتى اذا انقضت هذه الفترة ،شرع يقول : « سأرحل بعد ستة أسابيع ياجين ، وقد حجزت مكانا على الباخرة « ايست انديامان » التى تقلع فى العشرين من يونيو » . فقلت : «ليحمك الله مادمت قد آثرت أن تضطلع برسالته » . قال : « أجل ، ففى هذا مجدى واغتباطى .. اننى فى خدمة مولى منزه عن الخطأ ، فلست منطلقا تحت قيادة انسان ، ولن أكون عرضة للقوانين الناقصة ، ولا لسيطرة خاطئة من آدميين مثلى .. حشرات ضعاف !.. ان مليكى ، ومشرعى ، وقائدى ، هو الكمال المطلق . ولكم يبدو غريبا لى ان كل من حولى لا يتحرقون شوقا الى انينضووا تحت نفس اللواء ، وان يعملوا فى نفس الميدان ! »

- ليس للجميع ما أوتيت أنت من قوة . ومن الغباء أن يهفو الضعاف الى السير مع الاقوياء

- لست أتحدث الى الضعاف أو أفكر فيهم ، وانما أخاطب الشخص الذى أعرفه جديرا بالعمل ، وقادرا على أدائه

- هؤلاء قلة فى العدد ، حتى ليتعذر اكتشافهم

- الحق ماقلت ، ولكن من الصواب ايقاظهم اذا ما وجدناهم .. من الصواب حثهم واستثارة جهودهم ، وارشادهم الى ما أوتوا من مواهب ونعم .. من الصواب أن نلقى على أسماعهم رسالة السماء ، وأن ندعوهم - باسم الله - لكى ينالوا مكانا بين المقربين اليه

- اذا كانوا أهلا للرسالة حقا ، أفما كانت قلوبهم تدعوهم قبل أن يدعوهم البشر ؟

وشعرت كأن سحرا رهيبا يتجمع حولى ، وينعقد فوقى ، ورحت أرتجف متوقعة أن اسمع كلمات مخيفة تتضمن تعويذة السحر الغامض .. وسألنى سانت‌جون : « وبماذا يحدثك قلبك ؟ » فأجبت وأنا مشدوهة ، مذهولة : « ان قلبى أخرس .. قلبى أخرس ! » .. ولكنه قال فى لهجة عميقة ، ملحاحة : « اذن فلابد من ان أتكلم باسمه .. تعالى معى الى الهند ياجين ، تعالى كزميلة ومساعدة » .. ودارت السماء والوادى فى نظرى ، واهتزت التلال .. وكأنما سمعت نداء من السماء ، وكأنما تمثل لى رسول كريم يهيب بى : « تعالى وساعدينا ! » .. ولكننى لم أكن من طبقة الرسل ، فلم أشأ أن أرى الرسول ، ولا أن أتلقى نداءه ، بل صحت : « أواه ياسانت جون ! .. ارحمنى ! » .. ولكننى كنت أتوسل الى شخص ما كان يعرف رحمة أو اشفاقا فى سبيل أداء ماكان يعتقده واجبا ، فاستأنف حديثه قائلا : « لقد أعدك الله والطبيعة لكى تكونى زوجة مبشر ، ومن ثم فهما لم يخلعا عليك ميزات جسدية ، وانما آثراك بميزات عقلية .. فأنت انما خلقت للعمل ، لا للحب .. ولابد لك من أن تكونى زوجة مبشر .. ستكونين زوجتى .. اننى أدعوك ، لا لمتعتى ، وانما لخدمة المولى ! » .. فقلت : « لست أصلح لذلك »

ولكنه كان قد حسب حساب هذه الاعتراضات الاولية ، فلم يضطرب لها ، وانما أسند ظهره الى صخرة خلفه ، وعقد ذراعيه على صدره ، وخلع على أساريره جمودا ثابتا .. ورأيت انه قد أعد نفسه لمعارضة قوية ، طويلة ، وتزود من الصبر بذخيرة ، ووطد العزم على أن يكون النصر له فى النهاية . وراح يقول : « ان التواضع ياجين هو أساس كل الفضائل المسيحية ، وانك لعلى حق اذ تقولين انك لاتصلحين للعمل ، ولكن .. منذا الذى يصلح له ؟ .. أو منذا الذى كان يؤمن بجدارته للرسالة ، عندما دعى لادائها ؟ فأنا - مثلا -

لست سوى رماد وهشيم ، وعندما قارنت نفسى بالقديس بولس ، اعترفت بأننى أكبر مذنب ، بيد اننى لا أتعذب بهذا الشعور الى الدرجة التى تقعد بى عن العمل . اننى أعرف زعيمى وقائدى : فهو عادل كما هو جبار ، واذا كان قد اختار أداة ضعيفة - مثلى - لاداء مهمة جليلة ، فانه ولا شك سيسد نقص الاداة من خزائن حكمته التى لا حدود لها .. فكرى كما أفكر ياجين ! »

- اننى لا أفقه حياة العاملين فى التبشير ، وما درست يوما مهامهم

فقال : « ها أنذا - على ضآلة قدرى - أقدم لك ماتبغين من عون . اننى أستطيع ان أبصرك بالمهمة من ساعة الى أخرى ، وأن أقف الى جوارك دائما ، فأساعدك فى كل لحظة .. أجـل ، أستطيع ان أفعل هـذا فى البداية ، وسرعان ما ستصبحين مثلى قوة وكفاءة ، ولا تحتاجين الى معونة منى .. فأنا أعرف مدى مقدرتك ! »

- مقدرتى ؟! .. أين هى لمثل هذه المهمة ؟ .. اننى لا أحس بها . لا شىء يهتف أو يتحرك فى أعماقى عندما تتكلم أنت .. لست أحس بضـوء ينبثق فى نفسى .. ولا أشعر بالحياة تتدافع ، أو بهاتف يرشدنى ويسرى عنى .. أواه ! .. لكم أتمنى ان أوتى القدرة على أن أريك فى هذه اللحظة ان فكرى أشبه بوهدة مظلمة ، لا يعمر جوفها سوى لون واحد من الخوف ، يرقد مكبلا، مرتعبا .. انه الخوف من ان يؤثر فى اغراؤك فأحاول ما لا أملك تحقيقه !

- لدى جواب أرد به ، فاسمعيه .. لقـد راقبتك مذ لقيتك أول مرة ، وجعلتك موضوع دراستى لعشرة أشهر ، واستطعت أن أختبر استعداداتك بعدة اختبارات ، فما الذى انتهيت اليه ؟ .. لقد وجدت فى مدرسة القرية ان بوسعك أن تؤدى - بمهارة واستقامة ودأب - عملا لا يتلاءم مـع عاداتك وميولك .. رأيت ان بوسعك ان تؤديه بمقدرة وبراعة ، وان تكسبى القلوب بينما تسيطرين على أصحابها وتحكمينهم وتخضعينهم للنظام .. وفى الهدوء الذى تلقيت به نبأ الثروة التى آلت اليك ، رأيت ذهنا بريئا من رذيلة حب الذهب .. فليس لمتاع الدنيا سلطان عليك .. وفى مبادرتك الحاسـمة الى تقسيم ثروتك الى أربعة أقسام ، لتحتفظى بواحد منها ، وتدفعى بالثلاثة الى من رأيت أنهم أصحابها شرعا ، رأيت نفسا تنتعش وتحيا فى نيران التضحية .. وفى انصياعك لى وتحولك عن دراسة كنت معنية بها ، الى أخرى لمجرد أنها كانت تهمنى ، رأيت ما أنشد من خصال .. انك ياجين وادعـة ، مثابرة ، لا تنساقين بمصلحة دنيوية ، وانك لمخلصة ، وفية ، شجاعة ، جد رقيقة ، وأهل للبطولة . فكفى عن فقدان الثقة فى نفسك ، اذ أننى أثق فيك عـلى طول الخط ودون تحفظ . ولسوف تكون معونتك لى - كمرشدة فى المدارس الهندية ومساعدة فى نشر رسالتى بين الهنديات - فوق كل تقدير !

★ ★ ★

◆ وانكمشت معارضتى .. واوغل الاغراء متغلغلا فى نفسى بخطى بطيئة ولكنها أكيدة ، فاذا كلماته الاخيرة هذه تشق طريقها - وأنا مغمضة العينين - وتقتحم ماكان هناك من سدود ومتاريس .. وراح يرتقب الجواب ، فاستمهلته ربع ساعة لافكر . وقال : « عن طيب خاطر ! » ، ثم نهض فسار قليلا نحو الخور ، ثم ارتمى على الارض المعشوشبة ، وظل راقدا هناك . بينما رحت أقول لنفسى : « بوسعى أن أقوم بما يبتغيه ، اذا أنا استغنيت عن الحياة . ولكننى لا أشعر بأن كيانى يحتمل العيش طويلا تحت شمس الهند . فماذا فى ذلك ؟.. انه لا يحفل بالامر كثيرا ، واذا حانت منيتى فسوف يسلمنى فى هدوء ووقار الى الله الذى ساقنى اليه .. ان الامر واضح أمامى . فاننى اذا غادرت انجلترا ، فانما أغادر بلدا أحبه ولكنه خاو من كل مايشدنى اليه.. اذ أن مستر روشستر لايقيم فيه . بل ماقيمة وجوده لو انه كان يقيم فيه ؟ .. لقد أصبح حتما على أن أعيش بدونه ، وليس هناك ماهو أسخف وأبدى للضعف من أن أجرر أذيال العمر يوما بعد يوم ، فى انتظار تغير مستحيل فى ظروفى ، يضمنى ثانية الى الرجل الذى أحببت .. ان على فعلا ان أبحث عن شىء آخر فى الحياة أصب عليه اهتمامى ، بدلا من ذاك الذى فقدت ..أفليست المهمة التى يعرضها على سانت جون ، هى أجل مايقوم به انسان ، أو يفرضه اله ؟.. أفليست - بأعبائها النبيلة ونتائجها السامية - هى خير مهمة تملأ الفضاء الذى خلفه حب ممزق ، وآمال مقوضة ؟.. أعتقد ان لابد لى من ان أجيب بالموافقة .. ولكننى مع ذلك أرتجف ! فوالهفتاه !.. اننى اذا استجبت لسانت جون ، فسأتخلى عن نصف نفسى ، واذا أنا ذهبت الى الهند ، فسأسعى الى موت سابق الاوان .. ثم ، كيف أملأ الفترة بين مبارحة انجلترا الى الهند ، ومبارحة الهند الى القبر ؟.. ثم اننى أعرف سانت جون ، وأعرف مايرضيه وما يتوقعه ، فبالذهاب معه لابد لى من ان أضحى بكل شىء ، فالقى على المذبح بقلبى ، ومشاعرى الحيوية ، وكل شىء !.. وهو لن يحبنى اطلاقا ، ولكنه سيرضى عن عملى .. سأريه ألوانا من النشاط لم يرها أبدا وموارد للقوة لم يتوقعها قط .. اذن فلأقبل مايعرضه .. بيد ان هناك نقطة واحدة مقيتة لدى .. تلك هى ان أغدو زوجته ، مع انه لم يؤت قلبا يتحرك لى بأكثر مما تتحرك الصخرة القائمة الراسخة !.. انه انما يقدرنى كما لو كنت جنديا .. لا ، ان مثل هذا الاستشهاد أفظع من ان يحتمل .. اذا كان لابد من ان أصحبه ، فلأصحبه كأخت ، وليس كزوجة »

وتطلعت الى حيث كان مستلقيا ، فاذا عيناه ترقباننى فى اهتمام ودقة وامعان . ونهض مستويا على قدميه ، ثم اقترب منى . فقلت

– اننى على استعداد لأن أذهب الى الهند ، اذا جاز لى أن أبقى حرة
– ان جوابك فى حاجة الى ايضاح ، لانه غير جلى
– لقد كنت حتى الآن أخا لى ، كما كنت أنا أختا لك ، فلنستمر على هذا الوضع ، ومن الخير لنا ألا نتزوج

فهز رأسه قائلا : « ان الاخوة التى بيننا لا تصلح فى هذه الحالة . ولو انك كنت أختى الشقيقة حقا ، لاحسب الوضع ، ولاصطحبتك دون ان أبحث عن زوجة . أما وهذا وضعنا ، فلابد لصلتنا من ان تكتسب صبغة شرعية بالزواج ، والا فلن يكون لها وجود .. فكرى قليلا ياجين ، وسوف يرشدك ادراكك القوى الى الوضع ! » .. ولكن ادراكى لم يرشدنى الا الى اننا لم نتحاب كما ينبغى لأى زوجين أن يتحابا ، ومن ثم فلا ينبغى لنا ان نتزوج . ومن ثم قلت : « اننى اعتبرك أخا ياسانت جون .. وانت تنزلنى من نفسك منزلة الاخت ، فلنبق كذلك » . فأجاب فى عبارات حاسمة ، قصيرة : « لا نستطيع .. لا نستطيع .. لقد قلت انك ستذهبين معى الى الهند ، فتذكرى هذا .. لقد قلته »

– ولكننى ربطته بشرط

– حسنا ، فلنتمسك بالنقطة الرئيسية .. الرحيل معى ، والتعاون فى جهودى المقبلة .. انك لا تعارضين فى هذين . لقد وضعت يدك على المحراث، فلم يعد أمامك الا أن تتدبرى خير الطرق لاداء العمل .. حاولى ان تبسطى ماهو معقد من مصالحك ، وأفكارك ، ورغباتك وأهدافك وامزجى كل الاعتبارات فى غرض واحد .. هو ان تؤدى المهمة على خير وجه .. ولكى تفعلى ، لابد لك من قرين ، وليس أخا .. اننى أنشد زوجة ، فهى الشريك والمعين الاوحد ، الذى أستطيع ان أوجهه فى الحياة ، وأن أظل محتفظا به حتى الممات !

وأخذت أرتجف وهو يتكلم .. كنت أحس بسلطانه ينفذ الى عظامى ، وبقبضته تشد على أطرافى . وهتفت : « ابحث عن سواى ياسانت جون .. ابحث عن واحدة تصلح لك » . فقال : « تعنين واحدة تصلح لمهمتى .. لغرضى !.. اكرر لك اننى لا أنشد الشخص الذى لا قيمة له .. لا أنشد انسانا ، بما للانسان من ادراك أنانى ، وانما أنا أنشد رسولا مبشرا » .

– أواه !.. سأهب الله قلبى .. ولكنك لست بحاجة اليه

★ ★ ★

◆ ولن أقسم أيها القارىء على ان هذه العبارة ، والاحساس الذى صاحبها، كانا خاليين من شىء من السخرية المكبوتة . كنت حتى تلك اللحظة أخاف سانت جون فى صمته ، لاننى لم أفهمه ، وما فرض على سلطانه الا لانه كان يستبقينى فى غمرة الشك . ولم يكن بوسعى – حتى ذاك الوقت – ان أدرك

مدى ما كان فى شخصيته من تقوى ، ومدى ما كان فيها من مطامع دنيوية ، ولكن الحجب بدأت ـ اذ ذاك ـ تتكشف أمام عينى عن طبيعته ٠٠ فتبينت انه غير معصوم من الخطأ ، ولمست عيوبه ٠٠ أدركت اننى أمام انسان ، يخطىء كما أخطىء ٠٠ انجاب القناع عن جموده وصرامته ٠٠ واذ ذاك ، شعرت ببعده عن الكمال ، فتشجعت اذ أدركت اننى أمام ند أستطيع ان أجادله وأحاجه ٠٠ وأقاومه !

وكان قد أخلد الى الصمت ، فتجرأت على أن أتفرس ملامحه ٠٠ كانت عيناه تحدجاننى بنظرة جمعت بين الدهشة العابسة ، والتساؤل المرتاب ، وكأنما كان يسائل نفسه : « أتراها تسخر ٠٠ وتسخر منى بالذات ؟ » ٠٠ وما لبث أن قال أخيرا : « لا ينبغى ان ننسى ان هذه مسألة قدسية ، لايجب ان نفكر فيها أو نتحدث عنها باستخفاف والا زللنا وأذنبنا ٠ اننى أعتقد ياجين انك صادقة عندما تقولين انك ستهبين الله قلبك ، وهذا غاية ما ابتغى ٠ فما هو ان تنتزعى قلبك من بشريتك ، وان توقفيه على خالقك ، حتى يقوم السلطان الروحى لله على الارض غايتك ومبعث غبطتك ٠٠ ولسوف تصبحين على استعداد فى الفور لان تقومى بكل ما يصل بك الى هذه الغاية ، ولان تدركى الحافز الذى سيدفع جهودك وجهودى قدما ، باتحادك معى فكرا وجسدا ، فهذا هو الاتحاد الوحيد الذى يضفى على أقدار ونوايا البشر صبغة الدوام المؤكد »
فأنعمت النظر فى أساريره التى كانت جميلة فى تناسقها ، ولكنها غريبة فى صرامتها وقسوتها ٠٠ وتصورتنى زوجة له ٠٠ أواه !٠٠ ان هذا لن يكون !٠٠ ان قلبى وفكرى يجب ان يبقيا حرين ٠٠ وان تظل أحاسيسى غير مستعبدة ٠٠ ان فى ذهنى نواح هى عالمى الخاص ، الذى يجب ألا ينفذ اليه أحد سواى ! ٠٠ وهتفت اذ بلغت هذا المدى من تأملاتى : « سانت جون ! » ، فأجاب فى برود : « نعم ؟ »

ـ اكرر استعدادى طائعة وبمحض ارادتى لان أذهب معك كزميلة مبشرة ، ولكن ٠٠ ليس كزوجة !٠٠ ليس بوسعى ان أغدو زوجتك وجزءا منك !

فأجاب فى اصرار : « بل لابد من ان تصبحى جزءا منى ، والا فالصفقة باسرها هباء ! ٠٠ كيف أصحب ـ وانا رجل لم أبلغ الثلاثين ـ فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها الى الهند ، دون ان تكون زوجة لى ؟ ٠٠ كيف يباح لنا ان نظل معا الى الابد ٠٠ وان تضمنا أحيانا خلوة ؟٠٠ ليس بوسعى أن أقول انك اختى ، اذ من المعروف انك لست شقيقتى ٠٠ ولو اننى فعلت لأثرت الشكوك حول كل منا ٠٠ ثم انك اوتيت قلب امرأة ، وان كان عقلك عقل رجل ! ٠٠ لا ، لن يجدى هذا » ٠ فقلت فى شيء من الاستهجان : « بل يجدى ٠٠ ان لى قلب امرأة ، ولكنه لن يبدو فى انوثته حيث أنت ، اذ ان علاقتنا لن تكون سوى

زمالة ٠٠ اخوة ، ان شئت ! » ٠ فقال ، وكأنه يحدث نفسه : « انك لن تندمى اذا تزوجتنى ياجين ٠٠ ثقى من هذا !٠٠ لابد لنا من الزواج ، فليس ثمةسبيل اخرى ، ولسوف يلى الزواج حب يكفى لان يجعلك ترضين عن هذا الزواج ، بلا شك ! » ٠ فلم أتمالك أن قلت وأنا أقف أمامه : « اننىاستهجن فكرة حبك٠٠ وازدرى العاطفة الزائفة التى تعرضها ٠٠ اجل ياسانت جون ، اننى ازدريك حين تعرضها ! »

وحدجنى بنظرة ثابتة ، وهو يعض شفتيه البديعتى الشكل ، وليس بوسعى ان أقطع بما اذا كان قد استاء ، أو انه ذهل ٠٠ ولكنـــه ما لبث ان قال : « اننى لم اتوقع قط ان اسمع هذا التعبير منك ٠ وما أظننى فعلت أو قلت ما أستحق من اجله الازدراء »

وتاثرت لرقة لهجته ، التى زانها جلالا ماشاع فى نبراته من ارتفاع هادىء، فقلت : « الا اغفر لى الكلمات التى قلتها ياسانت جون ، ولكن الذنب ذنبك ، اذ عرضت موضوعا تتباين ازاءه طبيعتانا ٠٠ موضوعا لايجب ان نناقشه مرة اخرى قط ٠ ان مجرد كلمة « الحب » تخلق بيننا خلافا ٠٠ الا تنح يا ابن‌عمتى عن مشروع الزواج ، وانسه ! » ٠٠ ولكنـــه قال : « لا ٠٠ انه مشروع طالمـا راودنى ، وهو الوحيد الذى يحقق غايتى العظيمة ، ولكننى لن اســتحثك فى الوقت الراهن ، وسأرحل غدا الى (كمبردج) ، فان لى بها كثير من الاصدقاء اريد أن أودعهم ، ولسوف أتغيب لاسبوعين ، فانتهزى هذه الفترة وفكرى فيما عرضت عليك ، ولا تنسى انك اذا رفضت فلست تتنكرين لى ، وانما تتنكرين لله ! ٠٠ فهو يفتح أمامك ــ عن طريقى ــ ابواب حياة نبيلة ، ولا ســبيـل لك اليها الا بأن تصبحى زوجتى »

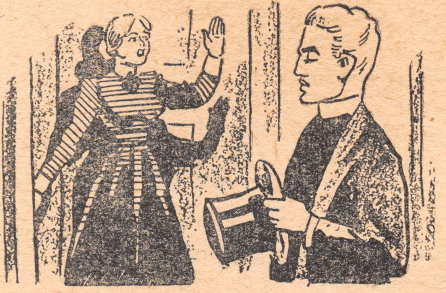
وبهـذا فرغ من حديثـه ٠٠ وفيمـــا كنـــا فى طريقنـــا الى البيت ، قرأت فى صــمته الحـــديدى كل ما كان يســـاوره نحـوى : شـــعور من الاستياء انبعث عن طبيعة صارمة مستبدة قوبلت بالمقاومة حيث كانت تتوقـع الاستكانة ٠٠ كان ــ كرجل ــ يتمنى لو قسرنى على الرضوخ عنوة ، وما احتمل رفضى بصبر الا كرجل دين مخلص فى تقواه !٠٠ وعندما قبل شقيقتيه ــ اذ حان موعد النوم فى تلك الليلة ــ آثر أن ينسى تقبيلى ، بل ومصافحتى ٠٠وغادر الغرفة فى صمت ٠٠ وتألمت لهذا الجفاء ، وانا التى كنت اكن له ودا كبيرا ، وان لم أكن له حبا ٠٠ وجاشت عواطفى الى درجة بعثت الدموع فى عينى !٠٠ فقالت ديانا : « أرى انك وسانت جون قد تشاجرتما أثناء نزهتكما فى‌الوادى، ولكن يحسن بك ان تلحقى به ، فانه يتلكأ فى الردهة ٠٠ ولسوف يصالحك !»

ومن عادة كبريائى ان لاتستبد بى فى مثل هـذه الظروف ، فاننى أســعد ــ بدلا من أن أتحيز لكرامتى ــ اذا سنحت فرصة الصلح ، لذلك هرعت فى اثر

سانت جون ، فاذا به يقف عند بداية الدرج ٠٠ وقلت له : « عم مساء ياسانت جون » ، فأجاب فى هدوء : « عمى مساء ياجين » ، قلت : « اذن فلنتصافح! » ٠٠ وشد ماكانت قبضته باردة ، متراخية !٠٠ كان استياؤه مما حدث عميقا بحيث لاتقوى حرارة الود على اذابته ، ولا الدموع على اجترافه !٠٠ لم يكن ثمة من سبيل الى وئام هنىء : فلا ابتسامة مجاملة ، ولاكلمة لطيفة،ومع ذلك فان رجل الدين ظل صابرا ، بارد الاعصاب ، وعندما سألته عما اذا كان قد صفح عنى ، أجاب بأنه لم يعتد أن يتشبث بذكرى مايعرض له من استياء ، وانه لايرى ثمة مايستدعى الصفح ، بل انه لايشعر بأنه قد تلقى اهانة ما !

وبهذا الجواب فارقنى ٠٠ ولكم كنت أوثر لو انه ضربنى فصرعنى !

الفصل الخامس والثلاثون



❖ ولم يرحل سانت جون الى كمبردج فى اليوم التالى كما قال ، وانمـــا ارجأ سفره أسبوعا بأكمله ٠ وفى هذه الفترة جعلنى أحس بأى عقاب قاس فى وسع رجل طيب وان يكن جاف الطبع ، حى الضمير وان يكن جائرا لايرحم ، أن يوقعه بشخص أهانه !٠٠ فقدحرص على أن يدخل فى روعى على الفور ـ ودون ان يأتى بأى تصرف عدائى صريح أو ينبس بكلمة تحمل معنى التقريع ـ بأننى لم أعد أحظى بعطفه !٠٠ وليس معنى هذا انه كان يضمر فى أعماقه روحا خبيثة تتنافى مع المبادىء المسيحية ، أو انه كان يود ايذاء شعرة واحدة فى رأسى ٠ فقد كان ـ سواء بطبعه أو بحكم مبادئه ـ اسمى من أن ينساق للذة الانتقام الوضيعة ٠٠ كان قد غفر لى اننى ازدريته ونبذت حبه ، ولكنه لم ينس الكلمات التى قلتها ، وما كان لينساها طالما ظل واياى على قيد الحياة ٠ وكنت أرى فى

نظرته - عندما كان يلتفت نحوى - ان تلك الكلمات كانت مسطورة بينى وبينه فى الهواء كما كان رنين صوتى يحملها الى اذنه كلما تكلمت ، وصداها يتردد فى صوته كلما أجابنى .. ولم يكف عن الحديث الى ، بل انه استمر يدعونى الى مكتبه كل صباح كالمعتاد . وأكاد اسىء الظن فاقول ان الرجل الفاسد الذى كان كامنا فى أعماقه ، كان يجد متعة -لايشاركه اياها أى متدين صادق التقوى- فى ان يبدى براعته فى تجريد كل عمل وكل قول مما كان يضفيه على أعماله وأقواله - من قبل - من سحر وود ، فى الوقت الذى يتظاهر فيه بانه عادى فى تصرفاته وكلامه ! ..

والواقع انه لم يعد فى نظرى انسانا من لحم ، وانما صار تمثالا من رخام.. كانت عينه باردة براقة كالماسة الزرقاء ، ولسانه مجرد آلة ترسل الكلام .. وحسب !.. وكان كل هذا يعذبنى عذابا رفيع الاسلوب ، طويل المدى . كان يوقد نارا بطيئة من الاباء والشمم ، ومن القلق الخافق بالاسى .. مما أضنانى وهصرنى هصرا . وشعرت كيف ان هذا الرجل الطيب ، الصافى صفاء النبع المعتم ، كان خليقا بأن يقتلنى - لو اننى كنت زوجة- دون ان يريق من عروقى نقطة دم واحدة ، أو يتحرك ضميره الشفاف بأى شعور بالجرم !.. وكنت ازداد شعورا بهذا ، حين أبذل أية محاولة للصلح معه ، فلم أكن أحظى بتودد فى مقابل ودى .. لم يكن يعانى أى ألم من جراء التباعد ، ولا كان يحس بأى حنين الى الصلح ، ومع ان دموعى المنهمرة كانت تتساقط - فى أكثر من مرة - على الصفحة التى نعكف على قراءتها ، الا انها لم تكن تؤثر فيه ، وكأن فؤاده قد حقا من صوان أو معدن !.. وفى الوقت ذاته كان يبدو أكثر ترفقا بشقيقتيه مما اعتاد ، وكأنما كان يخشى ان مجرد البرود غير كاف لاقناعى بأننى منبوذة مبعدة ، فأراد بابراز الفارق فى المعاملة أن يزيد من ايلامى .. ولكننى واثقة من انه لم يكن يصدر فى هذا عن خبث ، وانما وفقا لمبدأ ! ..

وتصادف أن رأيته - فى الليلة السابقة على رحيله - يتمشى عند الغروب فى الحديقة ، فلما نظرت اليه تذكرت ان هذا الرجل - الذى كان يجافينى على هذا النحو - قد أنقذ حياتى يوما ، واننا على صلة من القربى وثيقة ، فشعرت بأننى منساقة الى أن أبذل محاولة أخيرة كى استرد وده ، ومن ثم سعيت اليه وهو متكىء على بوابة الحديقة ، وبادرته قائلة : « اننى شقية ياسانت جون لانك لاتزال غاضبا منى . فدعنا نكن صديقين ! ». فكان الجواب الذى لم يكن يتزحزح عنه : « كنت اظن اننا صديقان » .. قالها فى فتور وهو منصرف الى تأمل القمر الذى بدأ يبزغ . فقلت : « لا ياسانت جون ، لسنا صديقين كسابق عهدنا ، وانك لتدرك هذا ».

- ألسنا صديقين ؟.. هذا خطأ .. اننى من ناحيتى لا ارجو لك شرا ، بل

أتمنى لك كل خير

– انني أصدقك ياسانت جون ، لانني واثقة من انك لاتقوى على أن تتمنى شرا لاى أحد ، على انني – كقريبة لك – اجد من حقى أن أرجو منك ودا يفوق هذا اللون العام من العاطفة الانسانية الذى تبسطه لمن هم مجرد أغراب

– ان رغبتك معقولة بالطبع ، وأنا بعيد عن أن أعتبرك غريبة !

وكانت هذه العبارة التى نطق بها فى برود وسكينـــة ، كفيلة بأن تغيظنى وتحيرنى ، ولو انني أصغيت الى وسوسة الكبرياء والحنق ، لتحولت عنه لفورى، ولكن شيئا أقوى من هذين الشعورين كان يعتمل فى نفسى ، فقد كنت أقدر مواهب ابن عمتى ومبادئه ، تقديرا عميقا ، وكانت صداقته ذات قيمة فى نظرى، ومن ثم فقد كان فقدانها عنـاء قاسيا ، لايجعلنى أتخلى بسرعـــة عن محاولة استردادها . فقلت : « أفنفترق على هذا الشكل ياسانت جون ؟.. وهل اذا رحلت الى الهند خلفتنى هكذا ، دون كلمة أكثر تلطفا ممـا قلت الآن ؟ » . فتحول اذ ذاك عن القمر وواجهنى قائلا : « عنـدما اذهب الى الهنـد ياجين سأخلفك ؟! .. ماذا ؟.. ألست راحلة الى الهند ؟ »

– انك قلت ان لارحيل لى الا اذا تزوجت منك

– وهل لن تتزوجى منى ؟!.. أما زلت متشبثة بهذا القرار ؟

أفتعرف أيها القارىء – كما أعرف أنا – أى ارهاب يستـطيع أولئـك الذين اوتوا طباعا باردة ، جامدة ، ان يبثوه اسئلتهم ؟.. ومدى الجليد الذى يدفنون تحت ركامه غضبهم ؟.. وما لاستـيائهم من حـدة قمينة بأن تحطم البحـار المتجمدة ؟.. على انني أجبت قائلة : « لاياسانت جون .. لن أتزوجك .. انني مصممة على قرارى » .. واهتز جبل الجليد ومال قليلا الى الامام ، ولكنه لم يمن بعد بالانهيار . وقال : « مرة أخرى أسائلك، لماذا الرفض ؟».. فاجبت: « كان فى البداية لانك لم تكن تحبنى ، أما الآن فلانك تكرهنى تقريبـــا !.. ولو انني تزوجتك لقتلتنى .. بل انك تقتلنى الآن ! »

وشحبت شفتاه ووجنتاه ، حتى صارت ناصعة البياض ، ثم قال : « لقتلتك .. انا الآن أقتلك ؟.. هذه كلمات ما كان يجب ان تستعمليها ، فهى عنيفة ، وتنافى روح الانوثة ، وغير صحيحة .. انها تشى بحالة ذهنية أليمة ، وجديرة بأن تجلب عليك التأنيب الشديد .. انها ليست مما يمكن اغتفارها ، ولـكن واجب الانسان ان يغفر لاخيه سبعا وسبعين غلطة ! » .. وكنت اذ ذاك قد فرغت من مهمتى ، فبينما كنت تواقة الى ان أمحو من ذهنه اهانتى السابقـة ، اذا بى أطبع على سطحه الصلب أثرا آخر أشد غورا من سابقه .. طبعته بالكى المحرق ! وقلت : « لسوف تكرهنى الآن فعلا ، فلا جدوى من محاولة الصلح ، بل أدى انني جعلت منك عدوا الى الابد ! » .. وأحدثت هـذه الكلمـات أذى

جديدا ، أنكى من السابقين ، لانها مست الحقيقة ، فاذا الشفة الممتقعة ترتجف في تشنج عابر ٠٠ وتبينت مدى الحقد الحاد الذى شحذته ، فاعتصر الالم فؤادى ٠ وقلت وقد أمسكت يده : « انك تسىء تأويل كلماتى ، فلست انتوى حقا ان اؤلمك أو أسىء اليك ، وما انتويت من قبل ! »

وابتسم فى مرارة ضافية ، وسحب يده فى اصرار بالغ ، وقال بعد صمت طويل : « والآن ، أحسبك تسحبين وعدك ، ولن تذهبى الى الهند اطلاقا ؟ » ٠٠ فأجبت : « بل سأذهب ، كمساعدة لك » ٠٠ وتلا ذلك صمت جد طويل ، فأى صراع كان يدور فى نفسه ـ خلال تلك الفترة ـ بين الطبيعة والدين ٠٠ لست أدرى ، ولكن عينيه كانتا تومضان ببريق عجيب ، كما غامت على وجهه ظلال غريبة ، وتكلم فى النهاية ، فقال : « لقد بينت لك من قبل الحرج الذى يحيط باعتزام امرأة بكر فى سنك ان ترافق الى الخارج رجلا أعزب فى سنى ٠٠ بينته لك بعبارات كانت كافية ـ على ما ظننت ـ لان تمنعك من التمادى فى هذا الرأى ٠ أما وقد تماديت ، فانى اشعر بالاسف ٠٠ من اجلك ! » ٠ وكان اى حديث يحمل معنى التأنيب ، كفيل بأن يثير جرأتى ، فقاطعته قائلة : « احرص على ان لا تجانب الادراك السليم ، فانك على شفا الهذيان ياسانت جون ٠٠ اننى اكرر لك القول بأننى سأكون مجرد مساعدة لك ان شئت ، ولكنى لن أكون ابدا زوجتك ! »

واشتد شحوب وجهه مرة اخرى ، ولكنه تمالك جأشه تماما ، وأجاب فى اصرار ، ولكن دون انفعال : « لن تناسبنى قط مساعدة لاتكون زوجة لى ٠ ٠ ومن ثم يبدو جليا ان لارحيل لك معى ٠ على انك اذا كنت صادقة فى رغبتك فى الذهاب ، فسأتحدث ـ أثناء وجودى فى المدينة ـ الى مبشر متزوج ، تحتاج زوجته الى مساعدة ٠ وستمكنك ثروتك من ان لاتعيشى عالة على معونة الجمعية ، وبهذا تتفادين عار النكث بوعدك ، والتخلف عن الركب الذى تعهدت بالانضمام اليه » ٠٠

وكما يعلم القارىء ، لم أكن قد قطعت على نفسى وعدا رسميا ، ولا ارتبطت بأى تعهد ، ومن ثم كان اسلوبه أقسى وأعتى مما ينبغى ، فقلت : « لاعار هناك ، ولا نكث بوعد ، ولا تخلف ، ولست مرتبطة بأتفه التزام بالذهاب الى الهند ، لاسيما مع أغراب ٠ لقد كنت مستعدة لان اجازف بالسفر معك ، لاننى أعجب بك ، واثق فيك ، وأحبك كأخت ٠٠ ولكنى موقنة من اننى اذا ذهبت الى هناك ـ متى ومع من يقدر لى الذهاب ـ فلن أعيش طويلا فى ذاك الطقس » ٠ فلوى شفته ازدراء ، وقال : « آه !٠٠ انك تخافين على نفسك » ، فأجبت : « اجل ، فان الله لم يمنحنى الحياة لكى آرميها ، ولقد بدأت أرى ان اتيان ماتريدنى على فعله ، يكاد يعادل الانتحار ٠ فضلا عن اننى لابد من ان أتأكد ـ قبل مبارحتى

انجلترا - من ان بقائى هنا لن يكون اكثر نفعا من رحيلى » فتساءل : « ماالذى تعنين ؟ »

- من العبث ان أشرح لك ، ولكن هناك نقطة ظللت أعانى مرارة الشك فى امرها طويلا ، وليس لى أن أذهب الى أى مكان حتى يتبدد هذا الشك

- اننى أعرف اين يهفو قلبك والام يتعلق .. وهذا الاهتمام ينافى القانون والشرع ، وكان خليقا بك ان تسحقيه من أمد طويل ، كما يجدر بك الآن ان تخجلى من الاشارة اليه .. اتفكرين فى مستر روشستر ؟

وكان هذا حقا ، وكان صمتى اعترافا به ، فعاد يسأل : « هل ستبحثين عن مستر روشستر ؟ » . فأجبت : « لابد من أن أعرف ما أصابه » . فقال : « لم يبق لى اذن سوى ان أذكرك فى صلواتى ، وادعو الله من أجلك ! »

★ ★ ★

◆ واذ عدت الى قاعة الجلوس ، وجدت ديانا واقفة لدى النافذة ، مستغرقة فى التفكير .. وكانت تفوقنى طولا بكثير ، فألقت يدها على كتفى ، ومالت فوقى تتفرس وجهى ، ثم قالت : « جين ، لقد أصبحت دائمة الانفعال والشحوب ، وأعتقد أن فى الامر شيئا ، فاخبرينى بما بينك وبين سانت جون .. لقد ظللت أراقبكما من النافذة نصف ساعة ، ولتصفحى عن تجسسى ، ولكننى منذ زمن أوجس من أمر لا أدريه .. ان سانت جون مخلوق عجيب .. » ، وأمسكت عن الكلام ، فلم أنبس ببنت شفة . وما لبثت ان استأنفت حديثها قائلة : « اننى واثقة من ان هذا الاخ الذى أوتيته يهيم وراء آراء عجيبة عنك ، وقد آثرك من أمد طويل بعناية واهتمام لم يولهما أحدا سواك .. فما غايته ؟.. ليته يحبك .. هل هو يحبك ياجين ؟ »

فرفعت يدها الباردة الى جبينى الملتهب، وقلت : « لا ياديانا .. انه لايحبنى مثقال ذرة ! » . فتساءلت : « اذن فلماذا يتبعك هكذا بعينيه ، ويخلو اليك كثيرا ، ويستبقيك باستمرار الى جواره ؟.. لقد استنتجت وماري انه يريد الزواج منك » . فقلت : « هو كذلك .. لقد سألنى أن أكون زوجته » . فصفقت ديانا وهتفت : « هذا ماتمنيناه وفكرنا فيه !.. ولسوف تتزوجينه ياجين .. ألست كذلك ؟.. انه اذ ذاك سيمكث فى انجلترا » . وهنا قلت : « ان الامر بعيد عن هذا ياديانا ، فان فكرته الوحيدة فى عرض الزواج هى الحصول على زميل صالح يشاطره جهوده فى الهند »

- ماذا ؟ .. ايريدك على ان تذهبى الى الهند ؟

واذ أجبت نعم ، هتفت : « جنون !.. انك لن تعيشى هناك أكثر من ثلاثة أشهر .. اننى واثقة من ذلك .لن تذهبى .. ما أظنك وافقت ياجين ؟» . فقلت : « بل رفضت الزواج منه » . فعقبت قائلة : « وبهذا أغضبته ؟ »

– الى اعمق حد ، فلن يصفح عنى قط ٠٠ ومع ذلك ، فقد عرضت عليه أن ارافقه كأخت له

– انها لحماقة بالغة ياجين ٠ فكرى فى المهمة التى ستضطلعين بها ٠٠ انها عناء متواصل ، فى بلاد يقتل التعب فيها الاقوياء ، فى حين انك ضعيفة !٠٠ ولكن ، كيف رفضت الزواج منه ٠٠ اذن ، فأنت لاتحبينه ياجين ؟

– لست أحبه كزوج

– ومع ذلك فهو شاب مليح

– وانا خالية من الجمال كما ترين يا « دى » ، ومن ثم فلن يلائم احدنا الآخر

– أأنت خالية من الجمال ؟٠٠ ابدا ! ٠٠ انك من الملاحة والطيبة بحيث لاينبغى ان تشوى حية فى كلكتا

وعادت تهيب بى فى اخلاص ان أطرح كل فكرة فى الرحيل مع أخيها ، فقلت : « لابد لى من ذلك فعلا ، لاننى عندما كررت اقتراحى عليه بأن اخدمه كأخت ، بهت لقلة حيائى ، وبدا انه يرانى قد ارتكبت ذنبا اذ اقترحت عليه أن أرافقه دون زواج ، وكأننى لم أكن آمل من البداية أن أتخذه أخا ، ولم اعتد أن عتبره كذلك ! » ٠٠ فسألتنى : « وما الذى يحملك على الظن بانه لايحبك ياجين ؟ » ٠ فأجبت : « يحسن بك ان تسمعيه اذ يتكلم فى الموضوع ٠٠ لقد عبر مرارا وتكرارا عن انه لايريد زوجة لشخصه ، وانما من أجل مهمته ٠ ولقد أخبرنى بأننى خلقت للعمل وليس للحب ، وهذا حق بلا شك ٠ ولكننى أرى اننى اذا كنت لم أخلق للحب ، فأنا بالاحرى لم أخلق للزواج ٠ أفلا يكون من العجيب بعد ذلك يا « دى » ان أقيد نفسى مدى الحياة برجل لايرانى أكثر من اداة نافعة ؟ » ٠٠ فهتفت : « انه أمر لا يطاق ٠٠ غير طبيعى ٠٠ لايستحق الاعتبار ! » ٠ فاستطردت قائلة : « ثم اننى وان كنت أكن له الآن حبا أخويا ، الا أننى أتصور – اذا ما اضطررت الى الزواج منه – احتمال قيام نوع من الحب الغريب ، المضنى ، الذى لامفر منه ، لانه جم المواهب ، وفى منظره وأخلاقه وحديثه قدر من وقار الابطال ، فى كثير من الاحيان ٠ وفى هذه الحالة ، سيصبح حظى تعسا الى درجة تجل عن الوصف ٠ انه لن يريدنى على أن أحبه ، فاذا ابديت عاطفتى فسيعمد الى اشعارى بأن هذا نوع من التنعم الذى لايبغيه ، والذى لايليق بى ٠ اننى أوقن من أن هذا سيكون تصرفه »

وقالت ديانا : « ومع ذلك فان سانت جون رجل طيب » ٠ فقلت : « انه طيب ، وعظيم ، ولكنه ينسى – فى غير اشفاق – مشاعر ومطالب الناس البسطاء ، فى اندفاعه وراء نظرياته الجليلة ، لذلك يحسن بمن لايضاهونه عظمة ، ان يبتعدوا عن طريقه ، والا داسهم فى سيره ، هاهو ذا آت ، لذلك ،

فسأتركك ياديانا » . وأسرعت أصعد الى الطابق العلوى ، اذ رأيته يلج الحديقة .
ولكننى اضطررت الى مقابلته مرة أخرى عند العشاء . وبدأ - خلال تناول الطعام - هادئا كعادته . وكنت أظنه لن يوجه الى حديثا ، كما كنت موقنة من انه قد تخلى نهائيا عن مشروع الزواج . ولكننى أخطأت الحدس فى الامرين . فقد خاطبنى بنفس طريقته المعهودة - أو التى أصبحت معهودة فى المدة الاخيرة - وهى طريقة تتسم بأدب متزمت . ولا مراء فى انه استعان بالروح القدس ليكظم الغضب الذى أثرته فى نفسه ، فخيل الى انه قد صفح عنى مرة أخرى . واختار للقراءة المسائية - السابقة على الصلاة - الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الرؤيا . ولقد كان من الممتع دائما أن انصت بينما تنطق شفتاه الجميلتان بكلمات الانجيل . فما كان صوته الرقيق ليبدو أكثر عذوبة وامتلاء ، ولاكانت لهجته تبدو فى بساطتها السامية أكثر تأثيرا فى النفس ، منها عندما يتلو كلام الله .. اما فى هذه الليلة ، فقد اكتسب الصوت نغمة أكثر روعة ، واكتسبت لهجته معنى أكثر تأثيرا فى النفس .. وكان يجلس وسط حلقة من أهل بيته ، وقد بدا قمر شهر مايو متألقا خلال النافذة التى انزاحت عنها الستار ، فجعل ضوء الشمعة القائمة على المنضدة يبدو غير لازم .. هكذا كان يجلس عاكفا على نسخة الانجيل العتيقة الضخمة ، ينقل عن صفحتها رؤيا السماء الجديدة ، والارض الجديدة ، ويروى كيف سيهبط الرب ليعيش بين الناس ، وكيف سيجفف الدموع عن أعينهم ، ويعد بأنه لن يكون ثمة موت بعد ذلك ، ولا أسى ، ولا عويل ، ولا أى ألم ، لان الاشياء السالفة ستنقضى وتزول !..

وهزتنى الكلمات المتعاقبة بقوة عجيبة وهو ينطق بها ، لاسيما حين شعرت - من التغير البسيط التافه الذى انتاب صوته - ان عينيه قد تحولتا نحوى ، وهو يلفظ هذه الكلمات : « من يغلب يرث كل شىء واكون له الها ، وهو يكون لى ابنا . واما » وهنا تباطأت لهجته وأخذ يضغط على الكلمات « الخائفون ، وغير المؤمنين ... فنصيبهم فى البحيرة المتقدة بنار وكبريت ، الذى هو الموت الثانى » .. ومن هنا أدركت أى مصير كان سانت جون يخشى أن أناله ! .. واتسمت قراءته للفقرات الاخيرة من هذا الاصحاح ، بشعور من النصر الهادىء المكبوت الممتزج بحماس مشبوب . وكأنما آمن هذا القارىء بأن اسمه قد كتب فعلا فى « سفر الحياة » ، فتاقت نفسه الى الساعة التى يؤذن له فيها بدخول المدينة التى يحمل اليها ملوك الارض أمجادهم ومفاخرهم ، حيث لاحاجة الى شمس أو قمر لاضاءتها ، لان جلال الله ينيرها ..

وتجمعت كل طاقته ، واستيقظ كل ايمانه الورع فى الصلاة التى اعقبت هذا الاصحاح ، فكأنما كان يجاهد من اجل الله بكل اخلاص ، وقد عقد العزم على الغلبة ، وراح يطلب القوة لذوى القلوب الضعيفة ، والهداية للضالين ،

والتوبة - ولو فى الساعة الاخيرة - لاولئك الذين كانت اغراءات الدنياوالجسد تحيد بهم عن الطريق الضيقة • وراح يطلب ، ويلح فى السؤال ، يرجو نعمة النجاة من النار ، وللاخلاص رهبة عميقة ، فوجدتنى أفكر فى اخلاصه•• أولا وأنا أصغى الى الصلاة ، ثم عندما بلغت ذروتها ، فاذا بى أتأثر بها ، ولا ألبث أن أخشع لرهبتها •• كان يشعر مخلصا بعظمة وصلاح غرضه ، ويشهد بذلك الآخرون الذين استمعوا اليه ، لانهـم لم يملكوا سوى ان يشعـروا بذلك

واذ انتهت الصلاة ودعناه ، اذ كان مزمعا الرحيل فى ساعة جد مبكرة من الصباح • فلما قبلته ديانا ومارى ، غادرتا الحجرة •• واخالهما فعلتا ذلك عن قصد ، اثر همسـة منه •• وبسطت له يدى متمنيـة له رحلة بهيجة ، فقال : « شكرا لك ياجين • ولسوف أعود من كمبردج بعد أسبوعين ، كما قلت لك ، وهذه الفترة مهلة تفكرين فيها • ولو أننى أنصت للكبرياء البشرية ، لما كان لى أن أحدثك ثانية عن الزواج منى ، ولكنى انصت لواجبى ، وأضع نصب عينى دائما هدفى الاول •• وهو ان أفعل كل الاشياء ، فى سبيل مجد الرب • لقد عانى معلمى (المسيح) طويلا ، وكذلك سأعانى ، فلست أقوى على ان اتركك للهلاك ، كسفينة ضالة !•• ألا توبى ، وأنيبى ، قبل فوات الاوان !•• تذكرى اننا أمرنا بالعمل والوقت نهار ، وأنذرنا بأن « الليل لن يلبث ان يأتى ، فلا يتاح لانسان ان يعمل » •• وليمنحك الله القدرة على ان تختارى النصيب الذى لاسبيل الى انتزاعه منك ! »

ووضع يده على رأسى وهو ينطق بهذه الكلمات•وكان يتكلم بحماسة ورقة •• ولم تكن نظرته فى الواقع نظرة محب يتطلع الى محبوبته ، وانما كانت نظـرة راع يجمع حملانه الشاردة ، أو بالاحرى نظرة ملاك حارس يرقب الروح التى هو عنها مسئول •• ان لكل الموهوبين - سـواء كانوا مرهفى الحس أو لم يكونوا وسواء كانوا متحمسين أو طموحين أو طغاة - لحظات من السمو يسودون فيها ويسيطرون ، على أن يكون الاخلاص والصدق رائدهم • وشعرت بتوقـير نحو سانت جون ، توقير بلغ من قوته أن دفع بى فورا الى النقطـة التى كنت أحاول طويلا الابتعاد عنها •• فلقد ساورتنى اذ ذاك الرغبة فى أن أكف عن مناضلته ، وأن اندفع فى تيار ارادته الى بحر حياته فأفقد ارادتى فى غماره •• وشعرت الآن بوطأة حصاره لى كما شعرت به مرة من قبل

ووقفت بلا حراك تحت لمسات ساحرى ، وقد نسيت رفضى ، وزالت مخاوفى وشلت مقاومتى ، وأصبح المستحيل - وهو الزواج من سانت جون - ممكنا • لقد تغير كل شىء تماما بلمسة مباغتة : ان الدين ينادى ، والملائكة تومىء ، والله يأمر ، والحياة تطوى ، وأبواب الموت مفتوحة تطل الابدية من خلفها •• وبدا لى انه لابد من التضـحية بكل شىء فى التو واللحظة ، لكى أحصـل على الامان

والسعادة ٠٠ وامتلأت الغرفة المعتمة بالرؤى والاحلام ٠٠ وما لبث ان سألنى سانت جون بلهجة رقيقة ، وقد سحبنى الى جانبه بلطف : « هل تستطيعين ان تقررى الآن ؟ » ٠ آه من هذه الرقة !٠٠ لشد ما هى أقوى من العنف !٠٠ لقد كنت أستطيع ان أقاوم غضب سانت جون ، ولكنى كنت انثنى كعود الخيزران تحت ضغط رقته ولطفه ٠ ومع هذا فقد كنت أعرف طيلة الوقت اننى اذا استسلمت الآن فان الندم لن يساورنى يوما على سابق تمردى وعصيانى ، اذ ان طبيعته لم تكن قد تبدلت اثر ساعة من الصلاة ، وغاية ما فى الامر انها سمت عاليا ٠٠ فحسب !

وأجبت أخيرا : « بوسعى ان أبت الآن ، لو اننى وثقت بأن ارادة الله تفرض على ان أتزوجك ٠٠ لو اننى اقتنعت لتزوجتك هنا ، والآن ، وليكن بعد ذلك مايكون ! » فصاح سانت جون : « لقد استجيبت صلواتى ! » ٠ وشد قبضته على يدى وكأنه يستولى على ماهو حق له ٠ وأحاطنى بذراعه وكأنه يحبنى « تقريبا » وأقول تقريبا ، لاننى أدرك الفرق ، فلقد عرفت شعور الانسان عندما يكون محبوبا ، ولكننى غدوت مثله ، فطرحت مسألة الحب وراء ظهرى ،وجعلت أفكر فى الواجب فقط !٠٠ وأخذت أصارع ما اكتنف بصيرتى من عتمة وظلام ٠ كنت أتوق باخلاص وحرارة وصدق الى ان أفعل الشىء الصحيح ولا أحفل بغيره ٠٠ وابتهلت الى السماء : « ألا دلينى ٠٠ ارشدينى الى الطريق ! » ٠ وشعرت بانفعال لم أشعر بمثله من قبل ، وسواء كان ماحدث بعد ذلك نتيجة للانفعال أو لم يكن ، فهذا متروك لحكم القارىء :

كان السكون يخيم على المنزل كله ، اذ هجع الجميع ، ماعداى وسانت جون ٠٠ وكانت الشمعة الوحيدة تحتضر ، وضوء القمر يغمر الحجرة ، وقلبى يدق بسرعة وعنف ، حتى اننى كنت أسمع وجيبه ٠٠ وفجأة ، أخلد القلب الى السكون ، اذ غشيه احساس غريب ،لم أدر كنهه ، ولم يلبث ان سرى الى رأسى وأطرافى ٠٠ وما كان هذا الاحساس كمس الكهرباء ، ولكنه كان ــ على أى الحالات ــ حادا، غريبا ، مذهلا ، أرسل فى حواسى ــ التى كانت فى أقصى انتباهها حتى تلك اللحظة ــ مفعولا مخدرا ، سارعت الى انتزاعها منه وايقاظها ٠٠ فانتبهت مرهفة، تتوقع امرا ٠٠ فاذا عينى واذنى فى انتظار ، بينما كان لحمى يرتعش فوق عظامى ٠ وسألنى سانت جون : « ما الذى سمعت ؟٠٠ وما الذى ترين ؟ »٠٠ ولم أكن قد رأيت شيئا ، ولكننى سمعت صوتا ينادى من مكان ما :

« جين ، جين ، جين ! » ، ولا شىء أكثر من ذلك ٠٠ وشهقت قائلة : « يا الهى ! ماهذا ؟ » ٠٠ ولعلنى قلت أيضا : « أين هو ؟ » لاننى لم أر شيئا فى الحجرة ، ولا فى المنزل ، ولا فى الحديقة ٠٠ على ان الصوت لم ينبعث من الهواء ، ولا من تحت الارض او من فوق راسى ٠٠ لقد سمعته ،

ولكن كان من المستحيل ان أدرى : أين ولا أيان !.. ولقد كان صوت كائن بشرى ، معروف ، ومحبوب .. كان صوتا أتذكره جيدا .. صوت ادوارد فيرفاكس روشستر !..وكان يتكلم بألم،وأسى ، ولهفة ، واستنجاد ، وتعجل!.. فصحت قائلة : « اننى قادمة !.. انتظرنى !.. أواه ، سأحضر ! » وهرولت الى الباب فنظرت الى الممر الذى كان مظلما ، وجريت الى الحديقة فوجدتها خالية .. فناديت فى دهشة : « أين أنت ؟ »

وأرسلت التلال عبر الوادى ردا واهنا : « أين أنت ؟ » .. وجعلت الرياح تئن فى خفوت خلال أشجار الصنوبر ، بينما كانت الوحشة والوحدة تسيطران على التلال المقفرة ، وخيم سكون منتصف الليل على المكان .

وقلت لسانت جون ، اذ خيل الى اننى أرى شبحا أسود يبرز عند الشجرة السوداء المجاورة لباب الحديقة : « ألا دعنى من الاوهام الخرافية !.. ما هذا من صنع دجلك أو سحرك ، وانما هو من صنع الطبيعة .. لقد ثارت ، واذا كانت لم تفعل المعجزات ، الا انها بذلت قصارى جهدها ! » .. وابتعدت عن سانت جون ، ولو استطاع لاحتجزنى . ولكن هذه كانت ساعتى التى استرد فيها سطوتى ونفوذى ، فاذا قواى تنطلق من عقالها فى شدة .. وطلبت الى سانت جون ان يمسك عن أى سؤال أو ملاحظة ، ورغبت اليه أن يتركنى لاخلو الى نفسى ، فأطاعنى على الفور . وما دام الانسان يملك الطاقة الكافية لكى يأمر بصورة حاسمة ، فانه لايجد سوى الطاعة !.. وصعدت الى غرفتى فأغلقتها بالمفتاح ، ثم ركعت على ركبتى ورحت أصلى على طريقتى .. وقد تغاير طريقة سانت جون ، ولكنها فعالة .. فبدا لى أننى اقترب جدا من الله .. واندفعت روحى ساجدة عند قدميه ، عرفانا وشكرا . وعندما نهضت من صلاتى ، كنت قد عقدت العزم على أمر ، فاستلقيت على فراشى وقد انزاحت الهموم عن كاهلى ، وزالت الغشاوة عن بصرى ، وانتظرت بلهفة شروق الصباح !

الفصل السادس والثلاثون

❖ واقبل النهار ، فنهضت عند الفجر وانهمكت ساعة او ساعتين فى ترتيب متاعى فى غرفتى وادراجى وصوانى ، وقد اعتزمت أن أغيب عنها فترة وجيزة . وسمعت فى الوقت ذاته « سانت جون » يبرح غرفته ، ثم يقف عند بابى . وخشيت أن يطرقه ، ولكنه اكتفى بأن دفع من تحت الباب ورقة ، فتناولتها ونظرت اليها ، واذا فيها : « لقد تركتنى فجاة ليلة أمس ، ولو انك مكثت برهة وجيزة ، لوضعت يدك على صليب المسيح وتاج الملاك . سأنتظر منك قرارا واضحا عند عودتى بعد أسبوعين . وفى الوقت ذاته ، حاذرى وصلى لكى لاتقعى



فى الغواية .. ان روحك راغبة ، ولكن الجسد - على ما أرى - ضعيف ، ساصلى من أجلك فى كل ساعة - المخلص : سانت جون » .. وهتفت فى نفسى : « ان روحى راغبة فى أن تفعل ماهو صواب ، وجسدى - فيما ارجو - قوى الى الدرجة التى تمكنه من تحقيق ارادة السماء ، بمجرد أن تتكشف لى هذه الارادة . وعلى أية حال ، فلسوف أكون من القوة بحيث استطيع البحث ، والسؤال والتنقيب عن منقذ من غيوم الشك هذه ، كى أصل الى نهار اليقين ! »

وكان اليوم أول أيام شهر يونيو ، ومع ذلك فقد كان الصباح باردا مطيرا ، وأخذ المطر يطرق بشدة زجاج نافذتى . وسمعت الباب الخارجى يفتح ، فينفلت سانت جون خارجا .. ورأيته - خلال النافذة - يعبر الحديقة ، ثم يتخذ طريقه خلال الآجام الملتفة بالضباب ، نحو (هويتكروس) ، حيث يلتقى بعربة البريد ، فقلت له فى نفسى :« لسوف أقفو أثرك بعد ساعات قلائل يا ابن العمة ، وسأستقل أنا الاخرى عربة من (هويتكروس) ، فان لى أنا الاخرى من أسعى للقائه قبل ان أرحل .. الى الابد ! » .. وكان باقيا على موعد الفطور ساعتان ، فاخذت اجوس خلال غرفتى فى هدوء ، وأتأمل الرؤى التى أحدثت هذا التغير فى خططى .. تذكرت الاحساس الغريب الذى خامرنى ، والصوت الذى سمعته بكل مافيه من غرابة لاسبيل الى تعليلها .. ولاح لى انه انما انبعث فى أعماقى وليس فى الكون المحيط بى .. وساءلت نفسى : أفكان مجرد وهم عصبى ؟.. لم يكن فى وسعى أن أجزم ، ولا أن أصدق . كان أشبه الاصوات بالهاتف .. بالالهام !.. كان الاحساس الغريب اشبه بهزة فتحت أبواب سجن روحى ، وفكتها من أغلالها ، وأيقظتها من سباتها ، فاذا الروح تقفز مرتجفة ، مرهفة السمع ، مبهوتة .. ثم ترددت صيحة ثلاث مرات فى سمعى ، وفى قلبى ، وفى روحى ، فاذا بهذه الثلاثة لاتجزع ، ولا ترتعب ، وانما انتشت ، وكأنها تحررت بحركة

واحدة من اسار الجسد !..

وقلت اختتم تأملاتى : « سأعرف بعد أيام شيئا عن ذاك الذى خيل الى ليلة أمس أن صوته يدعونى .. لقد أثبتت الخطابات انها غير مجدية ، ومن ثم فلا بد من التحرى الشخصى » . فلما اجتمعنا حول مائدة الفطور ، أعلنت ديانا ومارى اننى منطلقة فى رحلة قد تستغرق أربعة أيام على الاقل ، فسألتانى : « أو ترحلين وحدك ياجين ؟ » . فاجبت : « أجل ، فانى ذاهبة لاتفقد أنباء صديق أشعر بقلق من أجله منذ أمد » .. ولعلهما قالتا فى نفسيهما انهما كانتا تعتقدان ان لا أصدقاء لى سواهم ، فكثيرا ماقلت هذا فعلا .. ولكن ماطبعتا عليه من لطف جعلهما تمسكان عن التعقيب ، وان سألتنى ديانا عما اذا كنت اعتقد اننى فى حالة صحية تمكننى من السفر - اذ كانت ترانى شاحبة - ولكننى أجبتها باننى لم أكن أعانى الا من القلق !..

★ ★ ★

◆ وبارحت (مور هاوس) فى الساعة الثالثة من بعد الظهر ، فلم تات الساعة الرابعة حتى كنت أقف بجانب علامة الطريق - عند (هويتكروس) انتظر العربة التى تقلنى الى (ثورنفيلد) . وما لبثت ان سمعتها - وسط السكون الشامل - تقترب من بعد .. واذا بها عين العربة التى هبطت منها فى تلك البقعة ذات أصيل من أصائل الصيف ، منذ عام !.. لكم كنت اذ ذاك بلا حول ولا قوة ولا هدف !.. وسرعان ما كانت تحملنى الى (ثورنفيلد) ، وأنا أشعر وكأننى حمامة تعود الى عشها !.. واستغرقت الرحلة ستا وثلاثين ساعة ، فقد بارحت (هويتكروس) بعد ظهر يوم الثلاثاء .. وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم بعد التالى ، وقفت العربة - ريثما ترتوى الخيل - عند فندق ريفى ، فاذا المروج الخضر ، والحقول الشاسعة ، والتلال الخفيفة المكسوة بالاعشاب ، تصافح عينى بمناظر مألوفة .. وما كان أبعد الفرق بينها وبين مروج (مورتون) !.. وعلمت من الفندقى أنه لم يبق بينى وبين (ثورنفيلد هول) سوى ميلين ، فطمأنت نفسى الى أن رحلتى قد أشرفت على نهايتها . فاودعت لدى الفندقى صندوقا ليستبقيه ريثما أعود لاسترداده ، ثم نقدت الحوذى أجرا أرضاه ..

وعندما انطلقت على قدمى ، كانت الشمس تغمر لافتة الفندق ، فقرأت عليها: « فندق ضيعة روشستر » ، فخفق قلبى اذ غدوت فى نطاق أملاك سيدى . ولكن خاطرا هتف بى : « قد يكون سيدك نفسه عبر الخليج البريطانى .. وحتى لو كان فى قصر (ثورنفيلد) الذى تغذين السير نحوه ، فمن التى تعيش بجواره ؟.. زوجته المجنونة ، ومن ثم فلا شأن لك به ، وليس من حقك ان تكلميه او تنشدى قربه .. خليق بك ان لاتمضى قدما ، بل سلى أهل الفندق

عن الانباء أولا ! » .. وبدا الاقتراح معقولا ، ولكننى لم أقو على تنفيذه ، فقد خشيت أن أتلقى جوابا يسحق آمالى .. وفى اطالة الشك استبقاء للامل !.. وما كان أسرع سيرى !.. لقد كنت أجرى فى بعض الاحيان .. وكنت طيلة الوقت أتوق الى رؤية الغابات المألوفة ، وفى قلبى سيل جارف من العواطف ، فلما لاحت لى فى النهاية ، تولانى حبور عجيب ، وزدت من اسراعى فى السير ، وأنا أتعجل رؤية القصر ذاته ، وأنا أحدث نفسى : « ستكون الواجهة أول مايصافح عينى .. ولسوف أميز من بين نوافذها نافذة سيدى .. وربما وجدته واقفا فيها ، فانه ينهض مبكرا فى العادة .. بل لعله الآن يتمشى فى البستان أو فى الطريق المرصوفة أمام القصر .. آه ، لو قدر لى أن اراه !.. أتراني لا أجن اذ ذاك ، فأهرع اليه ؟ .. لست ادرى .. وماذا يجرى لو فعلت ؟.. ليباركه الله !.. من الذى يضار اذا نعمت مرة أخرى بتذوق الحياة فى فيض نظراته ؟.. ولكننى أهذى ، فربما كان فى هذه اللحظة يرقب الشمس فوق جبال البيرنيز أو على بحار الجنوب ! » ..

وبلغت فرجة فى أحد المروج ، قام على جانبيها عمودان ، وكانت تشرف على واجهة القصر مباشرة ، فدسست رأسى فى حذر من خلف أحد العمودين مشوقة الى ان اتزود بنظرة الى نوافذ مخدع سيدى .. ولعل الغربان التى كانت تحوم فوقى قد أخذت اذ ذاك لمظهرى ، ولما بدا فى حركاتى من حذر بالغ ، وخجل شديد .. ولكننى سرعان ماتجرأت ، وأرسلت نظرة خاطفة ، ثم أتبعتها بنظرة طويلة ، ثم اندفعت من مكانى ، فاذا بى أمام القصر ، وهنا كانت الصدمة الكبرى !..

تصور أيها القارىء عاشقا يفاجىء حبيبته نائمة على العشب .. انه يود أن يتزود بنظرة الى وجهها دون أن يوقظها ، ومن ثم يتسلل فى رفق ، أشد مايكون حذرا ، ثم يقف اذ يخال انها تحركت .. ويتراجع ، ولكنه يجدها ساكنة ، فيعاود التقدم ، وينحنى فوقها ، ويرفع الخمار الرقيق عن وجهها ، ثم يزداد انحناء ، وتلتهم عيناه جمالها الدافىء الناضر الحبيب بنظرة عاجلة ، ثم تطول نظراته ، فلا يلبث أن يجفل ، ويضم الى صدره الجسد الذى لم يكن يقوى منذ لحظة على ان يمسه ، ويروح ينادى ، ثم يسقط حمله ، ويحملق فيه.. ويعود يحتضنه ، ويصرخ ، ويحملق ، وقد زايله الخوف من ان يوقظ الحبيبة.. اذ يتبين اذ ذاك انها جثة هامدة !

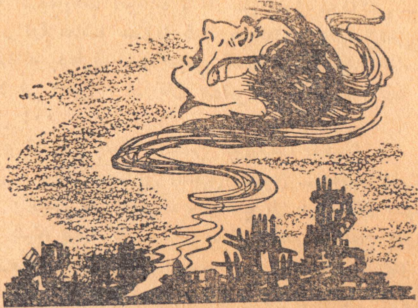
وهكذا كان حالى .. فلقد تطلعت فى فرح مشبوب نحو القصر المنيف ، فلم أر سوى اطلال سوداء !

لم تكن هناك حاجة للتوارى وراء عمود ، ولا لاختلاس النظر الى نافذة المخدع ، ولا للخوف من الحياة التى تدب وراء الجدران .. وما كانت ثمة

حاجة لارهاف السمع توقعا لاصوات الابواب وهى تفتح ، او لوقع الخطى على الطريق المحصوبة ، فقد كان الخراب يرين على كل شىء ٠٠ وكانت الواجهة – كما رأيتها ذات مرة فى منامى – مجرد جدار قائم ، متداع ، تتخلله ثغرات النوافذ ٠٠ فلا سقف هناك ، ولا مصاريع ، ولا مداخن ٠٠ كل شىء قد انهار ! وأحاط بالموقع كله سكون كالموت ، ووحشة كئيبة ٠٠ لاعجب اذن فى اننى لم أتلق ردا على الخطابين اللذين أرسلتهما !٠٠ وكانت الاحجار الكئيبة ، السوداء تنبىء بالمصير الذى لقيه القصر ، فلقد احترق !٠٠ ولكن ، ما الذى أوقدالحريق، وما قصة النكبة ؟٠٠ وهل راحت الارواح كما ذهب الصرح ؟٠٠ وكان السؤال رهيبا ، وليس ثمة من يجيب عنه ٠٠ وفيما كنت أجوس بين الاطلال ، وقع بصرى – بالرغم منى – على برج الكنيسة المغبر ، فساءلت نفسى :«أترى حبيبى مع دامر روشستر يشاطره مثواه الرخامي الضيق ؟ »

وكان لابد من اجابات عن هذه الاسئلة فعدت الى الفندق الصغير ٠ واذ أحضر لى الفندقى بنفسه طعام الافطار ، حاولت أن أستفسره ، ولكننى خشـيت أن اسمع ماكنت أكره ، فاضطربت هنيهة ٠ بيد اننى ما لبثت ان سألته : « هل تعرف ثورنفيلد هول ؟ » ٠٠ فأجاب : « أجل ياسيدتى ٠٠ لقد عشت هناك فترة » ٠٠ اذن ، فلا بد انه عاش فى غير الفترة التى عشت فيها هنـاك ٠ وأردف الرجل : « لقد كنت ساقى المرحوم مستر روشستر »

المرحوم !٠٠ لكأننى تلقيت لطمة حاولت جاهدة أن أتفاداها ٠٠ وشهقت : « المرحوم ! » ، فقال الرجل : « أعنى والد السيد الحالى مستر ادوارد » ٠ وتنفست الصعداء ، وانساب الدم ثانية فى عروقى بعـد ان كان يتجمد ٠ وطمأنتنى الكلمتان – مستر ادوارد – الى ان روشستوى أنا ، كان لايزال حيا٠٠ يالكلمتين السارتين ! لقد خيل الى ان فى وسعى أن أسمع كل مايلى ذلك بنفس مطمئنة ، مهما كانت الانباء ٠٠ وعدت أسأل الرجل وأنا أعرف جوابه مقدما : « هل يقيـم مستر روشسـتر فى (ثورنفيلد هـول) الآن ؟ » ٠ فأجاب : « لا ياسيدتى ٠٠ لا أحد يعيش هناك ، وما أراك الا غريبة عن هذه الاصقاع ، والا لكنت قد سمعت ماجرى فى الخريف الماضى ٠٠ لقد أصبح (ثورنفيلد هول) أطلالا ، اذ احترق عن آخره ٠٠ كانت كارثة مروعة ! فقد اندلعت النار فى بهيم الليل ، وقبل ان تصل عربات الاطفاء من (ميلكوت) كان قد أصبح كتلة من لهيب » ٠٠ فغمغمت : « فى بهيم الليل ! »٠٠ تلك كانت ساعة الخطر ناثماقى (ثورنفيلد هول)٠ واذ سألته عن الفاعل ، قال : «لقد حدسوا ٠٠بل أستطيع أن أقول انهم تأكدوا ٠٠ لعلك لاتدرين أن ثمة سيدة ٠٠ مجنونة ، كانت فى القصر ؟٠٠ كانت حبيسة تحت رقابة شديدة ، وكان أمرها مكتوما ، حتى ان أحدا لم يكن على يقين من وجودها ، اذ أن مخلوقا لم يرها ، أو يعلم بأمرها الا



على سبيل الاقاويل والشائعات .. فقد كان يقال أن مستر ادوارد أحضرها معه من الخارج ، وزعم البعض انها كانت خليلته . ولكن أمرا غريبا حدث .. منذ عام واحد ! »

وتوقعت أن أسمع قصتي . وفعلا قال الرجل : « لقد ظهر ان السيدة كانت زوجة مستر روشستر ! » .. وقبل أن يمضي في الرواية ، عمدت الى تحويله عنها ، بأن سألته عن الحريق ، ولكنه استطرد يحكي كيف ان مستر روشستر أغرم بمربية شابة في قصره : « ويقول الخدم انهم لم يروا قط انسانا متيما مثله ، فقد ظل يهيم بها حتى بعد أن تركته .وكانوا يراقبونه ــ وهكذا يفعل الخدم ياسيدتي ! ــ وهو يخلو الى ذكراها .. ان أحدا لم يعتبرها جميلة، ولكنه كان في حوالي الاربعين ، وهي في العشرين ، والسادة الذين في سنه اذا وقعوا في هوى فتيات ، فتنوا بهن كأنهم مسحورون ! » .. ومرة اخرى رددته عن هذه الناحية ، اذ قلت : « هل اتجهت الظنون الى أن للمجنونة يدا في الحريق ؟ »

ــ ان هذا أكيد ياسيدتي ، فليس سواها من أشعل النار .. كانت لها حارسة قديرة ، يقظة ــ تدعى مسز بول ــ لم يكن لها سوى عيب واحد شائع بين الممرضات .. كانت تحتفظ دائما بزجاجة خمر ، تجرع منها في الليل .. فاذا نامت مسز بول مخمورة ، عمدت المجنونة ــ التي كانت داهية ماكرة ! ــ الى مفاتيحها فأخذتها ، وغادرت غرفتها ، لتجوس في البيت مرتكبة اى شر يخطر لها .. وفي تلك الليلة ، أشعلت النار أولا في ستائر الغرفة المجاورة لغرفتها ، ثم هبطت الى الطابق الثاني ، وسارت الى غرفة المربية ــ وكان يبدو انها عرفت كل ماجرى ،فكرهت الفتاة ــ فأشعلت النار في سريرها .. ولم تكن صاحبته فيه لحسن الحظ ، اذ انها كانت قد فرت قبل ذلك بشهرين ،

ولم يدخر مستر روشستر جهدا فى البحث عنها ، وكأنها كنز ثمين . ولكنه لم يسمع كلمة واحدة عنهـا ، فاستبد به القنوط ، واشتدت شراسته حتى غدت خطرة . كما أصبح يحب الوحدة ، فأرسل مسز فيرفاكس - مدبرة القصر- الى أهلها ، وقرر لها معاشا سنويا طيلة حياتها.. وأرسل مس أديل الى المدرسة، وقطع كل علاقاته بمعارفه ، واحتبس نفسه فى القصر كالناسك .. ولم يعـد يخرج منه الا فى الليل ، اذ كان يتمشى فى أراضيه وكأنه روح هائمـة ، أو شخص مختبل !..

- اذن فهو لم يكن بداخل القصر حين شب الحريق ؟

- بل كان ..ولقد صعد الى الطابق العلوى - والنار مشتعلة فى كل شىء - فأيقظ الخدم وأعانهم على الهبوط ، وذهب الى حيث كان يحبس زوجته .. ثم سمع صياحا ينبئه بأنها كانت فوق سطح القصر ، تلوح بذراعيها وتصيح بأعلى صوتها .. وصعد اليها مستر روشستر ، وسمعناه يناديها : « بيرتا ! » .. ورأيناه يقترب منها ، ثم اذا بها تصرخ ، وتقفز عاليا .. وفى اللحظة التاليـة كانت مهشمة على الافريز الممتدأمام القصر ! »

وسألته : « ميتة ؟ » ، فقال : « كالحجر الذى تناثر عليه مخها ودمها !».. وارتجف الرجل للذكرى الرهيبة . وسألته عما حدث بعد ذلك ، فقـال : « احترق القصر عن آخره » .. قلت : « وهل فقدت أرواح أخـرى غـير تلك المرأة ؟ » ، فأجاب : « لا .. ولكن ، ليت مستر ادوارد المسكين مات اذ ذاك .. ان البعض يقولون ان ما أصابه كان جزاء عادلا لكتمانه أمر زواجـه الاول ، ومحاولته الزواج مرة اخرى ، وامرأته على قيد الحياة .. على اننى فى الواقع أرثى له ! »

- وهل هو لايزال حيا ؟

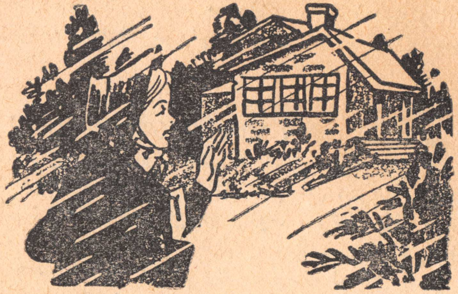
فقال : « أجل ، أجل .. لايزال حيا ، وان كان الكثيرون يتمنـون لو انه كان قد مات ! » .. وعاد الدم يجرى باردا فى عروقى وسألته : « لمـاذا ؟.. وكيف ؟.. وأين هو ؟.. أهو فى انجلترا ؟ ».. وأجاب الرجل : « نعم ..انه فى انجلترا ، ولا يستطيع ان يبارحها .. انه عاجز ! »

وعصف الالم بقلبى وأطال الرجل من لهفتى بصمته ، قبل أن يقول : « انه أعمى .. عمى تاما ! » .. وكنت قد خشيت ماهو أسوأ .. خشيت ان يكون قد فقد عقله !.. واستجمعت قواى ، لاسأل عن سر مصابه ، فقـال الرجل : « كان كل شىء بسبب شجاعته ، وكرمه . فقد أبى أن يبـارح القصر قبل أن يخرج منه كل انسان آخر . ثم هبط فى النهاية عن طريق السلم الكبـير .. ولكن كل شىء انهار .. وأخرجوه من تحت الانقاض ، حيا ، ولكنه فى أسوأ حال .. فقد سقط لوح من السقف عليه فوقاه النار والانقاض ، ولكنه اقتلع

احدى عينيه ، وهشم احدى يديه حتى اضطر مستر كارتر - الجراح - الى بترها فى الحال ٠٠ أما العين الاخرى فقد أودت بها النار ٠٠ وهو الآن يعيش أعمى ، عاجزا » ٠فبادرت متسائلة : « وأين هو ؟ » ٠٠ فأجاب الرجل : «فى فرندين ، فى دار ضيعة يملكها ، على ثلاثين ميلا من هنا ٠٠ فى بقعة منعزلة ! » ٠٠ وعدت أسأله : « ومن يقيم معه ؟ » ، فأجاب : « جون العجوز وزوجته ، فقد أبى ان يعيش معه سواهما ٠٠ ويقولون انه محطم تماما ! »

وطلبت الى الرجل أن يعد لى عربة لتحملنى الى فرندين على الفور ، ودفعت له ولحوذيه ضعف ما كانا يستحقان !

الفصل السابع والثلاثون



◆ كان بيت ضيعة (فرندين) عتيقا ، متوسط الحجم ، خاليا من المبالغات الهندسية ، وقد قام فى جوف احدى الغابات ٠ ولقد سمعت عنه من قبل ، اذ كثيرا ما حدثنى مستر روشستر عنه ٠٠ وكان لبعده ، وسوء موقعه - صحيا - مهجورا ، وليس بغير غرفتين أو ثلاث فيه أى أثاث أو رياش ٠٠ والى هذا البيت وصلت قبيل الغروب ، فى يوم بدت سماؤه كئيبة ، وهبت فيه الريح الباردة ، وتساقطت الامطار الغزيرة ٠٠ وقطعت الميل الاخير على قدمى - بعد ان صرفت العربة - وكانت الغابة جد كثيفة حتى ليتعذر ان تلمح أثرا للدار عن كثب ٠ على اننى ما لبثت ان بلغت ابوابا حديدية ، فمررت خلالها ، واذا بى بين صفوف من الاشجار ٠٠ وكانت ثمة طريق مكسوة بالحشائش ، فسلكتهاظننا منى انها ستقودنى الى المسكن ، ولكنها امتدت وتشعبت دون ان يبدو اثر

لعمران ، حتى خلت اننى ضللت سبيلى ، وتكاثفت حولى ظلمة المساء وظلمة الاشجار الكثيفة ، ورحت اتلفت حولى ، ولكنى لم أجد طريقا أخرى ، فتابعت سيرى ، وأخيرا ، خف تكاثف الاشجار ، وما لبث البيت ان لاح لناظرى ، وهو لا يكاد يرى بين الظلمة والاشجار ، وتحت الخضرة الكثيفة الرطبة التى كست جدرانه . وانتهيت الى باب ، فوقفت فى ساحة على شكل نصف دائرة . تحف بها الغابة .. وكان كل شىء ينم عن ان « البقعة منعزلة » كما قال الفندقى . وكان السكون شاملا ، لا يعكره سوى ارتطام قطرات المطر بأوراق الشجر ، فساءلت نفسى : « أمن الممكن ان يكون هنا أحياء ؟ » .. أجل ،كان هناك أحياء ، فقد سمعت حركة نمت عن ان الباب كان يفتح .. وفعلا ، لم يلبث أن انفتح فى بطء ، وبرز منه شخص وقف على عتبته .. وتبينت ـ فى العتمة ـ انه كان رجلا بدون قبعة . ورأيته يبسط ذراعيه وكأنه يتبين ما اذا كان المطر منهمرا .. وعرفته ـ رغم الظلام ـ كان سيدى ومولاى ، ادوارد فيرفاكس روشستر !

وسمرت قدمى ، وأمسكت أنفاسى ، ووقفت أرقبه وأتأمله والاسى يعصر فؤادى ، لانه لن يرانى .. كان لقاء فجائيا ، لقيت عناء فى كبح العواطف التى اهتاجها ، وفى خنق صوتى حتى لا ينطلق بالرغم منى .. وكانت قامته كعهدى بها ، قوية ، مستقيمة .. على اننى حين اقتربت ـ بخطى مكتومة ـ تبينت فى معالم وجهه تغيرا نم عن هم وقنوط ، وكأنه طائر حبيس أو معذب، على اننى آثرت ألا أفاجئه ، فوقفت أرقبه ، واذا به يسير فى بطء نحو بقعة معشوشبة على حافة الساحة .. ثم وقف ، وكأنه لم يكن يدرى الى أية ناحية يتجه . ورفع يده ، فكشف عن حدقة عينه تحت أجفانه ، وتطلع الى السماء بمقلة غير مبصرة ، وقد بدا عليه انه كان يبذل جهدا ليجعلها تبصر .. كان ولكنه لم يطمئن الى اتجاهه ، فتلمس سبيله عائدا الى الدار ودخلها .. واذ ذاك اقتربت وطرقت الباب برفق ، ففتحته زوجة جون . وبادرتها قائلة : « أهذه انت يامارى ؟.. كيف حالك ؟ » . وأجفلت وكأنها رأت شبحا ، ولكنى هدأت من روعها بسرعة ، فهتفت : « أحقا هذه أنت يا آنسة .. أو قدمت وحيدة ، فى مثل هذه الساعة ، الى هذا المكان المنعزل ؟ » . وتبعتها الى المطبخ ، حيث وجدت جون جالسا يصطلى نار المدفاة ، فشرحت لهما فى ايجاز ماسمعته عما حدث مذ بارحت (ثورنفيلد) ، وقلت اننى جئت لازور مستر روشستر ، ثم أوفدت جون الى البقعة التى بارحت فيها العربة ، ليحضر لى حقيبتى ، اذ كنت قد تركتها فى كوخ صغير

وفيما كنت أسأل مارى عما اذا كان من الميسور ان أقضى ليلتى فى الدار ، دوى رنين جرس من قاعة الجلوس ، فخفت لتلبيته . واذ ذاك قلت لها :«قولى

لسيدك ان ثمة شخصا يريد لقاءه ، ولكن لا تذكرى له اسمى » . فأجابت : « ما أظنه سيسمح لك ، فهو يرفض مقابلة أى انسان » . ولكنها ما لبثت ان عادت قائلة : « اكتبى له اسمك والمهمة التى جئت من اجلها » . وتحولت تملأ كوبا بالماء ، وتضعه على صينية مع بعض الشموع ، قائلة : « انه يحب دائما ان توضع الشموع بالغرفة ، برغم أنه أعمى » . فقلت لها : « هاتى الصينية ، فسوف أحملها اليه » . وأرشدتنى الى باب غرفة الجلوس ..

وكانت غرفة الجلوس تبدو كئيبة ، وقد أخذت حفنة من الجمر تتقد وئيدا فى مدفأتها التى وقف سيد الضيعة الاعمى بجانبها وقد مال نحوها ، وأسند رأسه الى حافتها ، على عادته . وكان كلبه العجوز « بايلوت » منزويا فى أحد الاركان ، وكأنه ينأى بنفسه عن مواطىء قدمى سيده . فلما ولجت الحجرة ، شرع الكلب أذنيه ، ثم قفز مرسلا نباحا قصيرا ، خافتا ، وقفز نحوى ، فكاد يسقط الصينية من بين يدى . وما ان وضعتها على المنضدة ، حتى ربت الكلب وهمست اليه ليعود الى حيث كان . والتفت مستر روشستر بحركة آلية ، وكأنما أراد أن « يرى » ماكان يجرى . فلما لم ير شيئا ،تنهد وقال : « ناولينى الماء يامارى » . واقتربت منه حاملة الكوب ، فتبعنى (بايلوت) وهو لايزال منفعلا ، فتساءل السيد : « ماذا هناك ؟ » . وعدت أهمس للكلب: « اهدأ يابايلوت ! » ، فأمسك السيد الكوب فى الهواء قبل ان تبلغ شفتيه ، وقال : « هل أنت مارى ؟ » . فأجبت : « ان مارى فى المطبخ »

ومد يده بحركة سريعة ، ولكنه لم يمسنى ، اذ لم يكن يرانى . وصاح وقد لاح لى أنه كان يحاول ان « يرى » بعينيه اللتين فقدتا ابصارهما : « من هذه ؟ من ؟.. أجيبى .. تكلمى ! » . فقلت : « هل تريد مزيدا من الماء ياسيدى ؟ .. لقد أرقت نصف ماكان فى الكوب » .. وصاح فى لهجة آمرة : « من هذه ؟.. من التى تتكلم ؟ » . قلت : « لقد عرفنى بايلوت .. ويعلم جون ومارى اننى هنا . لقد وصلت لتوى » .. فهتف : « الله أكبر !.. أى وهم يغشانى ؟.. أى جنون عذب يستولى على ؟ » .. ولكننى قلت : « لا وهم ولا جنون ، فان عقلك ياسيدى أقوى من ان يغشاه الوهم ، وصحتك لا تدع سبيلا للجنون ! » .. وعاد يقول : « أين المتكلمة ؟.. أهو صوت فحسب ؟.. أواه ! ليس بوسعى ان أرى ، فلابد لى من ان ألمس ، والا كف قلبى عن وجيبه ، وانفجر مخى ، أو فقدت الحياة ! »

ومد يده يتلمس ، فأمسكت بها بين راحتى . وصاح : « انها نفس أصابعها .. الاصابع الصغيرة ، النحيلة !.. اذن فلابد انها هنا بأكملها » . وأفلتت يده القوية من قبضتى ، فأمسكت بذراعى ، وبكتفى وعنقى وخصرى ، ثم ضمنى اليه ، وهو يهتف : « انها جين !.. نفس شكلها ، وحجمها .. » . فأضفت قائلة : « وصوتها .. هى بأكملها هنا .. وهذا قلبها أيضا .. الا



باركك الله ياسيدى ! لكم أنا مسرورة اذ أجدنى بقربك مرة أخرى » . ولكنه لم يقو على أن يقول شيئا سوى : « جين اير !.. جين اير ! » . فقلت : « أجل ياسيدى العزيز .. أنا جين اير .. لقد عثرت عليك .. لقد عدت اليك ! »

ـ أحقا ؟.. بلحمك ودمك ؟.. أحقا أنت جين ، وعلى قيد الحياة ؟

ـ انك تلمسنى ياسيدى ، وتضمنى .. لست باردة كالجثة ، ولا هباء كالاشباح .. بل أنا حقيقة !

ـ ياحبيبتى !.. هذه حقا أطرافها .. وهذه قسماتها . ولكنى لا أصدق اننى أحظى بالنعيم بعد كل ما لقيت من تعاسة .. انه حلم ، وكم من أحلام مثله تراودنى فى ليلى !.. أحلام أضمها فيها الى قلبى ، وأقبلها ، وأشعر بأنها تحبنى ، وأثق من انها لن تفارقنى

ـ ولن أفارقك منذ اليوم ياسيدى .. أبدا !

ـ أيقول الطيف : أبدا ؟!.. ولكننى أستيقظ دائما لاجد ان الامر لايعدو ان يكون سخرية خاوية ، واننى وحيد ، مهجور .. حياتى ظلام ، وعزلة ، ويأس .. ان روحى ظامئة ولكنها محرومة من الشراب .. وقلبى جائع ولكنه لايلقى القوت قط .. أيها الحلم الرقيق الناعم المستكين فى أحضانى ، لسوف تطير كما طار أخوتك من قبل ، ولكن .. قبلنى قبل الرحيل .. قبلينى ياجين !

وألصقت شفتى بعينيه اللتين كانتا مؤتلقتين يوما فأصبحتا بلا شعاع ، وبشعره وجبينه . وفجأة ، وجدته ينهض وقد استولى عليه اليقين ، وهتف : « انها .. أنت جين !.. اذن فقد عدت الى ، ولست جثة هامدة فى خندق أو جوف جدول .. ولست تهيمين منبوذة بين أغراب ؟ » .. فقلت :

« لا ياسيدى ، بل أنا الآن امرأة مستقلة » ٠٠ واذ تساءل : « مستقلة ؟ » ، قلت : « لقد مات خالى فى ماديرا ، وترك لى خمسة الآف جنيه » ٠٠ فصاح : « لعمرى ، انها لحقيقة ٠٠ انه واقع !٠٠ وهذ اهو صوتها ذو الطابع الخاص ، الذى يحيى قلبى الذاوى ٠ اذن فأنت امرأة غنية ياجانيت ؟٠٠ لاشك فى أن لك الآن أصدقاء يعنون بك ، ولا يجشمونك عناء أن توقفى حياتك على أعمى أكتع عاجز ! » ، فهتفت : « لقد أنبأتك ياسيدى بأننى مستقلة ، وغنيـة ، وسيدة نفسى ! » ٠٠ فتساءل : « وهل ستمكثين معى ؟ » ٠ وكان جوابى : « بالتأكيد ، ما لم تكن تمانع أنت !٠٠ سأكون جارتك ، وممرضتك ، ومدبرة بيتك ٠٠ اننى أجدك وحيدا ، وسأكون أنيستك : أقرأ لك ، وأسير معك ، واجلس معك ، وأقوم بخدمتك ، وأكون عينين ويدين لك ٠ فكف عن الحـزن ياسيدى العزيز ، فلن تكون وحيدا مادمت أنا على قيد الحياة ! »

ولم يجب ، بل بدا شارد الذهن ، ثم تنهد ، وهم بأن يتكلم ، ولكنه عاد فاطبق شفتيه ٠ وشعرت بشىء من الحيرة ، وخشيت أن أكون قد تجـاوزت حدودى اذ عرضت عليه البقاء معه ، وانه رأى فى ذلك مايجافى الاحتشام ،كما فعل سانت جون !٠٠ والواقع أننى ما اقترحت البقاء معه ، الا استنادا الى انه كان يود أن أكون زوجته ٠٠ وشرعت أتسلل من أحضانه برفق ، ولكنـه تشبث بى ملهوفا ، وقال : « لا ياجين ، لا تذهبى !٠٠ لقد لمستك ،وسمعتك، ونعمت بوجودك ، وبعـذب مواساتك ، وليس بوسعى أن أتخلى عن هـذه المسرات ٠٠ لابد من أن استحوذ عليك ، ولتضحك الدنيا ، ولتقل اننى أنانى، فان هذا لن يهمنى ٠٠ ان روحى تطلبك ، فان لم تنل بغيتها فستوقع عـلى كيانى انتقاما مميتا » ٠ فقلت : « حسنا ياسيدى ، سأبقى معك كما قلت » ٠ فعقب قائلا : « ولكنك تفهمين من البقاء معى غير ما أفهم ٠ انك قد تعتزمين ان تعنى بى كممرضة رحيمة ، وهذا يكفينى ، اذ أرى ان من الخليق بى الآن ألا أكن لك سوى مشاعر أبوية ٠٠ ولكنك لن تظلى أبدا ممرضتى ياجانيت ٠٠ انك شابة ولابد من أن تتزوجى يوما »

ـ لست أحفل بالزواج

ـ بل يجب أن تحفلى ٠٠ ولو اننى اليوم كما كنت من قبل ، لمـا جعلتك تحملين هما ، ولكننى ٠٠ جسد بلا بصر !

واستكان للاسى مرة أخرى ٠ أما أنا فقد ازددت ابتهاجا وجرأة ، اذ أدركت العقبة التى كانت تعترضه ٠٠ ولكنها لم تكن تعترضنى أنا ، فقلت : « لسوف يضطلع شخص ما بردك الى الطبيعة الانسانية يوما ، اذ أرى أنك قد تطورت الى أسد ، أو مايشبهه » ٠ واذ ذاك بسط ذراعه المبتورة اليد ، وقال :«ولكننى لم أوت يدا ولا مخلبا فى هذه الذراع ٠٠ انها بشعة المنظر ، الا تظنين ذلك

ياجين ؟ » . فقلت : « انني أشعر بالاسى اذ اراها ، واذ أرى عينيك ، والحرق الذى فى جبينك .. وأسوأ مافى الامر أن المرء فى خطر الوقوع فى حبك من أجل هذا كله ! » .. فقال : « ظننت انها ستثير تقززك ياجين »

– أحقا ؟.. لاتقل هذا ، والا انزلق لســانى الى تسفيه حكمك . والآن ، دعنى أغادرك وهلة لاذكى النار ، وأنظف المكان أمام المدفأة . هل تعرف النار الجيدة اذا وجدت ؟

– أجل ، فان عينى اليمنى تستطيع ان ترى الوهج وكأنه ضباب متقد كالسحابة المضيئة » . فسألته : « وهل ترانى ؟ » . وكان جـوابه : « لا ياحوريتى .. ولكنى أحمد الله على أن بوسعى أن أسمعك وأن ألمسك ! »

قلت : « وهل ترى الشموع ؟ » . فأجاب : « خافتة جدا .. كل منهـا

واستدعيت مارى،وسرعان ما نسقت معها الغرفة ، فأصبحت بهيجة المنظر ، وأعددت له عشاء شهيا ، وقد انتشت أحاسيسى . وأخذت أحدثه أثناء العشاء – ووقتا طويلا بعده – فى سرور وانطلاق .. أجل ، كنت أشعر وأنا معـه بانطلاق وراحة ، لاننى كنت أدرك أننى أروق له ، وان كل ما أقول يسرى عنه وينعشه .. وياله من شعور طروب ، رد الحياة والضوء الى طبيعتى كلها . فاذا بى أعيش فى وجوده ، واذا هو يعيش فى وجودى !.. وأخذ بعد العشاء يسألنى أين كنت ، وماذا كنت أفعل ، وكيف عثرت عليه . ولكنى اقتصرت على اجابات مقتضبة ، خشية أن لا يتسع الليل للتفصيل ، كما اننى لم أشأ أن أنكأ جراحا قديمة فى فؤاده .. وكان لا يفتأ يسائلنى : « أحقــا أنت آدمية ياجين ؟ من الذى يستطيع أن يصف الحياة المظلمة ، البغيضة ، اليائسة التى كنت أرزح تحتها فى الشهور الماضية ؟.. لم أكن أفعل شيئا ، أو أتوقع شيئا .. أخلط بين الليل والنهار ، دون أن أشعر بالبرد اذا انطفأت النار ، ولا بالجوع اذا نسيت الطعام .. حزن لاينقطع ، وشوق محموم الى أن أضم جينى » ثانية .. كنت أصبو الى استردادها أكثر ممـا أتوق الى استرداد بصرى. فكيف أصدق أن جين معى الآن ، واننى أسمعها تؤكد انها تحبنى ؟ »

★ ★ ★

✦ وشعرت به مستيقظا فى ساعة جد مبكرة من الصباح التالى ، يتنقل من غرفة الى غرفة . وما ان هبطت اليه مارى ، حتى سمعت هذا السؤال : « هل مس اير هنا ؟ » .. ثم : « فى أية غرفة أنزلتها ؟.. أهى غرفة جافة ؟ وهل استيقظت ؟ » . فهبطت اليه ، ودخلت الغرفة بخطى خفيفة ، وأخذت أتأمله قبل أن يفطن الى وجودى .. كان من المحزن حقا أن أشهد تلك الروح القوية حبيسة جسد عاجز مشوه !.. كانت تجاعيد الاسى تتخلل قسماته القوية ، فذكرنى مظهره بمصباح انطفأ ، وجثم يرتقب أن يضاء ثانية .. وا أسفاه !..

لقد أردت ان أبدو مرحة ، ولكن عجز الرجل الجبار مس شغاف قلبى ٠٠ومع ذلك فقد رحت أخاطبه بكل ما استطعت من خفة روح : « انه صباح مشمس مشرق ياسيدى ٠٠ ولن نلبث ان نخرج للنزهة » ٠ وأيقظت كلماتى وميض روحه ، فأشرقت أساريره وهتف : « آه ، انك هنا حقا ياعصفورتى !٠٠ تعالى الى !٠٠ انك لم تذهبى ، ولم تتلاشى ٠٠ كل أنغام الدنيا تتركز فى لسان جينى الحبيبة ليسكبها فى اذنى ٠٠ وكل أشعة الشمس أحسها فى وجودها !»



وقضينا معظم النهار فى الهواء الطلق ، فقد قدته بعيدا عن الغابة الكثيفة الرطيبة ، الى بعض الحقول الناضرة ، ورحت أصف له بهاء الخضرة ، وحسن الزهور ، وصفاء السماء ٠٠ واخترت له مجلسا على جذع شجرة فى بقعة جميلة ، متوارية ٠ ولم أمانع حين أجلسنى على ركبتيه ٠ ولماذا أمانع مادام كل منا سعيد بقرب الآخر ؟٠٠ وفجأة ، صاح وأنا بين ذراعيه : « يالك من هاجرة قاسية !٠٠ أواه ، ياجين ، أى شعور تملكنى حين اكتشفت فرارك من ثورنفيلد ، وعندما عز على العثور عليك فى أى مكان ، ولما تبينت انك لم تتزودى بنقود أو أى شىء ينفع بدلا منها ! » ٠٠ وشرعت أروى له تجاريبى فى العام الاخير ، وقد خففت كثيرا من وصف الايام الثلاثة التى قضيتها مشردة ، جائعة ، حتى لا أسبب له ألما لا داعى له ٠٠ وكان يقاطعنى باللوم والعتاب ، فلما انتهيت سألنى عن سانت جون ٠ وغاظه أن رحت أصفه بكل حسن ، وأطنب فى امتداحه ٠٠ ورأيت ان الغيرة قد لدغته ، فلم يلبث ان قال:

– هل عينك سانت جون معلمة قبل أن يعرف انك ابنة خاله ؟

وأجبت : « نعم » ، فقال : « هل كنت ترينه كثيرا ، وهل كان يزور المدرسة أحيانا ؟ » ، فأجبت : « يوميا »

– هل كان يقر تصرفاتك ياجين ؟٠٠ اننى أعرفك بارعة ذكية

وقلت : « أجل ، كان يقرها » • فقال : « هل اكتشف فيك أشياء كثيرة لم يكن يتوقعها ؟ » • وكان جوابى : «لست أدرى » • فعاد يسأل : « تقولين انك كنت تقيمين فى كوخ صغير بالقرب من المدرسة ، فهل كان يزورك فيه؟» •• وأجبت : « بين آن وآخر » • وهنا سألنى : « فى المساء ؟ » ، فقلت : مرة أو اثنتين » • وصمت برهة ، ثم عاد يسألنى : « كم أقمت معه ومع أخته بعد اكتشاف القربى ؟ » • فكان جوابى : « خمسة أشهر » • • واذ عرف اننى درست الالمانية فى تلك الاثناء ، وان سانت جون علمنى قليلا من الهندوستانية ، قال : « لماذا رغب فى ان يعلمك الهندوستانية ؟ » • فاجبت: « كان يرمى الى أن أذهب معه الى الهند »

ـ آه ، بلغت لب الموضوع •• أكان يريد الزواج منك ؟

ـ بل عرض على الزواج •• سألنيه أكثر من مرة ، ولم يكن يقل عنك الحاحا واستحثاثا

ـ أكرر لك يامس اير ان بوسعك أن تغادرينى • لماذا تبقين جاثمة على ركبتى وقد أذنت لك بالرحيل ؟

قلت : « والى أين أذهب ياسيدى ؟ » • وكان جوابه : « مع الزوج الذى اخترته •• هذا السانت جون ريفرز ! » • وهنا قلت : « انه ليس زوجى ، ولن يكون ، فهو لايحبنى ، ولست أحبه •• ما أراد الزواج منى الا لانه ظن اننى أصلح لان أكون زوجة مبشر •• انه بارد ازائى كجبل من جليد ، فهو ليس مثلك ياسيدى •• انه لايرى فى شخصى فتنة ، وانما يرى بعض محاسن عقلية نافعة •• أفأتركك بعد هذا ياسيدى وأذهب اليه ؟ »

وارتجفت على الرغم منى ، فتعلقت بسيدى الاعمى الحبيب • واذ ذاك ابتسم قائلا : « أحقا ياجين ان هذه هى حقيقة مابينك وبين ريفرز ؟ » • فقلت : « كل الحقيقة ياسيدى •• آه ، لا حاجة بك لان تغار ، فانما أردت ان اداعبك قليلا لابدد عنك الشجن •• لو انك أدركت كم أحبك لازدهاك التيه وغمرك الرضى • ان قلبى بأسره ملك لك ياسيدى ، وسيبقى معك ولو شاء القدر أن يقصينى عنك » • فقبلنى وقد اكفهر محياه ، وتمتم : « أواه يابصرى المظلم، وياقواى العاجزة ! » •• ورحت أسرى عنه ، فأشاح عنى قليلا ، واذ ذاك رأيت دمعة تنحدر من عينه المغلقة ، فانفطر قلبى • وعاد يقول : « اننى لست أفضل من الشجرة العتيقة التى اقتلعتها العاصفة فى حديقة قصر ثورنفيلد •• فأى حق لهذا الطلل ، فى أن يسأل زهرة متفتحة بأن تضىء بنضارتها بقاياه؟» •• فقلت : « ما أنت بالشجرة التى اقتلعتها العاصفة ياسيدى ، وانما انت خضرة ونضارة وقوة • لسوف تنمو النباتات حول جذرك ، سمحت لها أو لم تسمح ، لانها تسعد فى الاحتماء بظلك •• وبينما تحنو عليها ، ستلتف هى

حولك ، لان قوتك تتيح لها حمى أمينا ! »

وعاد يبتسم ، اذ سريت عنه ٠ على انه ما لبث أن قال : « اواه ياجين ! .. ولكننى أنشد زوجة » .. فقلت : أحقا ياسيدى ؟ » ٠ وهنا قال :

ـ أجل ، سأختار تلك التى أحبها فوق كل شيء .. هل تتزوجين منى ياجين؟ واذ أجبت : « نعم ياسيدى » ، قال : « أتتزوجين من أعمى مسكين ، تاخذين بيده لتقوديه ؟ » ٠ فقلت : « أجل ياسيدى » ٠ وعاد يسأل : أتتزوجين رجلا عاجزا ، يكبرك بعشرين عاما ، وتضطرين الى خدمته ؟ » ٠ قلت : « أجل ياسيدى » ٠ فهتف : « أواه ياحبيبتى !.. ليباركك الله ويجزلك الجزاء ! » ٠ واذ ذاك قلت فى حرارة : « مستر روشستر .. اذا كنت قد فعلت خيرا فى حياتى ، واذا كانت قد جالت بخاطرى يوما فكرةطيبة، واذا كنت قد صليت يوما صلاة مخلصة لا شائبة فيها ، واذا كنت قدتمنيت يوما أمنية حلالا .. فها أنذى الآن أنال الجزاء »

ـ ذلك لانك انما تغتبطين بالتضحية

ـ تضحية !.. بأى شيء أضحى ؟.. أهى تضحية ان أستبدل بالجوع قوتا، وبالرجاء سعادة واقعة .. أن أحتضن أغلى ما لدى .. أن ألصق شفتى بمن أحب .. أن أستند الى من اطمئن اليه .. أهذه تضحية ؟.. اذا كانت كذلك، فأنا مغتبطة فعلا بالتضحية !

ـ أوليس احتمال عجزى والتغاضى عن عيوبى تضحية ؟

ـ انها ليست شيئا فى نظرى ، فأنا أحبك اليوم أكثر من ذى قبل ، اذ اجدنى ذات نفع لك

ـ اذن ، فليس لدينا مانتريث من أجله ٠ لنتزوج فى التو !

وكان يتكلم بحماسة ، وقد عاودته حمية الماضى ٠ فقلت : « اننى أرى الشمس قد تجاوزت السمت ، فدعنى أعرف الوقت فى ساعتك ».. ونظرت الى الساعة ثم قلت:« انها الرابعة من بعدالظهر ، أفلا تشعر بجوع ياسيدى؟ »٠ ولكنه عاود حديثه الاول : « بعد ثلاثة أيام نعقد قراننا ياجين ، ولا حاجة بنا للانتظار انك تظنيننى كلب زنديق ياجين ، ولكن قلبى يزخر بالشكر لرب هذه الارض ، فهو أبعد نظرا ، وأعدل حكما ، وأوسع حكمة من الانسان٠ لقد أذنبت ، اذ كدت أدنس زنبقتى البريئة ، ولكن الله القدير انتزعها منى ، فكدت العنه فى حنقى بدلا من ان أحنى الرأس لحكمه .. تحديته ، فتبعتنى العدالة الالهية ، وتوالت على النكبات ، واضطررت الى أن أهيم فى واد تخيم عليه ظلال الموت ٠ وأدركنى قصاص الله فأذلنى الى الابد ٠ انك لتعلمين اننى كنت مغرورا بقوتى ، فأين هى الآن وقد أصبحت مضطرا الى من يقودنى ، كما يفعل الطفل فى ضعفه ؟.. لقد بدأت ارى يد الله واعترف بقدرتها ..

بدأت أندم ، وأتوب ، وأتقرب الى خالقى .. بدأت أصلى ، صلاة صادقة رغم قصرها .. ومنذ أيام ، بل منذ أربعة أيام – فى مساء الاثنين الماضى – اعترتنى حال غريبة ، فاذا الحزن يحل محل الجحود ، والاسى محل العناد .. وكنت أوقن – بعد أن عجزت عن العثور عليك – من انك ولابد ميتة .. وفى ساعة متأخرة من تلك الليلة ، ناشدت الله أن يخلصنى من الحياة اذا رأى فى هذا خيرا ، وطمعت فى أن يجمعنى العالم الآخر بك .. وكنت اذ ذاك جالسا فى غرفتى بجوار نافذة مفتوحة .. واشتد بى الحنين اليك ياجانيت !. فهتف لسانى بما كان قلبى يهفو اليه ، فهتفت : « جين ! جين ! جين ! »

فقلت أسأله : « أكان ذلك فى مساء الاثنين .. حوالى منتصف الليل ؟ » ..

فقال : « أجل . ليس المهم الوقت ، وانما المهم ماحدث بعد ذلك .. لسوف تظنين اننى أومن بالخرافات ، ولكنه الحق أقول .. فما ان هتفت باسمك ، حتى أجابنى صوت – لا أدرى من أين انبعث ، ولكنى أعرفه جيدا – « اننى قادمة ، انتظرنى ! » .. وبعد لحظة ، حملت الريح هذه الهمسة : « أين أنت ؟ » .. ان من العسير على أن أصف لك ما أريد . ان (فرندين) لدفينة – كما ترين – فى جوف غابة كثيفة ، تكتم ذبذبات الصوت ، ومع ذلك فقد خيل الى أن عبارة « أين أنت ؟ » انطلقت بين جبال ، اذ سمعت لها صدى تردد .. وما كان احلى النسائم التى لثمت جبينى اذ ذاك .. اننى لأومن بان روحينا تقابلتا اذ ذاك »

ولقد كانت ليلة الاثنين ، وحوالى منتصف الليل أيها القارىء ، حين سمعت النداء الخفى ، واجبت عليه بتلك الكلمات .. على اننى لم أصارح مستر روشستر بذلك ، فقد بدت الظاهرة أغرب من ان أصفها له .. كان عقله فى دور النقاهة من آلامه ، فلم يكن ينبغى أن يرهق بأسرار ما وراء الطبيعة

الفصل الثامن والثلاثون

◆ وتزوجته ، أيها القارىء !.. وكان قراننا هادئا لم يحضره سواه واياى والكاهن وكاتب الكنيسة . وعندما عدنا الى الدار ، قصدت الى المطبخ ، حيث كانت مارى تطهو ، وجون ينظف السكاكين ، وقلت : « لقد تزوجت مستر روشستر فى هذا الصباح يامارى ! » .. وكانا من البسطاء ، المحتشمين ، الذين يستطيع المرء أن يزجى اليهم أى نبأ دون أن تخرق أذنيه صيحات الدهشة أو الفرح .. فتطلعت الى مارى فى هدوء ، وقد غفلت عن المغرفة التى كانت تقلب بها دجاجتين على النار ، فتركتها معلقة فى الهواء ثلاث دقائق ، بينما كف جون برهة عن تلميع السكاكين . على أن مارى ما لبثت أن تحولت

الى الدجاجتين ، دون أن تفوه بأكثر من : « أحقا يا آنسة ؟•• احسنتما !» •• ولمحت جون يبتسم فاغرا فاه ، وقال : « لقد قلت لمارى اننى كنت أعرف أن مستر ادوارد سيقدم على هذا ، وفى رأيى أنه أحسن صنعا »

وكتبت لفورى الى (مور هاوس) و (كمبردج) أزجى النبأ ، وأشرح سر تصرفى • وابتهجت ديانا ومارى بلا تحفظ •• ولست أدرى كيف تلقى سانت جون النبأ ، فانه لم يرد قط على خطابى ، على انه ما لبث أن كتب لى بعد ستة أشهر ، دون أن يذكر اسم مستر روشستر أو يشير الى زواجى • وحرص بعد ذلك على الكتابة الى بانتظام - وفى فترات غير متقاربة - متمنيا لى السعادة

وما أظنك نسيت أديل ، أيها القارىء •• اننى سرعان ما استأذنت مستر روشستر فى الرحيل لزيارتها فى مدرستها • ولكم أثر فى نفسى الفرح الطاغى الذى تولاها •• وبدت لى شا[illegible]لة ، مهمومة ، فلما تبينت ان نظام المدرسة أقسى من أن تح[illegible] سنها ، صحبتها معى فى عودتى ، وألحقتها بمدرسة قر[illegible]لائمة لها • واعتدت ان أزورها ، وأن استقدمها الى دارنا ، و[illegible]ها تشعر بحاجة أو أسى •• وهكذا اقتربت قصتى من ختامها ، فلم [illegible]ق سوى كلمة عن حياتى الزوجية ، ونظرة سريعة الى مصائر أولئك الذين ترددت أسماؤهم فى الرواية

لقد انقضت عشر سنوات على زواجى ، فعرفت مدى المتعة التى يحظى بها المرء حين يعيش من أجل أحب عزيز لديه على الارض •• ان لغتى تعجز عن وصف هناءتى ، لاننى حياة زوجى ، وهـو حياتى • وما أظن امرأة توثقت صلتها بزوجها قدر توثق صلتى بزوجى •• اننى لا أمل عشرة ادوارد ، وهو لايمل عشرتى ، اللهم الا اذا جاز للمرء أن يسأم وجيب قلبه !•• اننا دائما معا ، وكأننا شخص واحد ينعم بالوحدة والحرية !••ولقد ظل مستر روشستر فاقد الابصار خلال العامين الاولين من زواجنا ، فكنت أنا بصره ، كما لا أزال يده اليمنى •• كان يرى الطبيعة بعينى ، ويقرأ الكتب بهما ، وما سئمت قط أن اعوضه ببصرى عن بصره المفقود •• وكان حبه لى يجعله لا يألم من اعتماده على ، واستمتاعه بخدمتى له ، فقد كان موقنا من اننى أحبه كل الحب • وفى ذات صباح - فى نهاية العام الثانى لزواجنا - أخذ يملى على خطابا • وفيما كنت أكتب ، سألنى : « هل تلبسين حلية لامعة حول عنقك ياجين ؟ » •• وكنت أحيط رقبتى بسلسلة ذهبية ، فقلت : « أجل » • قال : « وهل ثوبك أزرق خفيف ؟ » •• وكان ثوبى كذلك فعلا • واذ ذاك أنبأنى ادوارد بانه بدأ منذ زمن يشعر بأن الغيوم التى كانت تخيم على عينه الوحيدة أخذت تخف وتنقشع • وقد تأكد من الامر فى ذلك الصباح • ومن ثم رحلنا الى لندن ، حيث فحصه اخصائى مبرز فى علاج البصر ، فلم يلبث ان استرد

الى الدجاجتين ، دون ان تفوه باكثر من : « احقا يا آنسة ؟٠٠ احسنتما !»٠٠ ولمحت جون يبتسم فاغرا فاه ، وقال : « لقد قلت لمارى اننى كنت اعرف ان مستر ادوارد سيقدم على هذا ، وفى رايى أنه احسن صنعا »

وكتبت لفورى الى (مور هاوس) و (كمبردج) ازجى النبا ، واشرح سر تصرفى ٠ وابتهجت ديانا ومارى بلا تحفظ ٠٠ ولست ادرى كيف تلقى سانت جون النبا ، فانه لم يرد قط على خطابى ، على انه ما لبث ان كتب لى بعد ستة اشهر ، دون أن يذكر اسم مستر روشستر أو يشير الى زواجى ٠ وحرص بعد ذلك على الكتابة الى بانتظام - وفى فترات غير متقاربة - متمنيا لى السعادة

وما اظنك نسيت اديل ، ايها القارىء ٠٠ اننى سرعان ما استأذنت مستر روشستر فى الرحيل لزيارتها فى مدرستها ٠ ولكم أثر فى نفسى الفرح الطاغى الذى تولاها ٠٠ وبدت لى شاحبة ، هزيلة ، مهمومة ، فلما تبينت ان نظام المدرسة أقسى من أن تحتمله صبية فى سنها ، صحبتها معى فى عودتى ، والحقتها بمدرسة قريبة ، أكثر ملاءمة لها ٠ واعتدت ان ازورها ، وان استقدمها الى دارنا ، وأن لا أدعها تشعر بحاجة أو اسى ٠٠ وهكذا اقتربت قصتى من ختامها ، فلم تبق سوى كلمة عن حياتى الزوجية ، ونظرة سريعة الى مصائر أولئك الذين ترددت أسماؤهم فى الرواية

لقد انقضت عشر سنوات على زواجى ، فعرفت مدى المتعة التى يحظى بها المرء حين يعيش من اجل احب عزيز لديه على الارض ٠٠ ان لغتى تعجز عن وصف هناءتى ، لاننى حياة زوجى ، وهو حياتى ٠ وما اظن امراة توثقت صلتها بزوجها قدر توثق صلتى بزوجى ٠٠ اننى لا امل عشرة ادوارد ، وهو لايمل عشرتى ، اللهم الا اذا جاز للمرء أن يسأم وجيب قلبه !٠٠ اننا دائما معا ، وكاننا شخص واحد ينعم بالوحدة والحرية !٠٠ولقد ظل مستر روشستر فاقد الابصار خلال العامين الاولين من زواجنا ، فكنت انا بصره ، كما لا ازال يده اليمنى ٠٠ كان يرى الطبيعة بعينى ، ويقرأ الكتب بهما ، وما سئمت قط ان اعوضه ببصرى عن بصره المفقود ٠٠ وكان حبه لى يجعله لا يالم من اعتماده على ، واستمتاعه بخدمتى له ، فقد كان موقنا من اننى احبه كل الحب ٠ وفى ذات صباح - فى نهاية العام الثانى لزواجنا - اخذ يملى على خطابا ٠ وفيما كنت أكتب ، سالنى : « هل تلبسين حلية لامعة حول عنقك ياجين ؟ » ٠٠ وكنت أحيط رقبتى بسلسلة ذهبية ، فقلت : « اجل » ٠ قال: « وهل ثوبك ازرق خفيف ؟ » ٠٠ وكان ثوبى كذلك فعلا ٠ واذ ذاك انبانى ادوارد بانه بدا منذ زمن يشعر بان الغيوم التى كانت تخيم على عينه الوحيدة اخذت تخف وتنقشع ٠ وقد تاكد من الامر فى ذلك الصباح ٠ ومن ثم رحلنا الى لندن ، حيث فحصه اخصائى مبرز فى علاج البصر ، فلم يلبث ان استرد

ابصار تلك العين . ومع انه لايستطيع الآن أن يرى بجلاء تام ، ولا أن يطيل القراءة والكتابة ، الا أنه يستطيع أن يتبين طريقه دون أن يأخذ أحد بيده .. وعندما تلقى أول أولاده بين ذراعيه - عقب مولده - استطاع أن يرى الابن الذى ورث عنه عينيه فى حالهما الاول .. العينين الواسعتين ، المتألقتين ، السوداوين !.. وفى هذه المناسبة ، عرف ادوارد - مرة أخرى - ان الله برحمته قد خفف من عقابه !

وهكذا أحيا مع حبيبى ادوارد فى سعادة يضاعف منها أن أحب الناس الينا سعداء ، هم الآخرون . فلقد تزوجت ديانا ومارى ريفرز .. الاولى من ضابط فى البحرية ، طيب القلب والسيرة ، والثانية من قس كان زميل أخيها فى الدراسة .. أما سانت جون فقد ذهب الى الهند ، ولا يزال يمضى فى الطريق التى اختارها لنفسه ، كرائد قوى العزيمة ، لا يتطرق الكلل الى همته وسط الصخور والاخطار ... [illegible] صارما ، متعنتا ، طموحا .ولكنها كانت صرامة المجاهد فى سبيل الله [illegible] الرسول الذى يتمثل بقول المسيح : « من يأتى ورائى فلينكر [illegible] صليبه ويتبعنى » .. أما طموحه ، فطموح الروح الكبيرة الس[illegible] يهدف الى أن تكون فى الصفوف الاولى بين من يعتقون من الار[illegible] يظفرون بالخلاص ، ويقفون أمام عرش الله بلا خطيئة .. ولم يتزوج سا[illegible] جون حتى الآن . ولقد انتزع خطابه الاخير الدموع من عينى ، وان ملأ قلبى بفرح ربانى .. لقد أحسست بأن الخطاب التالى سيكتب بيد غير يده ، لينقل الى مصرعه .. مصرع خادم أمين وفى لربه . ولكن ، لماذا البكاء ؟.. ان الخوف من الموت لن يخيم على الساعة الاخيرة فى حياة سانت جون ، وسيظل عقله صافيا ، وأمله قويا ، ويقينه ثابتا .. لقد عبر فى خطابه الاخير عن هذا بقوله :

- لقد أنذرنى معلمى ومولاى .. ان صوته يزداد وضوحا فى كل يوم وهو يقول لى : « يقينا اننى لآت سريعا ! » .. وفى كل ساعة ، أجيب بحرارة : « آمين .. فلتأت أيها الرب يسوع ! »

---*---

ابصار تلك العين . ومع انه لايستطيع الآن أن يرى بجلاء تام ، ولا ان يطيل القراءة والكتابة ، الا أنه يستطيع أن يتبين طريقه دون ان ياخذ احد بيده . وعندما تلقى أول أولاده بين ذراعيه ـ عقب مولده ـ استطاع أن يرى الابن الذى ورث عنه عينيه فى حالهما الاول .. العينين الواسعتين ، المتالقتين ، السوداوين !.. وفى هذه المناسبة ، عرف ادوارد ـ مرة أخرى ـ ان الله برحمته قد خفف من عقابه !

وهكذا أحيا مع حبيبى ادوارد فى سعادة يضاعف منها أن أحب الناس الينا سعداء ، هم الآخرون . فلقد تزوجت ديانا ومارى ريفرز .. الاولى من ضابط فى البحرية ، طيب القلب والسيرة ، والثانية من قس كان زميل أخيها فى الدراسة .. أما سانت جون فقد ذهب الى الهند ، ولا يزال يمضى فى الطريق التى اختارها لنفسه ، كرائد قوى العزيمة ، لا يتطرق الكلل الى همته وسط الصخور والاخطار .. لقد كان صارما ، متعنتا ، طموحا . ولكنها كانت صرامة المجاهد فى سبيل الله .. وتعنت الرسول الذى يتمثل بقول المسيح : « من يأتى ورائى فلينكر نفسه وليحمل صليبه ويتبعنى » .. اما طموحه ، فطموح الروح الكبيرة السامية ، التى تهدف الى أن تكون فى الصفوف الاولى بين من يعتقون من الارض ، ويظفرون بالخلاص ، ويقفون أمام عرش الله بلا خطيئة .. ولم يتزوج سانت جون حتى الآن . ولقد انتزع خطابه الاخير الدموع من عينى ، وان ملأ قلبى بفرح ربانى .. لقد أحسست بأن الخطاب التالى سيكتب بيد غير يده ، لينقل الى مصرعه .. مصرع خادم أمين وفى لربه . ولكن ، لماذا البكاء ؟.. ان الخوف من الموت لن يخيم على الساعة الاخيرة فى حياة سانت جون ، وسيظل عقله صافيا ، وامله قويا ، ويقينه ثابتا .. لقد عبر فى خطابه الاخير عن هذا بقوله :

ـ لقد أنذرنى معلمى ومولاى .. ان صوته يزداد وضوحا فى كل يوم ، وهو يقول لى : « يقينا اننى لآت سريعا ! » .. وفى كل ساعة ، أجيب فى حرارة : « آمين .. فلتأت أيها الرب يسوع ! »

هل فاتك الجزآن السابقان ؟

العدد الذى بين يديك هو الجزء الثالث والأخير من تحفة "شارلوت برونتى" الخالدة "جين اير"، التى حرصت (مطبوعات كتابى) على أن تقدمها اليك بنصها الكامل، فى ترجمة دقيقة مراجعة، لأول مرة باللغة العربية.. فاذا كان قد فاتك الحصول على الجزءين السابقين - أو أحدهما - فلا تضيع فرصة الحصول على هذا الجزء الأخير، بل بادر إلى اقتنائه الآن بغير ابطاء، ثم اطلب ما فاتك من الجزءين الأول والثانى من ادارة كتابى فى أقرب فرصة، كى تكتمل لك ولأ... الكاملة لهذه التحفة الخالد... تحف الأدب العالمى.



هل فاتك الجزآن السّابقان ؟

العدد الذى بين يديك هو الجزء الثالث والأخير من تحفة «شارلوت برونتى» الخالدة «جين اير» ، التى حرصت (مطبوعات كتابى) على أن تقدمها اليك بنصها الكامل، فى ترجمة دقيقة مراجعة ، لأول مرة باللغة العربية.. فاذا كان قد فاتك الحصول على الجزءين السابقين - أو أحدهما - فلا تضيع فرصة الحصول على هذا الجزء الأخير، بل بادر إلى اقتنائه الآن بغير ابطاء ، ثم اطلب ما فاتك من الجزءين الأول والثانى من ادارة كتابى فى أقرب فرصة ، كى تكتمل لك ولأولادك الترجمة الكاملة لهذه التحفة الخالدة من تحف الأدب العالمى .



مركز فن الطباعات ٥٨١٤٩